

التطورات السياسية والثقافية في عصر الإمام علي الهادي عليه السلام
- سردية روائية -

الباحث
عباس حسن علي (كمال السيد)
مؤسسة نفط الجنوب، العراق
kamal.moosan@gmail.com

**Political and Cultural Developments in the Era of
Imam Ali al-Hadi: A Narrative Account**

Researcher
Abbas Hasan Ali (Kamal Al-Sayyid)
South Oil Company, Iraq

Abstract:-

The era of Imam Ali al-Hadi spans from 829 CE to 868 CE, a period marked by significant political developments and crucial cultural transformations. Imam al-Hadi lived through much of the Samarra phase of the second Abbasid period, characterized by Turkish officers' growing influence and dominance over the governance and military leadership. Their control was so extensive that they dictated political life, greatly diminishing the authority of the Abbasid caliphs. Some caliphs became mere puppets in their hands, leading to a substantial decline in central governance. This decline allowed rulers in distant provinces to gain autonomy, pushing towards establishing independent or semi-independent political entities both in the east and west.

During this time, several revolts erupted, the most significant being the Zanj Rebellion in southern Iraq, particularly in the marshlands and wetlands, leading to the fall of Basra. This rebellion lasted for about fifteen years. Additionally, the Alawite uprisings were notable, driven by the intense persecution and systematic extermination policies they faced. Despite these challenges, they established a strong state in northern Iran, known as the Zaydi state.

Islamic society was composed of diverse elements in this historical context, often leading to cultural contradictions. From the year 220 AH, the Abbasid caliph al-Mu'tasim introduced Turkish elements into the military, expelling Arab elements, thereby transforming the military institution into exclusively Turkish. Consequently, the capital, Samarra, became famously known as "al-Askar" (the military).

One can imagine the presence of camps housing Turks with approximately a quarter of a million soldiers and one hundred and sixty thousand warhorses.

Key words: Imam Ali al-Hadi, political developments, cultural developments, al-Mu'tasim the Abbasid, Turkish element, Alawite revolts.

المخلص:-

يمتد عصر الإمام علي الهادي عليه السلام من سنة 214 هـ الموافق لعام 829م إلى سنة 254 هـ الموافق لعام 868م وقد شهدت هذه العقود الأربعة تطورات سياسية مثيرة وتحولات ثقافية غاية في الأهمية..

عاش الإمام الهادي عليه السلام معظم الحقبة السامرائية من العصر العباسي الثاني والتي اتسمت بتفاقم نفوذ الضباط الأتراك وهيمنتهم على أجهزة الحكم والقيادة العسكرية.. وقد بلغ نفوذهم أنهم كانوا يتحكمون بالحياة السياسية وقد تراجع نفوذ الخليفة العباسي إلى حد كبير وأصبح بعض الخلفاء العويّة بأيديهم ونجم عن ذلك تراجع كبير للحكم المركزي افضى إلى استقلال الحكام في الولايات البعيدة عن العاصمة سامراء والتوجه نحو تأسيس كيانات سياسية مستقلة أو شبه مستقلة سواء في الشرق أو في الغرب..

وفي هذه الفترة اندلعت ثورات عديدة كان أخطرها ثورة الزنج في جنوب العراق وتحديدًا في الأهوار والسطحات المائية وسقوط مدينة البصرة وقد استمرت هذه الثورة قرابة خمسة عشرة عاماً إلى جانب ثورات العلويين الذين كانوا يعانون أشد أساليب الاضطهاد والقهر وتعرضون إلى سياسات ممنهجة في إبادةهم والقضاء عليهم.. ومع ذلك فقد تمكنوا من تأسيس دولة قوية في شمال إيران هي الدولة الزيدية..

وفي هذه الفترة الزمنية كان المجتمع الإسلامي يتألف من عناصر متنوعة تصل إلى حد التناقض الثقافي.. ومنذ عام ٢٢٠ هـ أدخل المعتصم العباسي العنصر التركي وتم طرد العنصر العربي من الجيش لتصبح المؤسسة العسكرية مغلقة على الأتراك ولذلك دعت العاصمة سامراء واشتهرت بـ «العسكر»..

يكفي أن تصوّر وجود معسكرات يقطنها الأتراك تشتمل على ربع مليون جندي ومئة وستين ألف حصان حربي!!

الكلمات المفتاحية: الإمام علي الهادي عليه السلام، التطورات السياسية، التطورات الثقافية، المعتصم العباسي، العنصر التركي، ثورات العلويين.

المقدمة:

في ظل التفوق العسكري التركي في الدولة العباسية بوجود معسكرات يقطنها الأتراك تشتمل على ربع مليون جندي ومئة وستين ألف حصان حربي، فقد تمّ تهميش العنصر الفارسي الذي اتّجه نحو الحياة الثقافية على نحو كبير أما العرب الذين تمّ تسريحهم من الجيش العباسي فقد اتّجهوا نحو الانتماء إلى الحركات الثورية المناهضة للنظام العباسي..

وانتبه بعض خلفاء بني العباس إلى تعاظم نفوذ الأتراك فاستعانوا بعناصر أجنبية لايجاد حالة من التوازن فظهر المغاربة والفراغنة وأصبح لهم دور عسكري وسياسي كبير ومصري..

ومن الناحية الدينية شهدت الأمة انقساماً حاداً على صعيد الانتماء المذهبي أفضى إلى نشوب النزاعات الطائفية والمذهبية بين سنة وشيعة وحتى داخل أهل السنة نشبت نزاعات شديدة على خلفية أفكار معينة كما حصل على خلفية «خلق القرآن» حيث لقي الكثيرون حتفهم لعدم تبنيهم عقيدة خلق القرآن.. وقد وصل الأمر إلى تبادل الأسرى مع الروم حيث رفضت الدولة افتداء الأسرى المسلمين الذين لا يقولون بخلق القرآن!!

وتعرض أتباع أهل البيت عليه السلام إلى موجات رهبة من الاضطهاد خاصة في عهد الطاغية العباسي المتوكل الذي حكم الدولة بالحديد والنار ومارس الارهاب الحكومي الممنهج في القضاء عليهم..

وقد ظهر التفكك الاجتماعي على نحو واضح من خلال انقسام المجتمع إلى طبقات حيث تجثم طبقة رجال الدولة الذين استحوذوا على المقاطعات الزراعية والأراضي وأصبحوا مهيمنين تماماً على اقتصاد الدولة.. فيما يزرع عموم المجتمع المسلم تحت نير الضرائب وضغط الحروب والنزاعات الداخلية الدامية.. إلى جانب طبقة الرقيق الأسود الذين استقدموا للعمل في الأراضي الزراعية والحقول وخاصة في جنوب العراق.. وقد أدت سياسات الاضطهاد إلى حدوث الانفجار المسلح حيث اندلعت ما يعرف تاريخياً بـ «ثورة الزنج» عام ٢٥٥هـ واستمرت زهاء خمسة عشر عاماً وأزهقت أرواح زهاء نصف مليون انسان..

إلى جانب طبقة أهل الذمة.. وكانت السياسات الحكومية ازاءهم تتراوح بين التسامح

اللامحدود وبين التضييق عليهم إلى حدّ الاضطهاد وقد تسنم بعض اليهود مناصب حسّاسة جداً كما هو الحال مع ما عرف بـ «الديزج» الذي انتدب لعملية هدم مرقد الإمام الحسين عليه السلام في كربلاء وحرث الأراضي المحيطة به وطمسه تماماً بعد اغراق المنطقة المحروثة بمياه الفرات.. وقد كوفئ بتعيينه قائداً للشرطة في العاصمة سامراء.. وقد حصلت كرامة كبرى عندما غمرت المياه جميع الأراضي المحروثة ما خلا بقعة صغيرة هي البقعة المباركة التي تضمّ سيّد الشهداء الإمام الحسين عليه السلام وأنصاره وأهل بيته وظهر ما عرف تاريخياً فيما بعد «الحائر الحسيني».

وقد أشارت بعض المدونات التاريخية إلى أن الثيران العشرة التي حرثت الأراضي كانت تحيد عن البقعة التي تضمّ الجثمان الطاهر لسيّد الشهداء عليه السلام^(١).

وإشارة سريعة إلى الحالة الثقافية في العصر العباسي الثاني الذي شهد ظهور فرق كثيرة ساعدت الترجمة كثيراً على انتشارها ويمكن القول ان الترجمة من اللغات اليونانية والهندية والفارسية أحدثت غزواً فكرياً كبيراً وقد وصل الأمر إلى أن الفيلسوف الكندي انصرف إلى تأليف كتاب خطير تحت عنوان «تناقضات القرآن»!!

أما الأحوال الاقتصادية.. فقد نجحت الدولة العباسية في تنظيم شبكات الري واقامة السدود في مصر والعراق واليمن وشمال شرقي إيران واشتهرت مفردة «المهندس» وأصلها فارسي منذ ذلك الوقت وكانت مهام المهندسين مراقبة وصيانة السدود^(٢).

الخلفيات التاريخية:

في مطلع سنة 234 هجرية أوعز الطاغية جعفر المتوكل إلى الكاتب العربي البليغ إبراهيم الصولي بتنظيم رسالة دعوة للإمام الهادي عليه السلام وهي في الحقيقة استدعاء قسري وإن جاءت الرسالة في غاية الاجلال والاحترام وتضمّنت عبارات ودية ذلك أن الكاتب كان من الموالين لأهل البيت عليه السلام وهو يخفي ذلك تقيّة وقد أورد الشيخ المفيد رضي الله عنه نصّ الرسالة في كتابه «الإرشاد»^(٣).

وقد جاءت هذه الدعوة على خلفية تقارير حاكم المدينة المنورة «بريحة العباسي» المعروف بحقده على أهل البيت عليه السلام وقد تضمّنت الرسالة تكديماً رسمياً لهذه التقارير

وكذلك إقالته من منصبه^(٤) وتنصيب محمد بن الفضل الجرجاتي.

تم فرض الإقامة الاجبارية على الإمام الهادي عليه السلام منذ ذلك التاريخ وتعين عليه الحضور إلى قصر الخلافة يومي الاثنين والخميس اسبوعياً مرتدياً الزي الرسمي العباسي الحالك السواد.

وقبل أن يتم اللقاء بين الانسان الحر والطاغية دار حوار بين الأخير مع الضابط يحيى بن هرثة الذي أشرف على مهمة حضور الإمام عليه السلام إلى سامراء فقد تساءل المتوكل عن أوصافه وكان الإمام يومها في العشرين من عمره المبارك فأجاب الضابط:

- فتى أسمر شديد السمرة وسيع العينين عريض الصدر أقنى الأنف مليح الوجه وهو ربعة ليس بالقصير ولا بالطويل.

وعندما سأله عن بعض ممارساته الشخصية أجاب الضابط أنه يتعطر دائماً كما أنه رفيق سفر طيب..

بعد أيام قام الإمام بشراء قصر كبير في سامراء تعود ملكيته إلى المهندس النصراني دليل بن يعقوب الذي أشرف على تنفيذ المشاريع الكبرى في سامراء وأقل التقادير في مساحة هذا القصر تقدر بستة عشر ألف متر مربع والقصر مبني على الخريطة الرومانية^(٥) وقد بقيت هذه الخطوة تشير العديد من التساؤلات سيما وأن أثاث القصر كان بسيطاً ويخلو تماماً من أثاث القصور!!

أسس المتوكل جهازي استخبارات عام وخاص للتجسس على أفراد الشعب وكذلك مراقبة تحركات المسؤولين والشخصيات البارزة وقد أشار الطبري صراحة إلى أن المتوكل هو أكثر خلفاء بني العباس اهتماماً بـ «الخبر».

ولذا يعد عهد المتوكل الذي استمر خمسة عشر عاماً من أكثر العهود دموية وقسوة وقد عانى العلويون على نحو خاص وشيعة أهل البيت عليه السلام على نحو عام صنوفاً من القهر والاضطهاد..

عرف عن المتوكل ولعه الشديد ببناء القصور الكبرى واقامة الاحتفالات وقد استنزفت مشاريعه عشرات الملايين من الدنانير الذهبية وفي فترة مبكرة تمكنت إحدى محظياته التي بقي

اسمها مجهولاً واشتهرت باسم «قبيحة» لشدة جمالها من التحكم بشخصية المتوكل ودفعته إلى طلاق زوجته الرسمية «ريطة» والدة «محمد المنتصر»..

عرف عن المتوكل شغفه بإقامة الحفلات الساهرة وفي شعبان سنة 236هـ 518م طلب المتوكل حضور إحدى جواريه الحسان فقبل له انها ذهبت إلى الحج فاستغرب الطاغية وقال: وهل الحج في شعبان..

ولدى عودتها وقد بدا عليها آثار السفر قالت: ان مولاتي قد خرجت إلى الحج وأخرجتنا معها.. وعندما استنكر ذلك قالت: كان حجنا إلى قبر الحسين^(٦).

وقد استمر هذا التقليد عشرات السنين ويصادف الخامس عشر من شهر شعبان ذكرى الاسراء والمعراج حيث تشهد مدينة كربلاء آنذاك قدوم آلاف الزوار لزيارة مرقد الإمام الحسين في ما عرف شعبياً بـ «الحج».

وقد أثارت هذه الحادثة حقد المتوكل وأمر بهدم المرقد الطاهر وحرث وهدم جميع الدور المحيطة وحرث مساحات شاسعة من الأرض وكسر نهر الفرات واغراق الأراضي المحروثة ليظهر^(٧) ولأول مرة مصطلح «الحائر» فقد اغرقت مياه الفرات جميع الأراضي.

ومن الجدير ذكره ان ولي العهد محمد المنتصر كان يعارض بشدة سياسة أبيه ويتنقده وكان المتوكل يتمادى في اذلال ابنه ووصلت الأمور إلى مستوى خطير عندما طلب من رئيس وزرائه في إحدى الحفلات أن يقوم بصفعه واهانته وأن يسقى الخمر بالقوة كما قرر سرّاً القيام باغتياله وتم تحديد موعد العملية في يوم الخامس من شوال سنة ٢٤٧هـ ومن المحتمل كذلك أن يتم اغتيال الإمام الهادي في نفس الموعد.

حوادث سنة ٢٣٧هـ / ٨٥١م:

- المتوكل يأمر باغتيال رئيس سلطة القضاء المقاتل أحمد بن أبي دؤاد مع أولاده ومصادرة جميع أموالهم.

- اشتباكات مع الرومان في البحر الأبيض المتوسط وبسط السيطرة على أجزاء أخرى من صقلية ومهاجمة جنوب إيطاليا.

- ثورة في أفغانستان بقيادة يعقوب بن الليث الصفار والسيطرة على البلاد.

- الاسطول الروماني يهاجم الشواطئ المصرية واحراق مدينة دمياط.

حوادث سنة ٢٣٩هـ / ٨٥٣م:

- المتوكل يأمر بهدم جميع الكنائس التي بنيت منذ بدء التاريخ الإسلامي.

- المتوكل يأمر بإقالة رئيس السلطة القضائية يحيى بن أكنم ومصادرة ممتلكاته.

- ثورة في مدينة حمص السورية والمتوكل يرسل حاكماً أكثر قسوة لقمعها.

حوادث سنة ٢٤١هـ / ٨٥٥م:

- تنظيم عملية لتبادل الأسرى مع الروم تم بموجبها تحرير ٨٠٠ أسير و١٢٥ أسيرة وكانت الامبراطورة تيدورا قد نفذت مذبحاً بحق الأسرى المسلمين راح ضحيتها ألف ومئتي أسير.

- اندلاع الثورة مرة أخرى في مدينة حمص ومذبحة بحق المسيحيين لاشتراكهم ومساندة الثوار.

- غارات يشنها الروم على الحدود الشمالية الشرقية ونقل آلاف اليهود إلى مناطق البلقان.

- الشهب والنيازك تنهمر على بغداد طول الليل.

حوادث سنة ٢٤٢هـ / ٨٥٦م:

- الروم يشنون هجوماً معاكساً ويتوغلون في مناطق الموصل وسوريا ويحتلون مدينة أمد ويأسرون عشرة آلاف مسلم.

- قيصر پاراداس يتمكن من السيطرة على العرش الروماني ويجبر أخته تيودورا على دخول الدير وقد كانت تيودورا الوصية على عرش ابنها القاصر ميخائيل الثالث.

- الانتهاء من بناء المسجد الجامع الشهير بمئذنته الملوية وتجهيزه بنافورات دائمية تستمد مياهها من نهر دجلة عبر قنوات جوفية.

- المتوكل يأمر ببناء مدينة جديدة شمال سامراء (المتوكلية) ويوزع الأراضي على بعض الشخصيات البارزة لبناء دور لهم والانتقال إليها لتسهيل مراقبتهم.

الهجوم على بيت الإمام عليه السلام:

أفادت تقارير سرّية بوجود تحركات مشبوهة وجمع للسلاح واستعدادات لحركة مسلّحة فصدرت أوامر باقتحام الدار بعد منتصف الليل.. تسلق المهاجمون جدران البيت الكبير من أجل مفاجأة من فيه.. وعثر على الإمام في حجرة خالية من الأثاث.. كانت الغرفة مفروشة بالحصى ووجدت بعض كتب الدعاء ولم يعثر على أي سلاح باستثناء سيف معلق على الجدار.. ومع ذلك فقد اعتقل الإمام ليودع في سرداب في قصر الخلافة..

وقد تمكّن أحد أصحاب الإمام ويدعى صقر من مقابله وذلك بالاستفادة من علاقته مع أحد كبار المسؤولين في التشريفات ويدعى زرافة ويتم اللقاء في السرداب المظلم وكان الإمام يتلو آيات من القرآن الكريم تتحدث عن طغيان قوم عاد وما آل إليه مصيرهم وبعد مرور حوالي ساعة من اللقاء نصح الإمام صاحبه بمغادرة المكان قائلاً:

- ودع واخرج فلا آمن عليك.

وقال يوضح له فلسفة الحياة الدنيا.

- الدنيا سوق ربح فيها قوم وخسر فيها آخرون..

وبعد مدة أفرج عن الامام عليه السلام وفرضت عليه اجراءات الحبس المنزلي^(٨).

حوادث سنة ٢٤٤هـ / ٨٥٨م:-

- المتوكل يني قصرًا كبيراً في ضواحي دمشق ثم يلغي قراره باتخاذ دمشق عاصمة للدولة ويقرر العودة إلى سامراء بعد أن ساورته مخاوف من محاولة انقلابية قد يقوم بها بعض الضباط الأتراك.

- ميخائيل الثالث يجهز اسطولاً ضخماً لاستعادة الحصون المحتلة في صقليا فيمنى بهزيمة ساحقة.

- المتوكل يأمر بتصفية النحوي الكبير يعقوب ابن السكيت وكان المتوكل قد أوكل إليه مهمة تعليم اثنين من أبنائه فسأله يوماً: يا يعقوب أيهما أحب إليك ابناي هذان أم الحسن والحسين!

فأجاب ابن السكيت ببسالة:

- والله إن قبراً خادماً علي خير منك ومن ابنك!

فغضب الطاغية وأمر بإعدامه فوراً، فقتل على نحو مؤسف^(٩).

حوادث سنة ٢٤٥هـ/٨٥٩م

- المتوكل يأمر بإعادة العمل في نظام استيفاء الضرائب في أيام النيروز.

- مصادرات مالية كبيرة تطال عدداً من المسؤولين في سامراء وبإشراف مباشر من الطاغية شخصياً.

- المتوكل يوكل مشروع شق نهر في المدينة الجديدة إلى المهندس النصراني دليل بن يعقوب وقد بلغ عدد العمال والمهندسين في هذا المشروع اثني عشر ألفاً يعملون ليل نهار بنظام الوجبات.

هجوم على دار الإمام الهادي عليه السلام:

اعتاد المتوكل على قراءة التقارير الأمنية قبيل بدء حفلاته الليلية أو أثناءها.. وكان في تلك الليلة في حالة سكر عندما قرأ تقريراً أمنياً يتحدث عن نشاط سري يقوده الإمام عليه السلام.

فصدرت الأوامر بمداهمة الدار والقبض على الامام واحضاره بنفس الهيئة حتى لو كان في ثياب النوم! وبسرعة توجهت دورية مسلحة تصطحب معها عدداً من السلاالم الحبلية وقطعت مسافة أربعة أميال عربية (الميل العربي = ٢ كم) وكما في المرة السابقة كانت التقارير كاذبة وتم اصطحاب الإمام بنفس الهيئة التي وجد فيها.. كانت الحفلة صاخبة حيث يقوم بعض المهرجين بحركات مضحكة.

وهنا فاجأ المتوكل الإمام عليه السلام بكأس من الخمر وأمره أن يشرب فرد الإمام عليه السلام قائلاً:

- إنه لم يخامر لحمي ودمي أبداً.

فقال الطاغية:

- إذن انشدني شعراً.

فقال الذي عنده علم الكتاب:

إني لقليل الرواية للشعر.

فأصر الطاغية:

- لا بدّ من ذلك.

هنالك أنشد الإمام شعراً بليغاً دفع بالطاغية السكران إلى البكاء.. وقد أوردت المدونات التاريخية قصيدته القصيرة الشهيرة ومطلعها:

- باتوا على قلل الأجيال تحرسهم

غلب الرجال فما أغنتهم القلل

واستنزلوا بعد عزّ من معاقلهم

وأودعوا حضراً يا بنّس ما نزلوا^(١٠).

ويبلغ عدد أبياتها ١٤ بيتاً تتحدّث عن مصير الطغاة.. وقد توقع بعض الحضور انها نهاية الإمام حتى ان بعضهم للم ثيابه خوفاً من تلطّخها بالدماء.. لكن موقف المتوكّل كان معاكساً إذ أمر بإعادته إلى داره معزّزاً مكرمّاً بل وأمر له بجائزة^(١١).

حوادث سنة ٢٤٦هـ / ٨٦٠م:

- مفاوضات مع الروم واتفاق حول تبادل الأسرى.

نصر بن الأزهري الشيعي زعيم الوفد: الامبراطور الفعلي ليس ميخائيل وإنما خاله قيصر (باراداس).

- قيام الدولة الزيدية في اليمن في مدينتي صعدة وصنعا.

- اغتيال الشاعر العربي الكبير دعبل الخزاعي في مدينة سوسة (الشوش) في غرب ايران حيث مرقد النبي دانيال شمال مدينة الأهواز، وكان آخر ما قاله حول تحكم الضباط الأتراك بمقدرات البلاد الإسلامية قوله:

لقد ضاع أمر الناس إذ ساس ملكهم

«وصيف» و«أشناس» وقد عظم الكرب

سقوط الطاغية:

شهد عام ٢٤٧هـ / ٨٦١م سلسلة من الحوادث المثيرة نلخصها بما يلي:

- المتوكل يرسل تهديداته إلى الإمام ويتوعده إذا لم يبادر إلى بناء أرضه في المدينة الجديدة وإخلاء داره في سامراء والإمام يصبر على البقاء في داره.

- مؤامرات تحاك في الظلام وتحركات تقودها «قبيحة» زوجة المتوكل اليونانية الأصل لازاحة ولي العهد الرسمي محمد المنتصر وإسناد ولاية العهد إلى ابنها المعتز.

- محمد المنتصر ينتقد سياسة والده المعادية لأهل البيت عليه السلام وإقامة الحفلات الماجنة وقيام المهرجين والمخنثين بأداء أدوار تمثيلية تسيء إلى الإمام علي بن أبي طالب عليه السلام.

- المتوكل يصغي إلى رئيس وزرائه بضرورة التخلص من محمد المنتصر واغتياله واغتيال الإمام الهادي عليه السلام.

- محمد المنتصر يتلقى معلومات مؤكدة حول مؤامرة لاغتياله فيؤلف تكتلاً من الضباط الأتراك وفي طليعتهم الحارس الشخصي للمتوكل وهو ضابط تركي يدعى «باغر» والذي يتمتع بنفوذ كبير داخل القصر غير أن مسار الأحداث المثيرة انتهى إلى حدوث أخطر محاولة انقلابية في تاريخ الإسلام.

كان من المقرر اغتيال محمد المنتصر في الخامس من شوال سنة ٢٤٧هـ ولذلك استبق محمد المنتصر التاريخ وصدرت الأوامر إلى «باغر» بتنفيذ عملية الانقلاب العسكري بعد منتصف ليلة الثالث من شوال.

وقد جرت الحوادث في مسار مثير بدأ في الأول من شوال حيث تقرر أن يؤم المتوكل المصلين في المسجد الجامع (الملوية) في سامراء وأداء صلاة العيد..

أوعز رئيس الوزراء الفتح بن خاقان إلى تنظيم استقبال رسمي يمتد من قصر الجعفري وإلى المسجد الجامع وأن يصطف آلاف الجنود على جانبي الطريق.. وأن يتم حشد أكبر

عدد ممكن من الناس في مراسم الاستقبال..

وتقضي توجيهات القصر بضرورة حضور الشخصيات البارزة في الدولة والمجتمع إلى باب القصر الجعفري.. وهكذا حضر الإمام الهادي عليه السلام..

ولعقد نفسية وأحقاد دفيئة أوعز المتوكل إلى رئيس الوزراء في أن يجبر الإمام الهادي على الترحل عن بغلته وأن يقطع المسافة الممتدة من القصر إلى المسجد الجامع سيراً على الأقدام.

قال المتوكل للفتح:

- قل لابن الرضا أن يترجل ويمشي قدامي.

لكن الفتح بن خاقان حذر الطاغية من ردود فعل في الأوساط الشعبية:
فقال له:

- يا سيدي ان في ذلك شناعة عليك وسوء حالة!!

وأمام اصرار المتوكل اقترح الفتح بن خاقان أن يصدر الأمر إلى جميع القادة والأشراف وذوي النفوذ بالترجل حتى لا يظن أن الإمام عليه السلام هو المقصود.. ووافق الطاغية الذي كان يتلذذ لمشهد الإمام عليه السلام وهو يمشي..

ترجل القادة وذوو النفوذ عن مراكبهم وكان بعضهم يتذمر من هذه الإهانة.. وقد استثني الفتح من هذا الإجراء.

كان الإمام الهادي عليه السلام يومها يعاني من وعكة صحية ولم يكن بمقدوره قطع مسافة ثمانية كيلومترات مشياً على الأقدام.. فقد كان يتصبب عرقاً..

وكانت الغوغاء من الجماهير مفتونة لمشهد موكب الخليفة وهو يسير وسط صفين طويلين من آلاف الجنود.. الغوغاء يهتفون بحياة الخليفة.. همس الإمام عليه السلام:

- الغوغاء قتلة الأنبياء.

وقال بصوت مسموع:

- لقد قطع رحمي قطع الله رحمه (١٢).

كان الامام ينقل خطواته على هون وكان الهاشميون يرافقونه في السير وقد خالجهم شعور بالمرارة من ابن عمهم الذي جعل مقاليد الحكم بأيدي الغرباء بل وبأيدي النساء والمختنن الساقطين.

قال رجل هاشمي تجاوز عمره الخمسين للإمام عليه السلام:

- يا سيدنا ما في هذا العالم أحد يستجاب دعاؤه فينا فكيفنا الله؟

قال أبو الحسن الذي ورث رسالات الله:

- في هذا العالم من قلامة ظفره أكرم على الله من ناقة ثمود لما عقرت وضجّ الفصيل فقال الله: ﴿تَسْعَوْنَ فِي دَارِكُمْ ثَلَاثَةَ أَيَّامٍ ذَلِكَ وَعْدُ غَيْرِ مَكْذُوبٍ﴾ (١٣).

وصلت الحشود المتعبة مدينة سامراء وتبددت مع الغبار فرحة العيد... أذان الصلاة ينساب من فوق المئذنة الملوّنة.. وقعت عينا زرافة المسؤول في تشريفات القصر على الامام منهكاً يتصبب عرقاً فساعده وأخذ بيده إلى دهليز في المسجد وأخذ منديلاً وراح يحفف العرق المتصبب وحاول التخفيف من حالة الحزن التي بدت على الوجه الأسمر فقال:

- ابن عمك لم يقصدك بهذا دون غيرك.

فأجاب الإمام وهو يكشف له جانباً من الحوادث المثيرة التي ستقع بعد ثلاثة أيام بالضبط.. فتلا بخشوع آية الانذار قبل هبوب العاصفة:

إليك عني (١٤).

ثم تلا بخشوع الآية الكريمة:

- تمتعوا في داركم ثلاثة أيام ذلك وعد غير مكذوب.

وانتهت الحوادث إلى مصرع المتوكل مع رئيس وزرائه في قصر الجعفري وكان المتوكل في حالة سكر شديد..

الحوادث من شوال ٢٤٧ هـ إلى ربيع الأول ٢٤٨ هـ:

- محمد المنتصر يأمر بالعودة إلى سامراء عاصمة للدولة فتتحول المتوكلية إلى خرائب.
- المنتصر يشدد على إنهاء سياسة اضطهاد العلويين ويعيد إليهم الأموال المصادرة كما يأمر باعادة مقاطعة فذك إلى بني فاطمة الزهراء عليها السلام.
- المنتصر يرفع الحظر المفروض على زيارة مرقد الإمام الحسين عليه السلام في كربلاء ومرقد أمير المؤمنين عليه السلام في النجف ويوجه بإعادة بناء مرقد الإمام الحسين عليه السلام.
- اغتيال المنتصر بمبضع مسموم بعد أن أقنع الضباط الأتراك ابن طيفور الطيب باغتياله لقاء مبلغ كبير جداً... اقترح ابن طيفور الذي أجرى فحوصاته على المنتصر وكان يعاني من حمى شديدة أن يجري عملية فصاد للدم فأجرى العملية بمبضع مسموم.
- وشاء القدر أن يلقي ابن طيفور مصيره بعد أيام في حادث غامض حيث أجريت له عملية فصاد للدم بذات الموضع الملوّث وقام بالعملية مساعده!!!
- رحل المنتصر الذي أصرت والدته على اعلان موقع قبره ليكون الخليفة العباسي الأول الذي يعلن عن مكان دفنه..
- كان المنتصر قد قرّر وضع حدّ لنفوذ الضباط الاتراك واقالة أحمد بن الخصيب واسناد رئاسة الوزراء إلى شخصيّة؛ أخرى غير الضباط الأتراك استبقوا الأمور وتمّت عملية اغتياله.
- وتمّ اسناد منصب الخلافة رمزياً إلى أحد أحفاد المعتصم ومنح لقب المستعين بالله.
- تلقى الإمام الهادي تهديدات من ابن الخصيب الذي قام بزيارة الإمام عليه السلام في داره فقد صرح له مباشرة بضرورة اخلاء الدار فقال الإمام عليه السلام:
- لأقعدنّ لك من الله مقعداً لا تبقى لك معه باقية.
- لم تكد تمر سوى أربعة أيام فقط حتّى قام الضابط التركي «اوتامش» باعتقال ابن الخصيب ثمّ نفيه إلى جزيرة «كريت» في البحر الأبيض المتوسط وتمّت مصادرة جميع ممتلكاته وممتلكات أبنائه أما اوتامش فقد نصب نفسه رئيساً للوزراء^(١٥).

حوادث سنة ٢٤٨ هـ - ٢٤٩ هـ / ٨٦٣ م:

- اعتقال اوتامش واعدامه مع سكرتيره الخاص.
- تعيين محمد بن الفضل الجرحرائي رئيساً للوزراء.
- اندلاع اضطرابات شعبية في بغداد بسبب هزائم الجيوش الإسلامية في جبهات البحر الأسود والجبهة الشمالية الشرقية.

حوادث سنة ٢٥٠ هـ / ٨٦٤ م

- قيام الدولة العلوية في طبرستان (شمال إيران) بزعامه الثائر العلوي الحسن بن زيد.
- ثورة عارمة بقيادة عمر بن يحيى حفيد الإمام زين العابدين ورفعته الشعار الشهير «الدعوة إلى الرضا من آل محمد» وجيش جرار يجمع الثورة واستشهاد قائد الثورة.
- ثورة في مدينة حمص وموسى بن بغا يجمع الثورة وجيش الخلافة يرتكب مذابح مروعة.

حوادث سنة ٢٥١ هـ / ٨٦٥ م

- اندلاع النزاع على النفوذ بين الضباط الأتراك واغتيال «باغر» قائد العملية الانقلابية التي اطاحت بحكم المتوكل مطلع شوال ٢٤٧ هـ.
- الخليفة «المستعين» يفر إلى بغداد وبرفقته بعض الضباط الأتراك إثر التمرد العسكري في سامراء.
- المتمردون يطلقون سراح «المعتز» و«المؤيد» وينصبون المعتز خليفة.
- المعتز يقوم بمصادرة ممتلكات المستعين وممتلكات والدته ويجهز جيشاً كبيراً للزحف صوب بغداد.
- فرض الحصار على بغداد وبدء الحرب الأهلية.
- أمير بغداد محمد بن عبدالله بن طاهر يفاوض على استسلام بغداد مقابل رفع الحصار وابعاد المستعين إلى واسط وتوقيع وثيقة تنازل عن الخلافة.

- المعتز يفوض وصيف شؤون الدولة ويمنحه صلاحيات واسعة.
- المعتز يمنح أخاه، أبا أحمد طلحة بن المتوكل لقب الموفق بالله لاتنتصاره في الحرب مع بغداد.
- المعتز يخلع أخاه المؤيد من ولاية العهد ويوعز باغتياله في السجن.
- المعتز يوجه باستدعاء المستعين سراً إلى سامراء ويأمر بتصفيته على مشارفها وسعيد الحاجب ينفذ المهمة ويقدم رأسه إلى المعتز فيما كان الأخير مشغولاً بلعبة الشطرنج.
- وفاة الضابط التركي «أشناس» وقيام المعتز بمصادرة أمواله التي تقدر بنصف مليون دينار.
- تحرك قطعات عسكرية تركية في (كرخ) سامراء واعتقال «وصيف» وتصفيته.
- موسى بن بغا يزحف باتجاه الشمال الإيراني للقضاء على الدولة العلوية حديثة التأسيس.
- ثورة في جنوب مصر بقيادة إبراهيم بن محمد بن يحيى الطالبي المعروف بـ «ابن الصوفي».
- وأخيراً:
- انقلاب عسكري خطير في القسطنطينية يطيح بالأسرة العمورية المالكة ويقوم باسيل قائد العملية بتنصيب نفسه امبراطوراً جديداً مؤسساً بذلك لحكم الأسرة المقدونية..
- وكان باسيل رئيس التشريفات قد اقنع ميخائيل الثالث بضرورة اغتيال خاله قيصر بارداس فوافق.. وبعد تنفيذ عملية الاغتيال ارتد إلى ميخائيل نفسه وقام بخنقه بيديه الغليظتين واعقب ذلك الاستيلاء على القصر الملكي وقتل وتشريد الأميرات ومسلل القتل يطال الامبراطورة تيودورا التي اجبرت على دخول الدير^(١٦) منذ عام ٨٥٦م.
- الإمام الهادي يجتمع بتاجر الرقيق بشر بن سليمان النخاس ليلاً ويوجهه بالسفر إلى بغداد لشراء رومية بمواصفات محددة..

السردية الروائية

الفصل الأول

وصلت القصر تقارير خطيرة من المدينة المنورة تفيد بأن علي بن محمد المعروف بابن الرضا يشكل خطراً على الدولة، وأن الأموال تندفق إلى منزله ومن الممكن أن يشتري بتلك الأموال الطائلة أسلحة لاشعال ثورة مسلحة.. أنه يطرح نفسه قائداً.. فاذا كانت للعاصمة حاجة في «الحرمين» الشريفيين مكة والمدينة فلتبادر إلى اقضاء علي بن محمد على الفور.. وكانت التقارير توقع دائماً باسم «بريجة العباسي» المسؤول العام عن أمن الحرمين.. وما زاد الطين بلّة ان زوجة المتوكل بدأت ضغطها بهذا الاتجاه.

إن رسالة واحدة تكفي لاثارة مخاوف الخليفة الحاكم فكيف إذا تتابعت الرسائل؟! (١٧)

واذكر الكثيرون ان هذا الوغد يعرف كيف يتسلّق.. يعرف الطريق إلى المزيد من النفوذ والتسلط، وليس هناك طريقة أقصر وأيسر من الصعود على جثث الضحايا والابرياء من أبناء علي.. من أجل هذا أرسل الامام الشاب رسالة كذب فيها مزاعم الوغد العباسي..

وكان وصول الرسالة إلى سامرا مدعاة لعقد جلسة طارئة اسفرت عن نتائج وقناعات مرضية..

ان تقارير بريجة العباسي عارية من الصحة.. وأن الأخبار المؤكدة

تفيد بأن علي بن محمد ذا الثامنة عشر عاماً شخصية محبوبة في المدينة المنورة بسبب طبيته واحسانه إلى الفقراء والمعوزين..

ومن المؤكد أن أموالاً ضخمة تحمل إليه لاعتقاد شيعته واتباعه بضرورة دفع الحقوق الشرعية إليه من خمس وزكاة.

ولذا فان بقاءه في المدينة يشكل خطراً على الحكم العباسي، بسبب حساسيته إزاء العلويين بشكل عام، والائمة بشكل خاص.. ثم إنه ابن صهر الخليفة العباسي المأمون وحفيد ولي عهده.. وما يزال يدعى بابن الرضا ولذا فان ابعاده عن الحجاز أمر ضروري،

بل أن وجوده في سامراء سيوفر للحكم افضل موقع لمراقبته ومراقبة الذين يتصلون به..
وإذا كانت بغداد مهيةاً لحركة شعبية مضادة للحكم كالتى حاول تفجيرها احمد بن نصر
الخزاعي فان سامراء اكثر المدن ولاء للحكم لأنها تشبه معسكراً كبيراً للجيش والقوات
المسلحة..

لهذا أوعز المتوكل إلى كاتبه البليغ ابراهيم الصولي بتسطير رسالة رقيقة، تتضمن أمراً
بعزل بريجة العباسي، وتعيين محمد بن الفضل الجرجاني^(١٨) إضافة إلى تأكيد رغبة الخليفة
في حضور علي بن محمد إلى سامراء تعزيزاً للعلاقات الطيبة بين البيتين العباسي
والعلوي^(١٩).. كما وضع تحت تصرفه قوة مسلحة تتألف من ثلاثمئة جندي بقيادة يحيى بن
هرثة^(٢٠).

كان القيقظ شديد الحرارة، وتموز في ذلك من سنته اكثر لهيباً بسبب الجفاف.. وكان
محمد بن الفضل الذي عين كاتباً يرافق يحيى وله ميول شيعية، كما كان هناك قائد عسكري
وهو خارجي المذهب.

وارتسمت ابتسامة ساخرة في وجه يحيى بن هرثة فهو «ظاهري» والكاتب «شيعي»
والقائد العسكري «خارجي».. وكان لابد أن يصطدم الخارجي مع الشيعي ويحتدم بينهما
الجدل.. ولذا وجد هرثة أن افضل وسيلة لقطع الطريق هي الاستمتاع بالاستماع اليهما..
وفي منتصف الطريق وقد مضت خمسة أيام فاجأ الخارجي الكاتب الشيعي بسؤال محرج:

- ان إمامك علي يقول: «انه ليس في الأرض بقعة إلا وهي قبر أو ستكون قبراً»؟ انظر
اننا نسير في هذه البادية التي لم يطرقها انسان فكيف تكون قبراً؟!

تدخل هرثة وخاطب الكاتب:

- هل حقاً أن علياً قال ذلك؟

قال الكاتب:

- أجل اننا نروي ذلك.

قال هرثة بدهشة وسخرية:

- صدق الرجل اين من يموت في هذه البراري حتى تمتلىء قبوراً؟!

سكت الكاتب وانسحب إلى نفسه، فيما استغل الخارجي ذلك وراح يتندر وهتف جندي سمع الحوار:

- انظروا هناك مقبرة كبيرة..

لم تكن هناك وعلى مدى الافق البعيد سوى الرمال، واستغرق بعضهم في الضحك من أحاديث الشيعة التي لا تعقل!

في أخريات تموز وصلت القوة المسلحة المدينة المنورة، يقودها هرثمة الذي اتجه إلى قصر الوالي لاطلاعه على طبيعة مهمته في المدينة.. ان لديه أوامر مشددة بتفتيش منزل علي بن محمد..

وكان حضور هذا العدد الكبير من الجنود ومعظمهم من الاتراك قد أثار مخاوف الناس، وانتشرت شائعات حول احتمال اعتقال علي بن محمد..

في نفس اليوم كان هرثمة ومعه عشرات الجنود يتوجهون إلى منزل الامام.. ومما أثار دهشته أن عدد كبيراً من الناس كانوا يترقبون بقلق هذه اللحظة وعندما وقعت عيونهم على هرثمة يحف به جنود غلاظ تأكدت مخاوفهم..

حقاً ان الانسان الطاهر يؤسس عرشه في القلوب.. هؤلاء البسطاء يرون في علي بن محمد نقطة السلام في هذا الزمن المليء بالخوف.. ان هذا الفتى الاسمر ذي العينين المغممتين بالنور يبعث في القلب الطمأنينة والسلام..

لم ينس أهالي المدينة وخاصة الشيوخ حوادث قديمة.. لقد أخذ الرشيد موسى بن جعفر إلى بغداد، فذهب ولم يعد ثم جاء المأمون فاستدعى علي بن موسى الرضا فذهب إلى مرو ولم يعد، ثم جاء الخليفة المعتصم فاستدعى محمد بن علي بن موسى فذهب إلى بغداد ولم يعد وتوفي في ريعان شبابه. وجاء الدور للمتوكل ليأخذ من بينهم علي بن محمد بن علي بن موسى إلى سامراء!!

حق لهم أن يشعروا بالمخاوف من أجل الفتى الطيب علي.. وعندما صرحوا بمخاوفهم

للقائد يحيى خاطبهم مهدئاً:

- اقسام لكم بانني لم أوامر فيه بمكروه.. ان معي أوامر بتفتيش منزله فقط..

وفي الأثناء فتح الباب فدخل القائد ومعه ثلاثة من الجنود.. سلم يحيى رسالة الخليفة..
فقرأها الفتى بدقة ورفع رأسه قائلاً:

- لا مانع من السفر معكم.

- غدا!؟

- كلاً.. بعد ثلاثة أيام.

- حسناً بعد ثلاثة أيام!

- ان معي أوامر بتفتيش المنزل.

- نفذ ما أمرت به!

فتش القائد بنفسه المنزل تفتيشاً دقيقاً، فلم يعثر على شيء سوى مصاحف وكتب
للدعاء وسيف واحد.

قال مجاملاً:

- هذا سيف عراقي!؟

- أجل أهدها لي أبي قبل وفاته.. أرسله اليّ من العراق^(٢١).

انتهت عملية التفتيش، وتنفس القائد يحيى الصعداء ان كل شيء يمضي على ما يرام..
يستطيع أن يؤكد لأهل المدينة أن هذا الفتى الذي يجبوه لن يتعرض إلى أدنى شيء، ان
التقارير التي وصلت سامراء كاذبة ولا تعكس الحقيقة..

وهتف في اعماقه: كم هو ذكي هذا الفتى ان الرسالة وإن بدت تحيره في القدوم إلى
العاصمة ولكنها تنطوي على ما يشبه الاضطراب وفي اليوم التالي بكر يحيى لتفقد الفتى
والتعرف على شخصيته اكثر لقد استهواه هذوئه وسكينته.. لقد صادف كثيراً من العلويين

ولكنه لم ير مثل هذا الفتى الاسمر.. وهتف في اعماقه: كم هو أحق بريحة وهو يكتب إلى الخليفة يحذره من خطر علي بن محمد؟!

ولج الحجرة التي يجلس فيها الفتى العلوي لم يكن وحيداً كما توقع، كان معه خياط يقص بمقص كبير لبوداً وخفّاتين وبرانس..

ان منظره يثير السخرية.. أن المرء لا يستسيغ رؤية ملابس شتوية في تموز ذروة الصيف اللاهب.

خاطب الفتى الخياط بمحبة:

- استعن على انجازها بجماعة من الخياطين.. إذ ينبغي الفراغ منها اليوم..

وموعداً غداً في مثل هذا الوقت.

والتفت إلى يحيى:

- الرحيل غداً في مثل هذا الوقت.. اقضوا اعمالكم في المدينة اليوم.

لم يجد القائد بداً من النهوض.. فمَنَظَر اللبود والخفّاتين لا يبعث على الراحة ثم أنه ينبغي انجاز كل شيء في هذا اليوم..

وارتسمت في أعماقه دهشة وهو يغادر المنزل.. دهشة من هذا الفتى الذي يهيء ملابس شتوية في فصل الصيف اللاهب..

قال في نفسه: هذا الفتى لم يسافر ابداً.. انه لا يحتاج إلى كل هذه الثياب.. نحن في تموز وفي حرّ الحجاز وبيننا وبين العراق مسيرة عشرة أيام فقط.. فما يصنع بهذه الثياب؟!

وارتسمت ابتسامة ساخرة على شفّتيه: تعجّب من الرافضة يقولون بإمامة هذا الفتى...

في صباح اليوم التالي كان كل شيء جاهزاً وحضر القائد يحيى ومعه قوّاته المؤلفة من ثلاثمئة جندي.

كان الفتى يصدر آخر تعليماته إلى مجموعة من الغلمان:

- خذوا من اللبايد والبرانس ما يكفيكم..

والتفت إلى يحيى:

- لقد حان الرحيل..

تبادل يحيى مع رجاله نظرات ذات معنى، وانطلقت ضحكات مخنوقة وهمس

جندي في اذن رفيقه:

- انظر: انه يخاف أن يلحقنا الشتاء في العراق؟!

- هذا فتى حجازي لم يسافر.. يتصور ان الصيف في الحجاز فقط..

كان الغلمان يمارسون أعمالهم بشكل طبيعي، وبدت لهم استعدادات الفتى واحضاره ملابس شتائية ومطريات أمراً في غاية الحكمة، فالحجاز في هذه السنوات متطرف المناخ والطقس، ولا يعرف له ثبات.. لكأن القلق الفكري وعدم الاستقرار السياسي القى بظلاله على الطبيعة ايضاً فقد يصادف في النهار أن ترتفع درجة الحرارة فتشوي الوجوه حتى إذا حلّ المساء انقلب الجو انقلاباً عجيباً اذ تنخفض درجة الحرارة إلى ما دون الصفر وربما هطل المطر بغزارة بل ربما رامت السماء ثلجاً وبرداً^(٢٣)..

كل شيء بات جاهزاً في ذلك الصباح وقد ارتفعت الشمس فوق البيوت الطيبة المتواضعة.. فيما اصبح منظر اللبايد موضوعاً لتندر الجنود اللذين امضوا وقتاً ممتعاً في تبادل كلمات التهكم والسخرية!

القافلة جاهزة وقد رفعت النوق رؤوسها متأهبة لسفر طويل...

وبدا واضحاً أن القوة المسلحة قد اصبحت مهمتها حراسة القافلة التي تدفق أهل المدينة لتوديعها بأسف وحزن.. لقد غادر السلام المدينة ورحل الرجل الذي يحسن اليهم ويواسيهم في البأساء والضراء.. والفتى الذي يذكرهم وجهه البهي بالنبوءات الراحلة..

وداعاً ايها السيد.. ايها الفتى الطاهر.. ليحرسك الله ويحميك من الشرور..

الفصل الثاني

ابتعدت بيوت المدينة.. غرقت في بحر السراب وقد الهب تموز ذرات الرمال.. فيما
بدت اشجار النخيل رماحاً مركوزة في المياه الخيالية..

وفي قلب الرمال الممتدة حتى البادية تواصل القافلتان المسير.. قافلة تتألف من خيل
وجمال وهي قافلة الفتى العلوي الذي فضل اصطحاب بعض أفراد أسرته بالرغم من
الغموض الذي يكتنف نوايا الخليفة..

القافلتان تمعان في الرمال، وتموز يرسل لهيبه واضحى منظر اللبود فوق النوق أمراً
يفجر في اعماق الانسان مزيجاً من السخريه والجنوح إلى الضحك!

وصلت القافلة صحراء تزخر بالرمال، وكان منظر الكثبان الرملية التي بدت لوهلة
أمواجاً بحرية مسحورة تبعث الرهبة في ذلك الاصيل.

بركت الجمال وانصرف بعض الجنود إلى ضرب الاوتاد كما بادر الغلمان ومعهم
الفتى العلوي إلى صنع مخيم صغير للراحة بعد رحلة شاقة..

وفضل بعض الرجال الذين جاءوا من المدينة مسافرين^(٢٣) أن يضربوا خيامهم الصغيرة
قرب مخيم علي بن محمد..

وفي المساء، تحلق بعض المسافرين حول الفتى الذي أوتي علم الكتاب فراح يتحدث
اليهم بمحبة وود، قال رجل تبدو عليه سيما الصالحين:

- يا سيدي أنا أعرف أباك لقد كان تقياً..

وسكت لحظات ثم قال متسائلاً:

- لقد كنت أهابه وأخشاه مع أن لم يكن سلطاناً!

قال علي:

- من اتقى الله يتقى، ومن اطاع الله يطاع.

وأضاءت الوجوه بعد أن افلح غلام في اشعال بعض العيدان والخطب التماساً للنور

وكانت السماء تزخر بالنجوم المتألقة نظر الفتى إلى الرجل وكان اسمه فتح:

- يا فتح! من أطاع الله لم يبال بسخط المخلوقين، ومن اسخط الخالق فليوقن أن يحلّ به سخط المخلوقين.

يا فتح: ان الله جلّ جلاله لا يوصف الا بما وصف نفسه فأني يوصف الذي تعجز الحواس أن تدركه..

والأوهام أن تناله، والخيال أن يحده..

والأبصار أن تراه..

جلّ عما يصفه الواصفون..

وتعالى عما ينعتة الناعتون..

نأى في قربه..

وقرب في نأيه..

فهو في نأيه قريب..

وفي قربه بعيد..

كيف وكيف.. فلا يقال كيف؟

وأين الأين فلا يقال له: أين؟

إذ هو منقطع الكيفية والأينية..

الواحد الاحد، جلّ جلاله.. وسكت قليلاً وقد خشعت القلوب لذكر الله العظيم، خالق السموات والصحاري والنجوم، خالق الشمس والقمر والانسان..

واستأنف الفتى كلماته المضيئة كالنجوم:

- بل كيف يوصف بكمهنة محمد ﷺ، وقد قرن الخليل اسمه باسمه واشركه في طاعته، وأوجب لمن أطاعه جزاء طاعته، فقال سبحانه: ﴿وَمَا تَقْوَا إِلَّا أَنْ أَعْتَاهُ اللَّهُ وَمَرْسُولُهُ مِنْ فَضْلِهِ﴾.

وقال تبارك اسمه يحكي قول من ترك طاعته: (يا ليتنا اطعنا الله واطعنا الرسول).
ولأن الحكم الجديد يحارب علياً بن أبي طالب استطرد حفيده وحامل رسالته واسمه
فراح يتحدث عن علي:
- أم كيف يوصف من قرن الجليل طاعته بطاعة رسول الله حيث يقول: ﴿أَطِيعُوا اللَّهَ وَأَطِيعُوا
الرَّسُولَ وَأُولِي الْأَمْرِ مِنْكُمْ﴾.

يا فتح:

كما لا يوصف الجليل جلّ جلاله ولا يوصف الحجة فكذلك لا يوصف المؤمن المسلم
لأمرنا.. فنيينا أفضل الانبياء ووصينا أفضل الاوصياء..
وسكت الامام ليقول للفتح:
- فأورد الأمر اليهم وسلم لهم..
وأردف بعد لحظات:
- إذا شئت.

الحقائق الكبرى تسطع في أعماق الفتح الذي كان يصغي إلى كلمات خطيرة.. كلمات
لو سمعها المتوكل لانفجر غيظاً أنه يتحدّى وحيداً التيار الفكري الجديد الذي بدأ يهب
كالاعصار...

الخليفة يرسم صورة جديدة للأله صورة تنسبه الانسان له عينان ولسان وشفتان!
وليت الأمر يقف عند هذا الحد فهذا الفتى ينسف القاعدة التي يركز عليها
الحاكمون.. لا طاعة لمخلوق في معصية الخالق..

الانسان الذي مسته السماء، هو وحده الذي يجب أن يطاع، هو وحده القائد الحقيقي
لقافلة الانسانية نحو التكامل المنشود..

فضل فتح الانصراف فقد يسمع بعض الحرس كلمات الامام الخطيرة.. ان هذا الفتى
كآبائه لا يخشى أحداً إلا الله..

وساد الصمت ما خلا هسهسة النار وكان الجمر يخبوشياً فشيئاً فشيئاً، فيما اشتد سطوع النجوم.. وكانت رياح ندية من جهة البحر الأحمر قد بدأت هبوبها في آخر الليل..
وعندما اشرفت الشمس وظهرت من فوق كثبان الرمال فوجئ يحيى وجنوده بمنظر فجر ضحكات مخزونة منذ أيام..

السما صافية زرقاء زرقاء.. وظهر الفتى في منظر عجيب على فرسه مطرية، وذيل الفرس معقود وعلى رأسه برنس.. منظر عادة ما يرى في الشتاء في مواسم المطر.. لا في تموز في موسم الجفاف الرهيب وتصاعدت ضحكات مكتومة حتى من بعض الرجال المسافرين أما الغلمان فقد احتذوا بالإمام ولم يكونوا ليكثرثوا لموجة الضحك التي تعالت من قبل الجنود..

وهتف جندي دون لياقة:

- يا لهذا الحجازي.. انه لم يسافر في عمره أبداً!

وسارت القافلتان بين كثبان الرمال.. طوت النوق والخيول ثلاثة أميال.. واشتد هبوب الرياح الندية وظهرت في الأفق سحب داكنة.. وما اسرع أن اختفت الشمس واستحالت السماء إلى ملعب للغيوم الغاضبة وبدا الجو مشحوناً بالصواعق...

وراح القائد يصدر صيحاته المتوالية للتوقف وعقد أذنان الخيل وضرب الخيام.. ولكن شلال المطر كان قد تدفق من قلب الغيوم التي تشبه الدخان.. وزخت السماء ثلجاً وبرداً سادت الفوضى الجنود.. وضاعت صيحات القائد الذي فوجئ بغلام يسلمه مطرية،

ويسلم الكاتب الشيعي برنساً.. فيما تبعث الجنود، وفقد بعض الفرسان السيطرة على خيولهم فقذفت بهم من فوق ظهورها بعنف، وظن البعض وهم يشاهدون عنف البرد الثقيل أن السماء تمطر صخوراً!!

هدأ الجو وجاء القائد يتفقد جنوده الذين هزموا في معركة عجيبة..

وشعر بالألم يعصر قلبه لمراى بعض القتلى.. كانوا ثمانية جنود.. بعضهم كان يملأ الصحراء بضحكاته المدوية فإذا هو الآن جثة هامدة لا حراك فيها..

وأوصى القائد بعض الجنود أن يزيدوا في عمق القبور فهذه البادية مليئة بالضباع. ونظر
الإمام إلى أكوام الرمال وقال:

- هكذا تمتلأ البراري بالقبور!

وراح بعض الجنود يعصرون ثيابهم المبتلة من المطر ويفرغون أحذيتهم من المياه.. وكان
منظرهم ينتزع البسمة حتى الفتى العلوي شوهد مبتسماً..

علامات سؤال ودهشة تموج في أعماق يحیی الذي راح ينظر بهيبة للفتى وادرك علي ما
يجول في أعماق القائد فالتفت إليه قائلاً:

- أعرف أنك مندهش مما رأيت ولعلك توهمت بأني أعلم الغيب.

قال يحیی:

- أجل لقد رأيت الاعاجيب.

قال الفتى الحجازي:

- ليس الأمر كما تظن.. ولكنني نشأت في البادية فأنا أعرف الرياح التي تحمل المطر..
فتأهبت لذلك^(٢٤).

وفي المحطة الأخيرة وقد وصلت القافلة أرض العراق جاءت امرأة ومعها ابنها الأرمد..
راحت تتوسل إليه:

- إذا كان معكم رجل علوي فدلوني عليه.

- ماذا تريد مني منه؟!

- أريده يرقى عين ابني!

نظراتها الذليلة المنكسرة ولهجتها المتوسلة دفعت بالقائد إلى أن يرشدها إلى علي:

- هناك فتى مبارك اسمه علي..

وهوت المرأة إليه..

ومدّ علي كفأ سمراء مسح بها على عين الطفل ونظر إلى السماء البعيدة الغور وتمتم
بكلمات مقدسة..

وانفتحت العينان البريئتان كنافذتين تطلّان على عالم مغمور بالنقاء..
واشرقت الفرحة في القلوب.. مبارك اسمك يا علي.. مباركة خطواتك.. نظراتك
وخلجات قلبك الطاهر.. قلبك الذي ينبض بالحب والسلام.

الفصل الثالث

القافلة تقترب من بقعة مباركة طيبة في واد مهيب من بعيد تلوح للمسافرين في طريقهم
إلى الكوفة قبة بيضاء كحمامة حطت بعد رحلة في الصحاري.. حطت لتستريح..

أنها قبة مهيبة هي قبة الانسان الذي قهر الشيطان وهزم الموت واكتشف ينابيع الخلود..
قبة يرقد في ظلها انسان قذف الله حبه في قلوب الفقراء الطيبين.. «علي بن أبي طالب»..
علي الذي اصبح انشودة الاحرار، وهاجساً يطارد الاشرار، لانه يمثل حنان الحياة العميق،
وطبيعة الدنيا الخيرة تحنو على ابنائها وتغمرهم بالخير أياً كانوا.. ولوت النوق أعناقها باتجاه
القبة البيضاء الناصعة.. من أجل علي تحط القوافل عصي الترحال.. ومن أجل شذى
كشذى البنفسج هوت النوق جهة بقعة مباركة من الوادي الأيمن.. لأنها تتذكر وطناً تبحث
عنه.. كان سراً دفيناً في الأرض، فاهتزت وربت، وانبتت.. يا لغربتك في هذه الصحراء..
ويا لعنفوانك إذا يخشاك الحاكمون بعد قرنين من الزمن.. ما يزال ذو الفقار يقاتل الذين
ظلموا في كل مكان.. في بغداد وسامراء وفي كل المدن الآثمة..

تحت هذه القبة الناصعة يرقد تاريخ الإسلام في عنفوانه وملحميته وهنا يرقد الانسان
المؤمن الذي احتقر الدنيا. فكان آية التكامل الانساني بعد معلمه العظيم..

وجاء حفيده وسميه.. جاء الفتى الاسمر يخاطب الراقد في هذه البقعة المباركة من
الوادي.. جاء ليسجل ميثاق الوفاء في زمن انعدم فيه الوفاء وقد هبت العاصفة الصفراء من
قصر جاثم في سامراء.. ووقف الفتى الاسمر يعلن شهادته للتاريخ والاجيال:
- «انت أول من آمن بالله وصلى له..

وجاهد.. وأبدى صفحته للشرك.. والأرض مشحونة ضلالة.. والشيطان يعبد جهرة..
لك المواقف المشهودة والايام المذكورة.. يوم بدر ويوم الاحزاب.. إذ زاغت الابصار
وبلغت القلوب الحناجر..

ويوم خير إذ اظهر الله خور المنافقين وقطع دابر الكافرين.. والحمد لله رب العالمين.
«وشهدت مع النبي ﷺ جميع حروبه.. تحمل الراية أمامه.. وتضرب بالسيف قدامه..
ثم لحزمك المشهور وبصيرتك في الأمور أمرك في المواطن ولم يكن عليك أمير».. لك الله يا
علي وقد..

«اشبهت في البيات على الفراش^(٢٥) الذبيح اسماعيل.. إذ أجبت كما أجاب، وأطعت
كما أطاع.. صابراً قال له: «يا بني اني أرى في المنام أني اذبحك فانظر ماذا ترى؟ قال: يا
أبت افعل ما تؤمر ستجدني ان شاء الله من الصابرين».

وكذلك أنت إذ أمرك النبي أن تضطجع في مرقده، واقياً له بنفسك.. اسرعت إلى
اجابته مطيعاً، ولنفسك على القتل موطناً.. فشكر الله طاعتك، وأبان عن جميل فعلك
بقوله جل ذكره: (ومن الناس من يشري نفسه ابتغاء مرضاة الله).

وسكت الفتى لحظات ثم أستأنف خطابه باعلانه الشهادة للتاريخ والاجيال:
- «اشهد أنك لم تزل للهوى مخالفاً، وللتقى مخالفاً، وعلى كظم الغيظ قادراً، وعن
الناس عافياً غافراً، واذا عصي الله ساخطاً، واذا اطيع الله راضياً، وبما عهد اليك عاملاً..
راعياً لما استحفظت، وحافظاً لما استودعت».

أجل يا علي لقد كنت جبلاً في ثباتك ونهراً متدفقاً في عفوانك.. كقطرة ندى في طهرك
وصفائك.. قوياً كالعاصفة.. دافئاً كعش عصفور.. أخضر كالربيع.. طيباً كنسائم الصباح..
وكنت أمة وحدك «وأنت القائل لا تزيدني كثرة الناس حولي عزة ولا تفرقهم عني وحشة..
ولو أسلمني الناس جميعاً»..

ومرة أخرى سكت الفتى وحبس التاريخ انفاسه.. ان هذا الفتى يحمل ميراث جدّه
العظيم.. لا يهاب أحداً وهو يعلن أمام الحاكمين ميثاق الرسالة في اعلان علي بن أبي
طالب ولياً على الأمة الإسلامية وقائد أعلى بعد النبي:

- «ان الله تعالى استجاب لنبيه فيك دعوته، ثم أمره بإظهار ما أولاك لإيمته اعلاءً لشأنك، واعلاناً لبرهانك ودحضاً للأباطيل وقطعاً للمعاذير..

فلما اشفق من فتنة الفاسقين، واتقى فيك المنافقين أوحى إليه رب العالمين: ﴿يَا أَيُّهَا الرَّسُولُ بَلِّغْ مَا أُنْزِلَ إِلَيْكَ مِنْ رَبِّكَ وَإِنْ لَمْ تَفْعَلْ فَمَا بَلَغْتَ رِسَالَتَهُ وَاللَّهُ يَعْصِمُكَ مِنَ النَّاسِ﴾ فوضع على نفسه أوزار المسير، ونهض في رمضاء الهجير، فخطب وسمع ونادى فأبلغ ثم سألهم أجمع فقال: هل بلغت؟ فقالوا: بلى، فقال: اللهم فاشهد، ثم قال: الست أولى بالمؤمنين من أنفسهم؟ فقالوا: بلى، فأخذ بيدك وقال: من كنت مولاه فهذا علي مولاه، اللهم وال من والاه وعاد من عاداه وانصر من نصره، واخذل من خذله..

فما آمن بما انزل الله فيك على نبيه الآليل، ولا زاد أكثرهم غير تخسير»..

لك الله يا علي.. وأنت تقاوم عاديات الزمن وأمواج المحن.. لك الله وأنت تسير في طريقك المضيء وحيداً.. أكثر من ربع قرن من الزمن امضيتهامقهوراً محاصراً.. لأنك قلب الأمة النابض.. ولك الله بعد أن نهضت بالأمر..

«ثم محتك يوم صفين، وقد رفعت المصاحف حيلة ومكراً»..

رفعوها على الرماح من أجل تمزيق آيات الله وقد تألقت في عينيك وفي كل وجودك..

«اشبهت محنة هارون إذ أمره موسى على قومه فنفرقوا عنه وهارون ينادي بهم ويقول: «يا قوم انما فتنتم به وان ربكم الرحمن فاتبعوني وأطيعوا أمري. قالوا لن نبرح عليه عاكفين حتى يرجع إلينا موسى».. وكذلك انت لما رفعت المصاحف قلت: يا قوم انما فتنتم بها وخذعتم. فعصوك»..

فلك الله يا علي..

«وصلوات الله عليك.. غادية رائحة وعاكفة وذاهبة، فما يحيط المادح وصفك، ولا يحيط الطاعن فضلك»..

تذوب القرون عند قدميك كما تذوب حبات الملح على شاطئ المحيط.. وتنتهي الكلمات.. أما أنت فباق، ما بقي للورد شذى، وللأرض سما.. وما بقي للانسان.. ووداعاً

ايها الراقد تحت الثرى.. وسلام على روحك العظيم..

الفصل الرابع

على مقربة من سجن «المطبق» الرهيب يجثم قصر قديم يشبه القلعة اتخذ اسحاق بن ابراهيم قائد الشرطة العام مقراً له منذ سنين طويلة..

ومنذ انتقال العاصمة إلى سامراء تنامت بسرعة تربية الحمام الزاجل الذي اختص بالبريد الرسمي، ونقل الاخبار الهامة العاجلة..

ومن الطبيعي أن ينتبه أهل بغداد إلى هذه الظاهرة العجيبة فقد يصادف أن يحط الطائر الرشيق فوق قصر اسحاق، فتحدث جلبة داخل البناء المخيف، وقد تخرج دورية مسلحة من رجال الشرطة إلى منزل ما في بغداد، وربما حدثت حركة غير عادية في سجن المطبق.. حتى اصبح حمام الزاجل الجميل في نظر الكثيرين أكثر شؤماً من الغراب!

كان الخضر بن محمد البزاز^(٢٦) وهو شيخ مستور في طريقه إلى السوق ليفتح دكانه الذي عادة ما يكرّ إليه.. ولم ينتبه إلى حمام الزاجل الذي غادر القصر متجهاً إلى الشمال الغربي من بغداد..

كان ذهنه مشغولاً برؤيا عجيبة استغرقت وجوده وما تزال تسيطر على مشاعره.. كانت المشاهد الملونة.. ما تزال ماثلة تنبض بالحياة لكنها حقيقة وليست حلماً يراه الانسان في عوالم غامضة:

«دجلة هو نفسه في عالم المنام.. يتدفق باتجاه الجنوب.. والشاطئ يزخر بالنخيل، والشيخ في طريقه إلى رحبة الجسر.. الرحبة وهي ميدان واسع يكتظ بالناس يزحم بعضهم بعضاً.. وهتافات تقول: قد أقبل بيت الله الحرام..

وما هي إلا لحظات حتى ظهرت الكعبة بستاثرها الحريرية كانت تنساب كزورق في بحيرة هادئة.. الكعبة تعبر الجسر إلى الجانب الشرقي من بغداد.. الناس يطوفون بالبيت العتيق ويهللون.. ولكن إلى اين يمضي البيت الحرام.. ها هو يدخل قصر خزيمة»..

أه ياله من حلم عجيب؟! كف الشيخ عن محاولة اكتشاف الرموز في رؤياه العجيبة

وما لبث أن استغرقه العمل بعد أن دبّت الحياة في الأسواق والمدينة..

وفي ذلك الصباح غادر اسحاق بن ابراهيم قائد الشرطة بغداد إلى الضواحي القريبة بعد وصلته انباء عن اقتراب القافلة.. وأنها قد تصل «الياسرية» بين ساعة وأخرى..

كما انتشر الخبر في المدينة بقرب وصول «ابن الرضا» فغمرت الناس حالة من الشوق لاستقباله كانت القافلة تقترب من بغداد ولأسباب ما حطّت رحالها في الياسرية ريثما تصل أوامر واضحة من قائد الشرطة والحاكم الفعلي لبغداد..

كانت نسائم دجلة تهبّ برفق، فتتنعش القلوب.. واشرقت ابتسامة بريئة على وجهي محمد وحسن^(٢٧) وهما ينطلقان في البرية.. ووقف الأب يراقبهما بحبّ وأمل..

وجاء الفتح، الذي نفث الشيطان في روعه كلمة الكفر قال بعد أن حيا الشاب الأسمر بأدب:

- يا بن رسول الله أتأذن لي في كلمة اختلجت في صدري ليلتي الماضية؟

أجاب الشاب:

- سل وأصخ إلى جوابها سمعك.. فان العالم والمتعلّم شريكان في الرشد.. مأموران بالنصيحة..

أما الذي اختلج في صدرك فان يشأ العالم أنبأك.. ان الله لم يظهر على غيبه أحداً إلا من ارتضى من رسول.. وكل ما عند الرسول فهو عند العالم، وكل ما اطلع الرسول عليه فقد اطلع اوصياؤه عليه.

يا فتح ان الشيطان أوهم عليك.. فيما ذكرته لك حتى أراد إزالتك عن طريق الله المستقيم.. فقلت: متى أيقنت انهم هكذا فهب أرباب!!

وظهر على وجهه البرىء حزن سماوي وهو يستطرد:

- معاذ الله: انهم مخلوقون مربوبون مطيعون داخرون راغمون.. فاذا جاءك الشيطان

فاقمعه!

وسكت لحظات ليقول:

- يا فتح لا تتبع خطوات الشيطان..

وهوى الذي مسّته السماء إلى الارض ساجداً لله رب العالمين وكانت الكلمات
الحاشعة تناسب كجدول يدندن:

- راغماً لك ياخالقي.. داخراً.. خاضعاً..

وعندما استوى جالساً التفت إلى الرجل الحائر:

- يا فتح كدت تهلك.. وما ضر عيسى لو هلك الذين اتخذوه الهأ.. إذا شئت رحمك الله..
وحتى يحطم في صدر الرجل وساوس الشيطان أوى إلى خيمته.. وتناول صحناً من
قمح وقال:

- اجلس يا فتح.. فان لنا بالرسل أسوة كانوا يأكلون ويشربون ويمشون في الأسواق..

ولم ينس مهاجمة «المجسمة»^(٢٨) فاستطرد قائلاً:

- ان كل جسم يتغذى الآ خالق الاجسام.. الواحد الأحد.. منشئ الأشياء ومجسم
الاجسام.. تبارك وتعالى الله عما يقول الظالمون..

وسكت ليقول بعد لحظات:

- إذا شئت رحمك الله..

كل شيء يتوقف على وجود النور.. والنور يحتاج إلى عيون.. كما الحقيقة تحتاج إلى
قلب يفتح.. فالزهرة تفتح للربيع، ومن يرد الله أن يهديه يشرح صدره للإسلام..

هذه هي الحقيقة ايها الحيارى.. فإن شئت فافتحوا العيون والقلوب وتنفسوا ملء
صدوركم شذى الربيع والعبير..

وغادر الفتاح المكان وودّع الامام، وقد اشرفت في أعماقه أنوار الحقيقة.. والله أعلم
أين يجعل رسالته..

وصل قائد الشرطة العام ومعه مسؤولون في الدولة لاستقبال الامام..

وعقد بعد ساعة اجتماعاً مع القائد يحيى قال فيه اسحاق:
- ان هذا الفتى من ذرية الرسول.. وأنت تعرف جيداً رأي المتوكل وانحرافه.. ان كلمة واحدة تقولها ضده تكفي لقتله.. وعندها سيكون النبي خصماً لك يوم القيامة.
قال يحيى الذي بهرته سيرة علي:
- والله لم أر منه إلا كل شيء جميل!
ومع ذلك فقد احتاط قائد الشرطة عندما سأله يحيى قائلاً:
- متى تدخل بغداد؟
- في الغروب.
- ولماذا!
- في الظلام لن يراه أحد أن بغداد تتشوق لرؤيته^(٢٩).
كان النبأ قد أحيا بغداد بقرب وصول «ابن الرضا»، ولذا اجتمع الكثيرون في الجانب الغربي قريباً من الجسر..
الشمس تغطس وراء النخيل المصطف على جبهة النهر كرموش حسناء..
ووصلت القافلة بغداد وقد بركت النوق في خان على أبواب المدينة المدوّرة..
وكان الاتفاق أن يكون قصر خزيمة في الجانب الشرقي من بغداد داراً لاستراحة الفتى المدني الحجازي الذي وصل على قدر..
وكانت فكرة اسحاق أن يمضي الفتى العلوي ليلة واحدة في بغداد، يغادر بعدها إلى سامراء..
وكان حمام زاجل قد ولى شطره صوب سامراء، ليكون قصر الخلافة على علم بآخر الأنباء..
سرعان ما استحال الرجل الذي وصل بغداد في الغروب إلى موكب مهيب، فقد احتشد أهالي بغداد للاحتفاء خاصة الأحياء المتناثرة على الجانب الغربي من المدينة..

وشاهد الشيخ وقد جذبته الضجة فوق الجسر موكباً مهيباً واستطلع الأمر من الذين
تجمعوا عند الرحبة في الجانب الشرقي فقال أحدهم وهو يتشوق إلى القادم:

- لقد قدم ابن الرضا..

وكاد الأمر يكون عادياً لو لم يلح القادم المدني العزيز متجهاً نحو قصر خزمية.. هتف
الشيخ في أعماقه:

- هذا تأويل رؤياي قد جعلها ربي حقاً^(٣٠).

هذا فتى مبارك يحمل في صدره ميراث النبوات الغابرة.. كم يشبه أباه.. ان ذاكرته ما
تزال تتألق بوجه الجواد الأسمر قبل عشرين سنة!

الجماهير الظامئة إلى زمن الطهر والسلام تتدافع من أجل أن تمسّ الأكف سيّداً
علوياً....

من أجل طهرك ايها السيد.. من أجل عينيك اللتين تفيضان أملاً وبراءة.. من أجل
سلامتك المباركة.. من أجل مجدك يا بن الانبياء تستمر الحياة..

ليالي بغداد في أخريات تموز لها نكهة خاصة فقد تناثرت الذين ينشدون الهواء الندي
والنسائم المنعشة على شطآن دجلة.. فيما كانت بعض القوارب تمخر المياه المناسبة في سكينه
وصمت..

وكانت بعض القصور تتدفق من نوافذها الأنوار.. واصوات موسيقية طروب مفعمة
بانغام غناء عذب تترقّق في الأزقة والسكك خاصة الشمالية حيث منازل التجار واصحاب
النفوذ.. أما قصر خزمية في ذلك المساء الصيفي فقد شهد مناجاة الانسان الذي يرنو نحو
السماء إلى عوالم مليئة بالنور والنجوم.. وانسابت كلمات طاهرة مباركة هي نجوى الانسان
مع الاله وحركته منه إليه فهو المبدأ والنهاية والانطلاقة والغاية:

- «الهي! صل على محمد وآله..

وارحمني إذا انقطع من الدنيا أثري..

وامحى من المخلوقين ذكرى..

وكنّت في المنسين كمن قد نسي..

«الهي تاهت أوهام المتوهمين

وتلاشت أوصاف الواصفين

واضمحلت أقاويل المبطلين

فأنت في المكان الذي لا يتناهى^(٣١).

وسمّع وهو يأوي إلى فراشه ويحدّق في النجوم في أنوارها السحيقة يقول:

- «لا إله إلا هو الحي القيوم

وهو على كل شيء قدير

سبحان الله رب العالمين

وإله المرسلين..

وسبحان الله ربّ السماوات السبع وما فيهنّ..

وربّ الارض السبع وما فيهنّ..

وربّ العرش العظيم

وسلام على المرسلين

والحمد لله رب العالمين^(٣٢)..

ومع خيوط الفجر الأولى اتجهت القافلة إلى الشمال الغربي مولية شطرها إلى مدينة

سامرا متخذة من الساحل طريقاً إلى عاصمة بني العباس الجديدة..

الفصل الخامس

سامراء مدينة الاشباح.. مدينة يحكمها فرد واحد.. فرد لا يرى سوى منافعه

ومصالحه.. لا يرى غير نفسه.. ولا هدف له سوى اللهاث وراء غرائزه المجنونة..

فهو السيد الأوحّد المطاع الحاكم بلا رقيب أو حسيب، ولا يسأل عما يفعل وأما

الآخرون فهم العبيد.. عبيد يعيشوا من أجله.. الشعب كله يجب أن يستحيل إلى عبد ذليل يتضرع إلى حاكمه من أجل أن يبقى حياً..

لا معنى للحرية، ولا وجود للأحرار.. ولك الله يا علي ايها القادم من بادية الحجاز على قدر.. كيف ستقضي العمر في هذه المدينة العجيبة؟!

اتجه القائد يحيى إلى قصر وصيف التركي وأحاطه علماً بوصول علي بن محمد.

تساءل التركي وهو يحدّق ملياً في يحيى:

- هل شاهدت شيئاً مريباً؟

أجاب يحيى الذي لم ينس توصية اسحاق بن ابراهيم:

- كلاً لم أر منه إلا الجميل.. انه فتى مبارك.

قال وصيف متهدداً:

- يا يحيى! والله لئن سقطت منه شعرة لا يطالب بها سواك^(٣٣)! وامتلاّت نفس يحيى

اجلالاً لهذا الفتى.. إن سرّاً عجبياً يكمن في نفسه^(٣٤).. لم يره انسان إلا أحبه وهابه في الطريق رأى اشياء عجيبة لو أخبر بها أحد لأتهم بالجنون^(٣٥).

غادر يحيى المكان متجهاً إلى قصر الخلافة.. من بعيد لاح آلاف العمال منهمكين في بناء قصر جديد.. ولكن ما ادهشه فيما بعد ان المحدثين ورواة الاخبار في اجتماع دائم مع المهندسين ثم سمع بعد ذلك أن الخليفة يرغب ببناء القصر وفق ما ورد من أخبار حول قصر سليمان النبي، وما حواه من ابهة وما بداخله من تماثيل ذهبية وكان يؤكد على العرش الملكي الذي سيتصدّره أسدان ذهبيان وستحفه تماثيل الطيور في طليعتها تمثال الهدد^(٣٦).

وجد يحيى صعوبات جمة في لقاء الخليفة، ولم يستطع لقاءه الا قبيل الأصيل حيث اطلعه على تفاصيل طمأنته من ناحية «علي بن محمد».. وفوجئ يحيى بسؤال مباغت إذ قال له المتوكل:

- ماهي أوصافه؟

قال يحيى وقد تألّقت مشاهد عديدة في ذاكرته:

- فتى اسمر.. شديد السمرة^(٣٧).. وسيع العينين.. عريض الصدر.. «قنى الانف..
مليح الوجه..

قال بدناءة:

- قصير أليس كذلك؟

أجاب يحيى:

- انه ربعة ليس بالطويل ولا بالقصير.. معتدل القامة.

- ما الذي أعجبك فيه خلال السفر.

- انه رفيق سفر طيب أحاديثه تغسل الروح.. وهناك صفة تحببه إلى الناس..

- ماهي؟!

- انه يتعطر دائماً.. فيحس الذي يجلس معه أنه جالس في حديقة ملاءى بورود الربيع.

كف المتوكل عن المشي، ورمى بنفسه على سريره الذهبي ورأى يحيى ساقيه
الصفراوين^(٣٨).

أوما بكفه إلى القائد أن انصرف.. أحنى يحيى رأسه وتراجع إلى الورا..

تحركت في نفس المتوكل كوامن حقد كالسّم اذ موج في بطون الافاعي استدعى
الحاجب سعيد بن صالح.. كان الخليفة يعرف أن في نفس حاجبة ميولاً شيعية فأراد أن
يحطم ذلك باذلال الرمز قال له:

- لقد وصل علي بن محمد..

- أجل يا سيدي سمعت بذلك.

- سمعت من أين؟!

- في هذه المدينة تنتشر الاخبار بسرعة يا سيدي.

- ليقض ليلة في خان الصعاليك.. استقبله غداً في الصباح..

انحنى الحاجب الذي غادر منظوياً على ألم عميق..
عندما رآه سعيد كان يتوضأ للصلاة.. الشمس تغرق في الغروب الدامي وبدا الأفق
حزبياً كجراح الانبياء..
قال سعيد مواسياً بعد أن أخبره بأمر الخليفة:
- فداؤك روعي، انهم يريدون إطفاء نورك.. والتقصير بك.. حتى انزلوك هذا الخان
الأشنع.. خان الصعاليك^(٣٩)..
ابتسم الفتى قال وهو يغمره بالحنان:
- انظر إلى الأفق البعيد.. ماذا ترى؟
- أرى افقاً دامياً ملتهباً متوقداً كالجراح..
قال الفتى:
- انظر ابعد من ذلك.. حدق جيداً وتأمل ما وراء الأفق..
- لا استطيع يا سيدي.. لا استطيع..
قال الفتى:
- انك لا تريد ولو أردت لرأيت.. انني أرى عالماً يغمره السلام.. عالماً أخضر يرفل
بالسكينة والجلال.. عالماً مغموراً بالجمال.. هناك لحظات تنكشف فيها ستائر الزمن
السوداء.. وعندها تبدو للعيان عوالم مستورة بالغيب..
ما الذي جعل اصحاب الحسين يقاتلون يندفعون كالعاصفة إلى قلب الموت؟! لأنهم
رأوا فيه ينبوع الخلود.. وعندما نظروا ما وراء غابات الرماح والسيوف رأوا جنّات من نخيل
واعناب.. تتدفق خلالها الانهار..
في عاشوراء تفتحت أبواب السماء ورأوا عالم الحقيقة المطلقة.. ولذا منحوا اجسادهم
تمزقها السيوف..

وبكى سعيد هملت عيناه دموعاً من أجل الحسين:

- آه ليتني كنت مع الحسين.
- انك معه يا سعيد.. والذين يعشقون الحسين سيكونوا في قافلة الحسين.. انظر يا سعيد إلى ما وراء الأفق الدامي البعيد..
ورأى سعيد تلالاً من نور وجنائن معلقة مغمورة بالسلام.. تزخر بالحياة.. كل شيء أخضر.. بلون الربيع..
ورأى سعيد في ذلك الغروب الحزين مالا عين رأت ولا أذن سمعت ولم يخاطر على قلب بشر.
وأدرك سعيد أن علياً ينظر إلى المديات البعيدة.. إلى المديات التي يتطلع إليها الأنبياء..

الفصل السادس

الذين يعرفون خلفيات الصراع بين البيت العباسي والعلوي.. الحكام والمعارضين.. الذين يعيشون في القصور والذين ينبض حبهم في قلوب الفقراء.. يعرفون ان الفتى الذي دخل سامراء على قدر ليس شخصاً عادياً أنه زعيم البيت العلوي بكل ما يحمله ذلك البيت الرفيع من زخم تاريخي..
انه من سلالة علي بن أبي طالب..

شمس تموز الأخيرة تطلّ من نافذة المسجد الجامع في قلب المدينة، وكان الفتى الذي أدى فريضة الفجر، قد فضل المكوث قريباً من نافذة مشرعة.. وقد هبت نسائم فجر ندية تحمل معها عبير مياه النهر.. وكانت باحة المسجد مفعمة بعبير المياه المتدفقة من نافورة^(١) تستمد مياهها من دجلة.. وعندما غادر المسجد كانت الحياة قد دبّت في المدينة التي تبدو كمعسكر كبير! بسبب حركة الخيول وكثرة الفرسان الاتراك الذين يفضلون امتطاء صهوات جيادهم والهباب ظهورها بالسياط! ولم يكن عجباً أن يطلق اسم «العسكر» على هذه المدينة التي ولدت قبل عقد ونصف من السنين.

وبالرغم من ذلك فقد بدا على الفتى الاسمر أنه قد أحبّها من أعماقه.. لقد جاءها مجبراً.. ولكنه لن يغادرها إلا مجبراً.

الفتى الاسمر الذي اجتمعت في نفسه كل صفات الانسان يسير في طريقه إلى ملك طاغية لا يرى سوى نفسه.. ان التاريخ على موعد مع لقاء عجيب بين الانسان الحر والطاغية.. بين انسان يحب كل البشر وبين مخلوق لا يهتم إلا بمنافعه الشخصية ولذائده الهابطة.. بين انسان يرى في الكرامة شرف الانسان وبين حاكم يرى مجده في الثروة والتسلط..

لك الله يا علي..

تعمد المتوكل ذلك الصباح استقبال علي بالمزيد من مشاهد الابهة فقد اصطف الحرس على طول المدرجات العريضة إلى بوابة القصر الداخلية..

وكان الفتى الاسمر يرتقي الدرجات واثقاً غير مكترث بهذه المظاهر التافهة..

وقف عملاقان يؤديان التحية على جانبي الباب الكبير المصنوعة من اشجار الجوز،

وفي الرواق المؤدي إلى البهو الواسع أزاح الخدم ستائر مخملية.. وباتت الطريق مفتوحة إلى البلاط الملكي، حيث يرتفع سرير ذهبي يقذف الهيبة في قلوب الضعفاء..

من المؤكد أن المتوكل لن يحب هذا القادم الاسمر بطوله الفارع وهيئته العربية وسمرته المحببة وخطاه الواثقة أنه رجل ذو كرامة.. ومن عادة الطاغية النفور من هؤلاء.. انه بطبيعته لن يحب الرجل الشريف ذا الروح العالية.. ولا يحب صاحب الشخصية المستقلة.. لأن الطاغية يدعي في قرارة نفسه الوضيعة احتكار هذه الصفات الحميدة.. وبهذا يرى في الاحرار ذوي الكرامة والشخصية مزاحمين له في الجلال والسيادة.. ان وجود الانسان الحر في نظر الطاغية يعدّ في حد ذاته اعتداءً على سلطته! من أجل هذا يختار الطاغية الفاسدين من البشر ليكونوا له اصدقاء فهم عبيد التملق والنفاق..

والطاغية يسكره التملق ويتنشي من كلمات النفاق.. ومن أجل هذا يفضلهم على غيرهم من الشرفاء فترى مواعده تعج بالمنافقين الأغبياء والحمقى المتملقين.. أما الأحرار فهم محاصرون أو مطاردون أو في اعماق المعتقلات والسجون!

كان المتوكل على سريرته وكان يتصور أنه سيلتقي فتى حجازياً قد بهرته المدينة الجديدة بقصورها أو أربعه الحرس الغلاظ.. أو خطفت بصره فيفساء القصر ويريق تماثيله الذهبية!!

فاذا بالعينين النجلاوين كاتتا تسبران أعماقه، وقد وجد نفسه يقفز من سريره الذهبي ليعانق القادم ويقوده إلى حيث كان يجلس.. ولكن كل هواجس الشك والتوجس من هذا الشاب الاسمر قد ايقظت مخاوفه.. أنه لا يثق بأي انسان فكيف بهذا الفتى الذي يعتقد الألوف من البشر بامامته..

ماذا لو دعى اتباعه إلى الثورة المسلحة.. ولكن التقارير كلها تؤكد أنه ليست له مساع في الثورة، أو الخروج على سلطة الخليفة..

قال المتوكل وقد أراد أن يسبر ما في اعماق الفتى الذي يصغره بعشرة أعوام:

- ما يقول أبناء علي في العباس؟!

قال الفتى وهو يدفعه باتجاه الخير:

- ماذا تريد هم يقولون في رجل أمر الله الناس باطاعة أولاده، وينتظر من أولاده أن يطيعوا الله؟!

ابتهج المتوكل للجواب وإن جاء في صيغة سؤال استنكاري فيه حث على طاعة الله.. ولكنه على كل حال جواب مطمئن.. ان عينيه تتألقان صدقاً..

- ستقيم في «سر من رأى».. اعرف أنك امضيت ليلة في ذلك الخان البائس.. سوف

تستلم مبلغاً يساعدك على شراء دار جديدة..

ابتسم الفتى في ودّ ونهض يغادر القصر.. فشيعة الخليفة بنفسه، وقفز خادمان يرفعان الستائر أمامه.. ومن فوق المدرجات العالية القى الفتى الاسمر نظرة مفعمة بالأمل على الافق البعيد.. يستطيع الطغاة أن يفعلوا أشياء كثيرة ولكن هل يستطيعون وقف المياه في دجلة.. أو منع الشمس من الشروق.. أو القمر من التألق في السموات.

وهل بإمكانهم منع الايمان أن يتلألأ في القلوب المضئية؟!

الطغاة عاصفة مجنونة.. عاصفة هوجاء ربما تطيح ببعض الاشجار التي لم تضرب بجذورها الارض.. ولكنها لن تستطيع أن تمس ورد البنفسج الهاديء المختبئ في مكان من سرّة الأرض يبعث بشذاه ولا أحد يراه..

لم يطل بحث الفتى عن منزل مناسب فقد عثر على ضالته في الشارع الكبير المؤدي إلى المسجد الجامع انه منزل «دليل بن يعقوب» المهندس النصراني المشهور^(٤١) بيت فسيح فيه حديقة خلفية..

وفي باحة البيت يوجد مدخل مزود بسلاسل تؤدي إلى سرداب كبير يتوسطه حوض.. يستمد مياهه من قناة جوفية تجلب المياه من دجلة وهناك سدّاد يتحكم في تدفق الماء الذي يؤدي فيما بعد إلى الحديقة^(٤٢).

لقد دعا الله أن يرزقه منزلاً طيباً وها هو يعثر عليه في نفس اليوم.. كثيرون غبطوا الفتى على منزله الجديد وكثيرون أيضاً حسدوه!

وهكذا انتقل الامام مع أفراد عائلته إلى المنزل الجديد الذي يقع على الشارع الرئيسي في المدينة في ما يعرف بدرب الحصا.. سيكون هذا المنزل مأوى الفقراء وواحة وسط الصحراء.. صحراء الحياة..

سوف يستحيل السرداب إلى صومعة في الليالي وسيكون له شأن في مستقبل الايام.. والأيام حبل بالحوادث.. من يدري؟!

وربما تندثر المدينة.. ستستحيل إلى اطلال ولكن المنائر والقباب سوف تشق في هذه البقعة التراب.. وتمتد إلى الفضاء تعانق زرق السماء.. وسوف تطوف حولها حمام بيضاء.. هنا يكمن سرّ الانسان الذي عرف زيف الزمن واكتشف نبع الخلود!

ولكن ذلك يتطلب صبراً عجيلاً واستقامة على الطريق.. طريق محمد وعلي والحسين!

الفصل السابع

نحن الآن في شتاء سنة ٢٣٣هـ، ورياح شباط من سنة ٨٤٨م تلفح الوجوه وقد زاد من قساوتها الجفاف الذي ضرب أطنابه منذ شهور..

وكان هذا العام عاماً مشؤوماً.. فقد ضربت الزلازل الشام في أنطاكية ودمشق وسقطت منارة الجامع الأموي وشرفاته وتصدّع محرابه.. ولقي الكثيرون حتفهم تحت الانقاض..

كما اجتاحت السيول الموصل وغرق آلاف السكان.. فيما كانت رياح السموم تنفخ

الوجه في اقليم الحجاز..

أما سامراء فقد ضربها زلزال من نوع آخر إذ قاد المتوكل عملية قلب لنظام الحكم فقد أطاح أولاً بالمذهب المعتزلي الذي أصبح مطارداً بعد أن كانت له السيادة، كما قام الخليفة بتكريم احمد بن حنبل الذي ظل في سامراء شهرين ليعود إلى بغداد بعدها ويصبح مستشاراً للخليفة..

وامتلأت السجون برجال العهد البائد اضيف اليهم بعض الشخصيات المتعاطفة مع أهل البيت عليه السلام.

وفيما كانت الزلازل تهز بلاد الشام والسيول تجتاح شمال العراق والناس يموتون تحت الأنقاض ويغرقون في المياه.. كان الخليفة الذي بلغ من العمر ثمانية وعشرين سنة يقضي ليلاته الحمراء بين اصدقائه من المهرجين والمتملقين والتافهين..

بلاط المتوكل يعج بهؤلاء وكان «عبادة المخنث» يقوم بحركات بهلوانية والمتوكل يضحك.. المخنث يعرف كيف يدخل إلى قلب الخليفة.. وضع تحت ثوبه مخدة وشدها إلى بطنه ورمى بقلنسوته فبدت صلته.. راح يؤدي رقصات مضحكة.. فيما راح الخليفة يقهقه.. ثم قام بحركة جعلت الخليفة يقفز ضاحكاً.. المخنث المنحط يصيح:

- أقبل الأصلع البطين خليفة المسلمين!

وأدرك الجميع أن المتوكل يحقد على علي بن أبي طالب حتى أكثر من عدوه اللدود معاوية.

رمى المتوكل بصرة مليئة بالذهب فتلقفها المخنث وعيناه تبرقان دناء.. وفي هذه اللحظة.. انبرى شاعر انتهازي ليهتف:

كانت خلافة جعفر كنبوءه جاءت بلا طلب ولا بتنحل
وهب الاله له الخلافة مثلما وهب النبوءه للنبي المرسل^(٤٣)

وانتشى الخليفة لقد بدأ زمن الطغيان وتأليه الطاغية..

صاح الخليفة:

- اعطوه خمسين الف درهم!

وقفز شاعر آخر اكتشف طريق المجد.. انه يمرّ من فوق مجد الأحرار.. وهل هناك أفضل من الهجوم على السيدة الزهراء وابنائها؟ وعلي بن أبي طالب ومجده؟ الكلمات المتفخة بكل قذارات الدنيا تخرج من فم مليء بالصدید:

ملك الخليفة جعفر	للدين والدنيا سلامة
لكم تراث محمد	وبعد لكم تنفى الظلامة
يرجوا التراث بنو	البنات ومالهم فيها قلامة
والصهر ليس بوارث	والبنات لا تراث الامامة
ما للذين تنحلوا	ميراثكم إلا الندامة ^(٤٤)

وهتف الخليفة:

- اثروا عليه عشرة آلاف درهم.. وهذه لا تكفي أبداً اجعلوه حاكماً على البحرين واليمامة.

نظر علي بن الجهم بمجد إلى منافسه مروان وهمس في أذن الخليفة:

- انك لم تعطني شيئاً..

قال المتوكل هازئاً:

- لأنك لم تهاجم الرافضة..

استأنف المخنث حركاته المضحكة، وراح الخليفة يحتسي المزيد من كؤوس الخمرة.. عندما تقدّم «ايتاخ» ليهمس في أذن الخليفة بخبر طارئ..

سيطر الوجوم قليلاً على وجه المتوكل.. وما لبث أن عاد إلى مرجه.. ان هرب أحد القادة^(٤٥) لن يشكل خطراً.. واليوم خمر وغداً أمر..

ورفع المتوكل كأساً بلورياً جديداً، ولوّح به أمام أصدقائه معلناً استئناف المرح..

أجلس الخليفة ايتاخ إلى جانبه.. ايتاخ الرجل الدموي الذي يسيطر على البلاط.. في

يديه الغليظتين قيادة الجيش والحرس الخاص.. من مغاربة وأتراك ومسؤولية البريد الملكي والحجابه وشؤون القصر وفي قلبه الذي يشبه كتلة من الرصاص اسرار كثير من الذين لقوا حتفهم على يديه..

باستطاعته أن يهدم القصور على ساكنيها.. إشارة واحدة للحرس تجعلهم ينقضون على أي هدف يحدده..

وجهه القاسي ونظراته التي يرسلها.. أشاعت رهبة لدى الحاضرين.. وشعر المتوكل بعقدة الحقارة وبموجة من الحقد تتجه إلى هذا العملاق الذي يجلس إلى جانبه.. كم يبدو تافهاً في نظر الآخرين.. نهض البحري لينقذ الموقف ويدي مواهبه الشاعرية: منشدًا:

- عن أي ثغر تبسم وبأي طرف تحتلم..

نظر إلى الحاضرين ولكن احداً لم يتفاعل مع شعره.. فشعر بالحزن ولكنه راح يهز رأسه ويتراجع إلى الوراء متفاعلاً مع الشعر ويرفع يديه ملوحاً مغمضاً عينيه مكرراً ثم أردف:

- قل للخليفة جعفر المتوكل بن المعتصم..

الصمت ما يزال مهيمناً ولذا هتف:

- احسنتُ والله..

والتفت إلى الحاضرين قائلاً:

- مالكم لا تقولون لي أحسنت.. هذا والله لا يحسن أحد أن يقول مثله!

ورمقه المتوكل باحتقار.. والتفت إلى أحد المهرجين لكي يسخر منه.. اندفع المهرج مقلداً حركات الشاعر البحري:

وبأي كف تلـتـم

من أي سلـح تلـتـم

على قلوب ذوي النعم

يا بن الثقيـلة والثقيـل

ارتد الشاعر إلى الوراء وغادر المكان فيما طارده المهرج وهو يصيح:

من أي ملـح تـلـتـقـم وبـأي كـف تـلـتـطـم
يـا بـن الثـقـيـلـة واثـقـيـل عـلـى قـلـوب ذـوي الـنـعـم^(٤٦)

فيما استغرق المتوكل في الضحك فوق سريره ومتعمداً ضرب بقدمه ايتاخ الذي نظر إليه واجماً.. راح المتوكل يعبّ كؤوس الخمرة، التي لعبت برأسه وبدأت مكنونات خفية.. تأخذ طريقها إلى البروز.. تحت وطأة السكر يتعرّى الانسان وتظهر كل نواياه.. ابتداءً أولاً يسب ويشتم.. شتم الزيات.. ثم عرّج على عمر بن فرج.. الذي لم يصله الدور بعد..

وعندما وقعت عيناه المتوهجتين على ايتاخ ضربه بقدمه.. وصاح بصوت فيه سكر

- ايها البغل ماذا تفعل؟.. أما زلت تجيد الطبخ يا ايتاخ؟^(٤٧)

واطلق البعض ضحكات مكبوتة.. وفارت الدماء في رأس ايتاخ الدموي..

وضع كفه الغليظة على سيفه وقد اجتاحت رغبة في البطش بهذا المخلوق التافه..

وحبس الجميع أنفاسهم أن كارثة قد تحصل في أية لحظة.. ان الخليفة لا يدري ما يفعل ونهض ايتاخ وبأشارة واحدة اختفى المهرجون والمختنون..

في عيني ايتاخ بريق من جرح كبرياؤه.. بريق ينذر بالخطر ودّ لو ينقض على هذا المخلوق التافه الذي لا يهتم في الحياة سوى لذائذ هابطة..

وفي الصباح عندما أفاق المتوكل من غيبوبته وعرف ما حصل في ساعات الليل.. كان أول شيء فعله أن انطلق نحو ايتاخ رجل سامراء القوي.. ان اصلاح الأمور في نفس اللحظة أفضل.. فأيتاخ يستطيع أن يحيل سامراء إلى خرائب.. هذا الرجل الدموي لا يتورع عن فعل أي شيء.. من أجل هذا خاطبه بلهجة متملقة ذليلة:

- ايتاخ! أنت مثل أبي.. أنت رئيسي وأبي.. أنت رئيس دولتي^(٤٨).. ان السكران لا يدري ماذا يقول.. وفعلت الكلمات المتملقة فعلها في الرجل الذي مات قلبه من كثرة ما حصد من الرؤوس.. لهذا أقلع نهائياً من التفكير بقتل المتوكل فهو على كل حال الحاكم الفعلي ورئيس الدولة.. أما المتوكل فلن يكون سوى أداة في يده..

من أجل هذا انحى للمتوكل معرباً عن ولائه له وعندما غادر المكان شيعه بنظرات

حاقدة وقد اضمر في نفسه اغتياله^(٤٩) وفي تلك اللحظات دخلت زوجته الباهرة الجمال.. الحسنة الساحرة التي اختفى اسمها الحقيقي ليكون اسمها «قبيحة» لشدة حسنها.. دخلت ترتدي ثياب الغلمان وقد صفت شعرها بطريقة تشبه طريقة الغلمان ايضاً..

لقد اصبحت زوجته الرسمية الوحيدة بعد أن كانت مجرد جارية.. انها تعرف ميول سيدها ورغباته الشاذة.. من أجل هذا تمكنت من طرد زوجته «ريطة» وأن تأسره..

ها هي تتقدم نحوه وقد جاءت بمكر جديد.. كتبت على خدها الأسيل «جعفر» أما الخبر فقد كان من مسك مداف بزعفران..

لم تكتف بهذا بل أمرت إحدى جواريتها المغنيات أن تقف خلف الستائر الحيرية وتشدو بصوت عذب:

وكاتبنة بالمسك في الإخد جعفرأ بنفسي خط المسك من حيث أثرا

لئن أودعت سطرأ من المسك خدها لقد أودعت قلبي من الحب أسطرا^(٥٠)

آه أيتها الفاتنة اللعوب.. ما أجملك!! انني أهيمن بك.. أعبدك..

وأخذ بيدها وغابا خلف الستائر المخملية في جناح الحريم..

الفصل الثامن

الرياح القارسة البرد، تولول في أزقة سامراء وشوارعها، والليل البهيم يلقي بكلاكله الثقيلة، حتى الذئب كفت عن العواء وأضحت الشوارع مقفرة، كمدينة مهجورة، ما خلا اشباح تمرق في الظلام.. وما يزيد الرهبة ان تلك الاشباح لم تكن ملثمة بسبب البرد فهناك مهمات سرية جداً.. سامراء مدينة يحكمها الجواسيس..

وفي قلب هذا البرد الشديد يلحظ المرء منزلاً على الشارع الكبير في درب الحصا.. منزلاً مغموراً بالدفع والنور.. ولو أرهف الجواسيس اسماعهم لسمعوا لحناً سماوياً.. تنساب تلاوة دافئة مضخمة بالحزن، مفعمة بأسى شفيف.. ان هذا الواقف في محرابه في صمت الليل.. فتى علوي طوى من رحلة العمر عشرين سنة.. ينظر إلى حواله فيرى شريعة جدّه السمعاء غريبة.. منزوية في المساجد قد انحسر مدّها في اجهزة الدولة والأسواق

والعلاقات الانسانية يرى مجتمعاً متفككاً.. يحكمه رعب وخوف.. ويرى أناساً يعبدون الطاغية من دون الله.. من أجل هذا يرفع بصره إلى السماء إلى نقطة ما هي محور الوجود.. الوجود كله فتأتي كلماته وثيقة ادانه لهذا العصر المنحط:

- «يا من تفرّد بالربوبية، وتوحد بالوحدانية.. يا من أضاء باسمه النهار.. واشرقت به الانوار.. واطلم بأمره حندس الليل.. وهطل بغيثه وابل السيل..

يا من دعاه المضطرون فأجابهم.. ولجأ إليه الخائفون فآمنهم..

بك اعتصمت.. من الذين ألدوا في اسمائك وأرصدوا بالمكاره لاوليائك..

وأعانوا على قتل أنبيائك واصفيائك..

وكذبوا رسلك، وصدّوا عن آياتك..

وعبدوا طواغيتهم بدلاً منك..

أسألك اللهم باسمك الذي خشعت له السماوات والارض واحييت به أموات الأشياء، وأمت به جميع الاحياء.. واتممت به الكلمات، وأريت به كبرى الآيات..

أن تصلي على محمد وآل محمد..

وأن تجعل شيعتي من الذين حملوا فصدقوا واستنطقوا فنطقوا.. آمين مأمونين»^(٥١)..

واستحال المحراب في ذلك الليل البهيم إلى ساقية تترقق بالآيات.. آيات السماء.. وتألفت سور القرآن صوراً ومشاهد ملوثة.. من سورة الحديد.. سورة الحمد سورة ياسين.. سورة الرحمن^(٥٢)..

وعندما يسلم الانسان قلبه إلى السماء.. تضيء في أعماقه الآيات الكبرى.. فيرى الوجود حركة متوحدة متناسقة تتجه إلى غائية وهدف.. وعندما يختار الانسان بإرادته الاندماج في هذه الحركة.. الانصهار في بوتقة الوجود.. عندها يرى الاشياء على حقيقتها بعيداً عن زيف الزمن.. لأن الحقيقة تكمن دائماً خارج الزمن.. سوف يرى القصور المنيفة والقلاع خرائب.. والمدن الآثمة أطلالاً، والطاغية مخلوقاً تافهاً، وشجرة بلا جذور ما لها من قرار..

ومهما اشتد برد الشتاء مهما ولولت رياحه القارسة.. ومهما تضاعف هبوبها فان حركة الزمن تتجه نحو الدفء والربيع.. فليس هناك شتاء أبدي.. كما لا يبقى الصقيع إلى ما لا نهاية..

والله وحده الربُّ محرِّك الوجود وبارئهِ، منذ الأزل إلى الابد..

«الهي تاهت أوهام المتوهمين.. وتلاشت أوصاف الواصفين.. فأنت في المكان الذي لا يتناهى.. يا أولي يا واحداني»^(٥٣)..

أين النمرود في أرض بابل؟! وأين فراغة الأرض؟! أين الطغاة على مدار التاريخ؟
المجد وحده للإنسان عندما يسجد لله.. المجد لمن يعبد الله وحده.. والحرية لمن لا يرى نفسه عبداً إلا لله.

ويستحيل المتوكل إلى مخلوق ضئيل أكثر ضالة من ذبابة أو بعوضة.. أنه لا يصبح مخيفاً إلا في النفوس التي لم تذوق طعم العبودية لله.. والله العزة ورسوله وللمؤمنين.
وعندما يتجه الانسان إلى ربّه.. عندما يلتحم بحركة الوجود فإنه يستمدّ طاقات جبارة هي جذوة من القدرة المطلقة.. وقبس من الإرادة اللانهائية..

من أجل هذا كان علي بن محمد قوياً كالجبل.. طاهراً كقطرات الندى.. سخياً كالنابيع.. مهيباً كالعاصفة.. أخضر كالربيع.. شفافاً كالقمر والنجوم..
من أجل هذا كان المتوكل يخشاه.. يهابه.. يجد نفسه حقيراً ضئيلاً في حضرته!

الذين يرتعدون أمام الطاغية هم ضعيفو النفوس.. المنحطون التافهون الذين لاهم لهم سوى البطن وأسفله.. أما الاحرار الذين يتطلعون إلى ملكوت السماوات فقد تخلصوا من الأسر البشري.. انهم يرون حركة الوجود.. حركة التاريخ.. ويرون الاشياء على حقيقتها.. كل شيء بابعاده الحقيقية.. لقد انطلقوا من أسر قضبان الزمن الصدئة واكتشفوا سرّ الخلود..

اُطل رمضان بوجهه الكريم وبدأت رحلة الانسان المؤمن إلى الله.. رحلة الجوع والارادة التي لا يقهرها الشيطان.. ولكن الذين خضعوا للشيطان وسجدوا له لم يكتروا

لرمضان.. ورمضان الكريم كنهر تنثال مياهه العذبة على الشيطان.. فتهب الظالمين الكوثر..
والخيارى ظلالاً وارفة..

في الصباح استيقظت سامراء على حدث آخر.. لقد اعتقل «عمر بن فرج»!!

الذين توقعوا نهاية الزيات السوداء توقعوا لعمر نفس ذلك المصير.. ولكن المتوكل
الذي يحقد على هذا المخلوق انتهج اسلوباً آخر في معاملته.. سوف يدفع به إلى الخضيض..
ولكن بعد أن يرفعه كثيراً.. ومن ثم يدفع به نحو الهاوية ليكون سقوطه مدوياً.. سوف يدفعه
إلى المزيد من الحقارة والتفاهة والانسحاق..

تحمل المتوكل منادته.. حضوره المستمر في البلاط وكان عمر بن فرج يظن أنه يلتقي
مع الخليفة على صعيد هام! هو الحقد المشترك على علي وابناء علي.. ولقد أفاد المتوكل من
هذا المخلوق كثيراً انه غافل عما يخطط له الآخرون.. هناك على أبواب القصور انتهازيون
كثيرون ينتظرون دورهم في اختطاف لحوم البشر.. هناك الكثير من الذئاب التي لا ترحم..
وما أدمس هذا الصيد.. عمر بن فرج الذي مضت عليه أعوام وهو يكتنز الأموال في بغداد
وسامراء والأهواز..

وأخيراً سقط الثور.. فتخطفته الانياب.. لقد سمن بما فيه الكفاية..

وقع كل شيء بسرعة فقد حضر اسحاق بن ابراهيم حاكم بغداد وتسلمه شخصياً،
حيث نقل إلى بغداد وصودرت جميع أمواله المنقولة وغير المنقولة ووزعت مئة جارية على
قصور الخلافة.. والقي في إحدى زنانات المطبق سجن بغداد الرهيب^(٥٤).

وجاء رجل يعدو إلى منزل الامام يبشّره.. كم هو جميل منظر سقوط الطواغيت..
وكم هو عميق درس هذا السقوط؟.. قال الفتى العلوي لصاحبه:

- أتدري كم كان يضايق أبي؟ كان يومها حاكماً على المدينة خاطبه أبي في شيء فقال
له عمر: أظنك سكران..

تألم أبي بشدة لقد كان صائماً حينها.. سمعته يدعو عليه قائلاً: اللهم انك تعلم اني
صائم.. اللهم أذقه ذل الأسر^(٥٥).

الإمام يستعد للذهاب إلى قصر المتوكل كما تقضي المراسم في ذلك.. احضر ياسر الخادم ثوباً جديداً.. كما احضر قدحاً مليئاً بالماء.. تلا الإمام سورة القدر وسورة التوحيد وسورة الكافرون.. ونضح قطرات من الماء على الثوب الجديد.. وابتدأ بارتداء الثوب من اليمين.. وقال لياسر في ود:

- اخبرني أبي ان جدي علي الرضا كان يفعل ذلك وقد قال: من فعل هذا بثوبه من قبل أن يلبسه لم يزل في رغد من عيشه ما بقي منه سلك»^(٥٦).

واستوى علي فوق بغلته التي راحت تتقدم باتجاه السوق وعندما حاذى دكان «يونس النقاش» هب الرجل لتحيته، وردّ العلوي التحية مفعمة بابتسامة ومودة..

كان النقاش يستبشر خيراً كلما رأى هذا الفتى المبارك.. ولم يكن يصغي لشائعات كثيرة عن جواسيس يراقبون الفتى الحجازي.. وأن الخليفة يضمّر له الشر ويتحين له الفرص.. فقد كان يزوره^(٥٧)، ويقوم ببعض الخدمات تعبيراً عن حبه واحترامه..

عندما وصل السيد العلوي القصر كانت البوابة تكتظ برجال فوق خيولهم وبغالهم ينتظرون الأذن بالدخول.. وعندما وصل الفتى لم يملكوا انفسهم من القفز من فوق دوابهم اجلالاً لهيبته ووقاره ان له جلالاً عجيبياً.. جلالاً يدفع بالانسان إلى الخضوع في حضرته.. حيّاً الرجال الفتى العلوي واحنوا رؤوسهم، وقد ظهرت حالة من الخشوع في عيونهم.. حتى إذا اجتاز الامام البوابة الكبرى.. عادوا فامتطوا صهوات الخيول..

انبرى رجل عباسي حائقاً:

- لمن نترجل؟! لهذا الغلام؟! انه ليس بأشرفنا، ولا بأكبرنا سنّاً..

واستطرد محرّضاً بغیظ:

- والله لا نترجل له إذا خرج..

ردّ «أبو هاشم الجعفري» بثقة:

- والله لتترجلنّ له صغاراً وذلة!

لم يكّد الفتى يقترب من الستائر المخملية للقصر، حتى هب الخدم لرفعها أمامه.. انهم

يفعلون ذلك تطوعاً ويجدون في تصرفهم لذة عجيبة.. هذا فتى نبيل تشع من وجهه أنوار روحانية وما زاد توددهم له أنهم سمعوا بعد ذلك أنه من نسل النبي ﷺ ان دماء الرسول تجري في عروقه..

هب المتوكل للقائه، على الرغم منه.. قاده إلى سريرته ليشاطره الجلوس.. وسيطرت على الجميع سكينه النفس الكبيرة.. حتى «علي بن الجهم» ذلك الشاعر الذي لا يكتفم أحقاده على علي وأبناء علي استغرقت حاله من الوجوم وقد كان سيد الحديث قبل أن يصل علي ابن الرضا..

المتوكل يعرف عقدة الشاعر من علي^(٥٨) لأنه ابن علي..

أراد المتوكل أن يكسر الصمت فقال لشاعره:

- من هو أشعر الناس.

راح ابن الجهم يعدد شعراء في العصر الجاهلي وبعده.. ويستشهد ببعض الأبيات..
حي ان المتوكل ضجر منه فالتفت إلى ابن الرضا وسأله:

- ما رأيك يا أبا الحسن؟

قال الامام بإباء:

- الحماني حيث يقول:

بمطّ خدود وامتداد أصابع
عليهم بما نهوى نداء الصوامع
عليهم جهير الصوت في كل جامع
ونحن بنوه كالنجوم الطوالع^(٥٩)

لقد فاخرتنا من قريش عصابة
فلما تنازعنا المقال قضى لنا
ترانا سكوتاً والشهيد بفضلنا
فإن رسول الله احمد جدنا
تساءل المتوكل:

- وما نداء الصوامع يا أبا الحسن؟!

قال الامام:

- اشهد ان لا إله الا الله واشهد ان محمد رسول الله .. جدي أم جدك.

أجاب المتوكل:

- أجل جدك .. لا ندفعك عنه^(٦٠).

وعندما غادر الامام القصر. قفز الذين ينتظرون عند البوابة من خيولهم، وارتفعت هتافات تكبير وتهليل، ونهض الجالسون إجلالاً لهيبته تتمم «الجعفري» باعتزاز:

- «ولله العزة ولرسوله وللمؤمنين» «الله اعلم حيث يجعل رسالته»!!

والنفث إلى الذين أقسموا أنهم لن يكثرثوا له قائلاً:

- أليس زعمتم انكم لا تترجلون له؟!

أجابوا منبهرين:

- والله ما ملكنا انفسنا حتى ترجلنا!

الفصل التاسع

الليل في سامراء بهيم.. والسمااء بلا قمر خيمة كحلية تنبض فيها النجوم كقلوب واهنة.. كل الاشياء اخلدت إلى النوم وارتدت ثوب الغموض والأسرار..

في الليل تنام الكائنات ترقد في سباتها، وتستيقظ الدسائس والمؤامرات تستيقظ الغرائز المجنونة لتنتطلق وتعربد، وكان المتوكل يحتفل بليلة حمراء تذبح فيها الكرامة الانسانية على مذبح الشهوات الآثمة..

كان «ايتاخ» الرهيب يصدر تعليماته موجزة، قاسية ونافذة، عندما اقترب منه أحد افراد الحاشية.. عيناه تبرقان بالمكر وعندما حيا ايتاخ كان قد ارتدى ثوب الناصحين فقال بدهاء:

- إنك تتعب نفسك ايها القائد..

- ماذا تعني؟!

- اعني ينبغي أن تخلد إلى الراحة قليلاً..

- ان مسؤولياتي كثيرة.. كثيرة جداً..

- هذا صحيح.. ولقد بلغت المجد وحزت على ثقة الخلفاء.. ولكن هناك ما ينبغي أن تقوم به لتبلغ ذروة مجدك..

هبت كل خلايا مخي:

- عمل!! أي عمل!؟

- أطلّ هلال ذو القعدة.. وآن لك أن تحج إلى بيت الله الحرام.. الحج واجب، وأنت قائد مسلم، وعلى المسلم حج البيت إذا استطاع سبيلاً.. المسلمون لا يغفرون لأحد يتساهل في أداء الواجب.. أتذكر ما حلّ بالأفشين.. قتلوه وحرقوه.. لأن القاضي أشاع عليه أنه لم يخنن.. لم يشفع له فتح عمورية ولا قضاؤه على ثورة بابك الخرمي..

بدا العملاق يصغي خاضعاً لكلمة حق أريد بها باطل.. حقاً أن عليه أن يحج إلى مكة..

في اليوم التالي أعلن القائد إيتاخ رغبته في حج بيت الله الحرام وكان أكثر الناس سعادة المتوكل الذي شعر بأن خطته قد نجحت، وأن إيتاخ قد سقط في بيت العنكبوت..

اتخذ المتوكل اجراءات عكست للكثير منزلة إيتاخ باعتباره الرجل الثاني في الدولة بل أقوى رجل.. فقد اتخذ البلاط الملكي قراراً بتنصيب القائد إيتاخ اميراً في كل بلدة يدخلها وأن أوامره هي النافذة فيها..

كما خصص له مبالغ طائلة للانفاق وتغطية رحلة الحج له، ولثلاثمائة من رجاله الاشداء..

وشعر إيتاخ بأنه كان عليه أن يقوم بهذه الرحلة في وقت مبكر لقد تأخر كثيراً جداً وأحس بأنه مدين لذلك الرجل الذي قدم له النصيحة ليلاً.. سوف يكافئه، وقد يوحي ولديه مظفر ومنصور بتعزيز مركزه في البلاط..

لم يكد إيتاخ يغادر سامراء وهو يتصدر رجاله الاشداء حتى فرك المتوكل يديه وسارع إلى تنصيب القائد «وصيف» حاجباً عاماً في قصر الخلافة^(٦١) ومنحه صلاحيات واسعة..

في مكة بدأت مناسك الحج الاكبر، وفي يوم التروية أوصى علي بن محمد أحد أصدقائه أن يشتري له غنماً كثيرة^(٦٢) لتقدم قرابين لله في عيد الاضحى ويوزع لحمها على الفقراء خاصة العلويين الذين كانوا يواجهون مضايقات شديدة في تحصيل لقمة العيش..
انطوى موسم الحج وعاد الحجيج إلى ديارهم.. وبدأ ايتاخ رحلة العودة باتجاه العراق..

أما المتوكل فقد أوعز إلى اسحاق بن إبراهيم قائد شرطة بغداد بتنفيذ خطة للقبض عليه.. كما بعث بهدايا نفيسة إلى الانبار لاستقبال القائد ايتاخ..

فرح ايتاخ بالهدايا الثمينة وفي الاثناء تسلم رسالة من حاكم بغداد جاء فيها:
- «ان أمير المؤمنين يأمر بك زيارة بغداد والحلول في قصر خزيمة.. واستقبال الشخصيات الهاشمية وتوزيع بعض الجوائز»^(٦٣)..

فسر ايتاخ ان المتوكل يبالي في اكرامه ليرفع من شأنه في الدولة والرأي العام.. لهذا أعرب عن سروره في تنفيذ رغبة الخليفة.. فتحرك باتجاه بغداد بعد أن عبر نهر الفرات..
أما اسحاق فقد شحن الجسر المؤدي إلى قصر خزيمة بقوات الشرطة والجيش.. وانطلق إلى الياسرية على تخوم بغداد لاستقبال القائد التركي الكبير.

حيات منصّة لحاكم بغداد للاستراحة والانتظار، وسمع أحدهم يهتف بوصول القائد التركي.. امتطى اسحاق صهوة جواده لاستقبال الموكب القادم..

وبدا العملاق فوق حصانه مرتدياً قباءً ابيض متقلداً سيفاً بمائل، واراد اسحاق الترحّل مبالغة بالاحتفاء به فاقسم عليه القائد إلا يفعل.. وسارا على فرسيهما جنباً إلى جنب..

كانت الخطة أن يجتاز ايتاخ الجسر نحو قصر خزيمة المطل على دجلة.. أما حرسه المؤلف من ثلاثمائة شاب فإن الشرطة تتظاهر باستقبالهم وقيادتهم إلى اماكن استراحتهم وعندما وصل ايتاخ بوابة القصر لم يكن معه سوى ثلاثة من رجاله.. ودخل ايتاخ القصر وأغلقت وراءه الأبواب باحكام وعندما وجد نفسه وحيداً عض على أسنانه بغيط.

.. لقد فعلوها.. لقد كانت مؤامرة أذن.. آه لو أنني في سامراء لأحلتها إلى خرائب..
إشارة واحدة فقط تكفي لقطع رأس ذلك الخليفة الحقير..

أصدر قائد الشرطة العام بكسر جميع المدرجات خارج القصر.. كما وضعت مفارز مسلحة على الأبواب المطلة على نهر دجلة.. ان فراره إلى سامراء يعني نهايتهم جميعاً وفي منتصف الليل قدمت إليه وجبة من الطعام تتألف من رغيف خبز وكوزاً من الماء^(٦٤).

وحلق حمام زاجل من قصر اسحاق باتجاه سامراء، فاحتفل المتوكل بنصره الجديد وأصدر أمره بالقاء القبض على ابني ايتاخ: المظفر والمنصور وعلى كاتبه: سليمان بن وهب وقدامة بن زياد النصراني وارسالهم مخفورين إلى بغداد..

وكان المتوكل قد طلب فجوات عسكرية من خراسان تحسباً لردود الفعل.

قال المتوكل وهو يسلم المتهمين لاسحاق ويشير إلى سليمان بن وهب:

.. هذا عدوي.. فحطّم عظامه.. لقد كان يحتقرني في أيام المعتصم، وكان يخاطبني كما لو يخاطب عبده.. ان كل ما يفعله ايتاخ فعن رأيه!

.. في بغداد ألقى المتهمين في سجن المطبق الرهيب وزجّ سليمان في مرحاض مظلم لا يعرف فيه الليل من النهار^(٦٥).

كما تم نقل ايتاخ من القصر في حراقة خاصة صعّدت به مياه دجلة إلى قصر اسحاق حيث يوجد سجن خاص في سرداب مظلم^(٦٦)..

وهكذا تمضي الايام، ويللم الشتاء أيامه الأخيرة، وبالرغم من كل ما حصل فقد كان هذا العام طيباً إذ اعلن رسمياً إيقاف الجدل حول مسألة «خلق القرآن» كما تم اطلاق المعتقلين بسببها من السجون^(٦٧)..

كما تم انتهاء التمرد في أذربيجان بقيادة محمد بن البعيث وسقطت قلعة «مرند» بأيدي قوات القائد التركي «بغا» فسطع نجمه السياسي واصبح من رجال الدولة المتنفذين..

الفصل العاشر

وصل أحمد بن حنبل سامراء واستقبل استقبالاً حافلاً في البلاط، اذ نهض المتوكل من سريره الملكي احتفاءً به وهو قلماً يصنع ذلك، كما وصل أيضاً الأديب الجاحظ بعد أن أطلق سراحه من السجن في بغداد^(٦٨)..

أجزل المتوكل في تقديم الجوائز للإمام أحمد بن حنبل ولكنه اعتذر عن استلامها فالبسه الخليفة حلّة فاخرة فاستحى ابن حنبل منه ولبسها وعندما وصل إلى محل إقامته في سامراء خلعها بعنف وهو يبكي، وطوى فترة إقامته التي امتدت شهرين صائماً، يرفض تناول الطعام الذي يصله من مطبخ قصر الخلافة ولكن ولديه عبدالله وصالح كانا يستلمان الجوائز والهدايا التي تصله دون علمه..

وقبل أن يغادر سامراء عائداً إلى بغداد استشاره المتوكل في انتخاب شخص يليق بسلطة القضاء في الدولة فأشار ابن حنبل عليه باستخدام يحيى بن اكثم..

أما الجاحظ الذي وصل سامراء بناءً على رغبة الخليفة في أن يتبنى تعليم أولاده فقد انتهت آماله لحظة وقعت عينا الخليفة عليه.. فقد بدا منظره بشعاً فاستلم جائزة البلاط وصُرف إلى خارج القصر بعد دقائق قليلة^(٦٩).

وفي بغداد تمت تصفية القائد التركي ايتاخ في السجن بأوامر شخصية من المتوكل.. على أن يتم تنفيذ الأمر في أيام معدودة أقصاها عشرة أيام.. فبدأت رحلة الجوع الرهيب.. لأنسان كان لا يتورع عن التهام خروف كامل أمام ضحاياه.

ها هو الآن يسقط في براثن الوحش العباسي..

في الليالي كان ايتاخ يهذي بكلمات تركية.. ربما كان يقول ليتني بقيت طباحاً في القصر.. ليتني لم اطلع إلى المجد.. الذهب.. الثراء.. النفوذ.. الحكم..

ليتني لم اقترح ابن الواثق للخلافة.. ليتني شاركت وصيف في رأيه..

ليتني قتلته في تلك الليلة اللعينة.. لقد كان في قبضتي ليتني لم اذهب إلى الحج.. لم اغادر سامراء..

وبعد أيام الجوع المدمر.. فوجيء بمائدة حافلة بألوان الطعام.. المالح والحلو.. آه ما
اشهى الطعام بعد الجوع.. وراح ايتاخ يلتهم اللحم وارغفة الخبز والحلوى..

وكان السجنون يتلصصون عليه.. آه انه يحفر قبره بأسنانه!!

شعر بالظماً^(٧٠) طلب ماءً ولكن لا أحد يردّ.. دوت صرخاته الرهيبة في زنزانته
الصخرية القاسية للحظات اشتعلت ذاكرته.. بمشاهد العباس بن المأمون تذكر صرخاته في
«منبج» توسلاته من أجل قطرة ماء ولكن دون جدوى..

لقد وقع في الفخ.. نظر إلى المائدة فبدت له قبراً محفوراً.. يئن من البرد ويضج من
الدود..

آه لا أريد الموت واجتاحته هستريا الجنون وراح يسدد قبضاته المجنونة للصخر وكانت
صرخاته، ضرباته.. تتحطم تذوب في هذا السجن الذي يشبه القبر..

وبعدها ساد صمت رهيب.. لقد سقط الرجل الذي كان جلاًداً ذات يوم.. وهكذا
مصير الجلادين..

كان المتوكل سعيداً بعد اجتماعه بوزيره الفتح بن خاقان الذي نقل إليه تقارير وأخبار
عن الرأي العام.. ان بغداد تشعر بالرضا بسبب سياسته الجديدة ومناهضته للمعتزلة
وتكريمه المحدثين والرواة خاصة بعد تكريم البلاط لاحمد بن حنبل وردّ اعتباره وعودته إلى
الحياة العامة بعد عزلة دامت اكثر من عشر سنوات، وان الخليفة قد نال لقب «محيي
السنة».

ان الأمور تمضي على ما يرام ان فكرة «التفويض» التي روج لها المعتزلة تنحسر
وتراجع أما تيار «الجبر» الذي بدأ التأسيس له على قدم وساق، وقد وجد الخليفة في ما
خلفه الحكم الأموي من جهد فكري في هذا الطريق ما يساعده على نشر فكرة الجبر الخطيرة
ونشرها مما في صفوف الأمة..

ان الطاغية لا يحتاج شيئاً أبداً إذا آمن الناس بأنهم مجبرين على أفعالهم، وأن كل ما
يحدث هو قدر حتم ومصير لا يمكن الإفلات منه.. وعندها يستطيع أن يفعل الحاكم ما يشاء
ولن يسأل عما يفعل!

سوف تصبح إرادته وأوامره أرادة القضاء والقدر فالخروج على أوامره وسياسته تمرّد على قضاء الله وقدره!

ولكن ما عكّر مزاجه قليلاً اخبار عن تردد بعض الشخصيات على منزل علي بن محمد المعروف بابن الرضا..

تساءل المتوكل وقد لمح رقعة ملفوفة:

- ما هذا يا فتح؟

- هذه نسخة من رسالة جوابية بعث بها ابن الرضا إلى بعض اصدقائه في الأهواز.

- رسالة جوابية؟!!

- يبدو أن رسالة من الاهواز قد وصلته في سؤال حول القدر.

وراح المتوكل يتأمل ما ورد في الرسالة ولم يتحمل قراءتها.

- ماذا فيها؟!

- انه يهاجم الجبر والتفويض معاً^(٧١)..

قال المتوكل:

- لا استطيع قراءتها لكثرة ما ورد فيها من اسم علي بن أبي طالب لا استطيع تحمله.. وأردف بحقد:

- لا أكره في الدنيا مثل ما اكره علي.. اودّ لو انبشه من قبره فأحرقه!

والتفت إلى رئيس وزرائه:

- والرسالة قد سمحت بإرسالها في البريد؟!

- أجل.. الرسالة تنفعنا في شيء على الأقلّ انها تقوّض أركان «التفويض» الذي نحاربه الآن.. ولو عمدنا إلى منعها فانها سترسل بطرق أخرى.. انّ له اصدقاء يفتدونه بارواحهم.

- افعل ما تراه مناسباً.. ولكن شدّد المراقبة على منزله.. لقد سمعت بان «أبا هاشم

الجعفري» يتردد عليه.

- انه رجل مسنّ كما تعلم ومنزله في بغداد.. يكفيننا أنه لا يستطيع الإقامة في سامراء
وسوف يقعد به العجز عن المجيء إلى هنا..

- ان له جرأة وشجاعة وأنا أخشى أمثال هؤلاء.

- لا تخش شيئاً يا سيدي كل شيء يمضي على ما يرام.

ربت الخليفة على كتف وزيره العزيز وقال:

- لا يفوتك الحضور في حفلتنا اليوم انني اتنبأ ببهجتها من الآن.

- حسناً سأحضر في الوقت المناسب ولكن يتوجب علي تصريف بعض الشؤون!

كان الأصيل جميلاً ودجلة هادئاً تنساب فيه القوارب والشمس تقرض مأذنة المسجد الجامع.. تلك المأذنة الملوية العجيبة التي ولدت في ذهن المهندس المسلم.. ومن فوق التلال الصخرية المشرفة على المدينة يمكن للمرء أن يشاهد أجمل المناظر لهذه المدينة المنعشة النسائم، وأجمل ما فيها ذلك المسجد المهيب الذي تبلغ مساحته ٣٨/٠٠٠ متراً مربعاً انه اكبر جامع في العالم أما منارته فأنها تستحيل في المساء إلى فنار مرفأ بحري حيث تتألق الانوار في جهات الأفق لاناارة سبل القوافل القادمة ليلاً^(٧٢).

ولم يكن المتوكل ليكثرث في بناء المسجد إلى عدد المؤمنين الذين يؤمنونه للصلاة بقدر ما يشبع جنونه في حمى البناء.. بناء القصور والمنتجعات والى اظهار عظمتة كحاكم كبير.. ولهذا أمر ببناء هذه المنارة الفريدة التي ترتفع إلى اكثر من ١٩ متراً.. في بعض الليالي كان يعجبه صعود المنارة الملوية فكان يركب حماره المريسي^(٧٣).

المتوكل منفتح النفس في قصره المنيف.. في حديقة القصر الخلفية.. حيث توجد «بركة السباع» وهي مسبح واسع مزود بنافورات تستمد مياهها من دجلة عبر قناة جوفية.. والى جانب البركة مغاور منحوتة في الصخور الكلسية حفرت لتكون عرائن للأسود الحبيسة.. وبركة السباع هذه تتصل بدهاليز وانفاق تحت الأرض تؤدي إلى سجن رهيب^(٧٤) يشكل جزءاً من سرداب القصر..

قليلون جداً يعرفون وجود هذا السجن لأنه مخصص للشخصيات المغضوب عليها أو التي تشكل خطراً على الخليفة.. ولكن الذي يجلس على الدكة حيث مجلس الخليفة لا يشاهد في هذا المكان سوى حديقة غناء وحوض السباحة الجميل ولن يسمع سوى تغريد الطيور..

وكان المتوكل في ذروة نشوته في ذلك الأصيل فقد ابتكر أحد مهرّجيه لعبة جميلة.. إذا نصب في زاوية من الحديقة منجنيقاً حريباً قديماً من مخلفات عهد المعتصم.

المتوكل ينتظر مهرّجه الاثير عبادة المخنث، وجاء كعادته يضع تحت ثيابه مخدّة.. وجاء يتقلب في مشيته.. وصوته الخليع يقول:

- قد اقبل الاصلع البطين خليفة المسلمين؟

المتوكل يقهقه بصفاقة، وينتظر انقضاء مهرّجيه الآخرين عليه.. هبت نسائم باردة.. فالشتاء لم يرحل بعد وإن بدا في آخر أيامه.

انقضّ الرجال على عبادة المخنث الذي لم يستطع الافلات وسيق إلى المنجنيق فوضع فيه، ثم قذف في الهواء ليسقط في المياه الباردة..

كان المتوكل في غاية النشوة.. يتسلّى باستغاثة عبادة الذي أشرف على الموت.. عندها أشار إلى مهرّج آخر يرتدي زي صيادي السمك فألقى شبابه على الضحية الأحقق وانتشله من الغرق والموت برداً..

وجيء به إلى المتوكل الذي سأله متلذذاً.

- كيف حالك؟!

قال عبادة وأسنانه تصطك من البرد:

- جئت من العالم الآخر.

هتف المتوكل ضاحكاً:

- إذن كيف حال أخي الواثق؟

قال المخنث وهو يدرك مدى حقه على أخيه:

- انني لم أمر بجهنم!

وكما تُرمى كسرة خبز للكلب.. رمى المتوكل إليه بصرة ملأى بالدراهم^(٧٥).

وراح المتوكل يدير عينيه في حاشيته فوقعتا على ابن العبرة الشاعر الأحمق فأشار إلى رجاله..

أطلق الأحمق ساقيه للريح ولكن دون جدوى فقد امسكوا به ووضع في المنجنيق وعندما قذف في الهواء صاح:

- الطريق.. الطريق.. جاءكم المنجنيق..

وانثالت مياه البركة.. ورمى الصياد شبابه فانثله واصطيد كما تصطاد الاسماك^(٧٦).

وغابت الشمس وازدادت النسائم برودة ونهض الخليفة معلناً انتهاء الحفل.. وفي رأسه تشتعل أحلام ليلة حمراء آثمة.

الفصل الحادي عشر

أجرى الطبيب «يزداد» النصراني فحوصاته على الخليفة..

- كل شيء على ما يرام.. ولكني انصح بالافتصاد.

قال الطبيب بخضوع تام.. فهذه أول مرة يدخل فيها البلاط، وقد عرفه استاذة بخيشوع..

ومن صندوق خشبي مصنوع من الأبنوس استخرج أدوات عمله كان المتوكل ينظر إليه بانزعاج مكبوت وود أن يسأله عن دواء منشط..

كان «يزداد» يقوم بعمله بدقة تامة فقد سمع عن نزق الخليفة الكثير، فهو لا يريد أن يسبب لنفسه المتاعب.. ولكن إجراء هذه العملية البسيطة كفيلاً بأن تجعله في ذروة الشهرة وستدرّ عليه أموالاً طائلة..

انهى الطبيب عمله وتمنى للخليفة العافية والصحة والسلام.. في الاثناء.. دخلت فتاة

حسنة فاتنة كانت تتقدم بدلال وقد ارتدت ثياباً حريرية ملونة وشفافة لأنها حورية قدمت من الجنة.. ويبدو أنها قد نالت حظاً من التعليم وثقافة العصر..

كانت الفتاة تحمل كأساً من الذهب الخالص ودناً من البلور الرائق مليء بسائل وردي.. وأدرك المتوكل أن السائل من أعتق خمور «قطربل»^(٧٧) وأغلاها ثمناً.. وكان الطبق الفضي الذي استقر عليه الكأس عليه يحمل رقعة فيها ثلاثة أبيات شعرية:

إذا خرج الإمام من الدوائِ وأعقب بالسلامة والشفاء
فليس له دواء غير شرب بهذا الجام من هذا الطلاء
وفض الخاتم المهدي إليه فهذا صالح بعد الدوائِ
وابتسم المتوكل وهو يرى توقيع رئيس وزرائه: الفتح بن خاقان^(٧٨).

ونفض المتوكل وقد فارت الدماء في عروقه وأخذ بيد الفتاة إلى جناح الحريم وتوارى معها وراء الستائر المخملية..

وجاء ابن الخليفة^(٧٩) لمقابلة أبيه قبل أن يذهب مع رفاقه الأتراك في رحلة للصيد..

واعتذر وصيف للأمير بأن الخليفة قد افتصد توأً وهو يرغب في الاستراحة..

وانطلق الأمير المدلل ابن «قبيحة» تلك المرأة الساحرة التي سيطرت تماماً على عقل الخليفة، وراحت تفكر بتوسيع نفوذها باستخدام ابنها في تحقيق المزيد من الثراء..

البراري خارج سامراء مد البصر، وانطلقت الخيول وكان أفراد الرحلة: الأمير المدلل ابن الخليفة، ويونس ابن القائد التركي بغا والفضل بن العباس ابن الخليفة المأمون.. أما الآخرون فموكب الأمير وحراسه..

كان الفضل يحاول وخلال الرحلة الممتعة استدراج الأمير الشاب الذي لم ينبت الشعر في وجهه بعد يستدرجه إلى دير «ماري» فهناك توجد لذائذ آتمة لا تتوفر إلا في الأديرة..

وعندما شعر الأمير بالظماً قال الفضل:

- يا أميرنا أعرف في ذلك الدير راهباً خفيف الروح.. وهناك آلات جميلة.. ماذا لو نغيل

إليه؟

قال الأمير المدلل:

- ولم لا هيا بنا..

وانطلقت الخيول الثلاثة تنهب المسافة إلى الدير الذي يتوسط غابة من الكروم..

رحب الراهب بضيفه خاصة الأمير الجميل وابن القائد التركي.. همس في أذن الفضل الذي عرف الشابين بأنهما من أبناء الجنود في سامراء.

قال الراهب:

- ماذا تقول؟! بل مفلتان من أزواج الحور.

ضحك المعتز فيما انصرف الراهب ليعود وهو يحمل بعض الشطائر..

همس المعتز في أذن الفضل:

- قل له بينك وبينه من تحب أن يكون معك من هذين؟

وعندما خلا به قال له:

- ما رأيك في هذين الغلامين؟

- ما رأيت أجمل منهما.

- فمن تحب منهما أن يكون معك.

قال الراهب بنخبث:

- كلاهما...

وعندما سمع الأمير ضحك حتى مال على حائط الدير.

قال الفضل للراهب:

- ولكن يجب أن تختار احدهما!

راح الراهب يدقق في النظر فيهما ثم قال:

- الاختيار في هذا دمار.

فجأة ارتفع سهيل الخيول خارج الدير.. ودخل الجنود الدير فارتاع الراهب.
قال الأمير:

- بحياتي استمر في حديثك..

وبعد ساعة من تبادل الأحاديث أمر الأمير بأن يُهدى للراهب خمسين ألف درهم.
هتف الراهب:

- لن أقبلها إلا بشرط.

- ماهو شرطك؟

أن يلبي الأمير دعوتي مع من أحب.

وابتهج الأمير المدلل قائلاً:

- سألبي دعوتك متى تشاء.

غادر الطبيب القصر المنيف عائداً إلى منزله مبتهجاً بما انجزه اليوم لقد أصبح طبيب
البلاط وسوف يجني من وراء ذلك ثراءً عريضاً..

وعندما انعطف في شارع درب الحصا، واجتاز قصر القائد التركي «بغا».. وقعت عيناه
على منظر بدا له عجيباً.

رأى فتى اسمر اللون يرتدي ثياباً سوداء كالتى يرتديها رجال الدولة.. وقد استوى
على صهوة حصان أدهم..

فغرفاه قال في نفسه:

- ثياب سوداء، ودابة سوداء ورجل اسود؟! سواد في سواد في سواد؟!

وصل الفارس العجيب، وتوقف ونظر الفتى الاسمر إليه نظرات حادة وقال:

- قلبك أسود مما ترى عيناك من سواد في سواد في سواد!!

فوجيء «يزداد».. من يكون هذا الفتى الذي يصغي إلى ما يموج في أعماق

الانسان؟!.. هل هناك من بني البشر من يعلم الغيب.. لقد سمع في طفولته الكثير من القصص عن المسيح.. كيف كان يخبر اليهود عما يدخرون في بيوتهم.. وهاهو الآن يقف وجهاً لوجه أمام فتى يقرأ صفحات من الغيب الذي لا يطلع عليه البشر!!

واجتازه الفارس في طريقه.. ونسى «يزداد» أن يبارك نفسه برسم علامة الصليب وانبعثت في اعماقه رغبة في أن يعرف المزيد عن هذا الفتى ودّ لو يلحقه فيسأله ولكن، الفارس كان قد توارى بعيداً.. سوف يسأل عنه سيما وأن رآه عندما خرج من منزله..

ولم تغب شمس ذلك اليوم حتى حصل يزداد على معلومات مثيرة: اسمه علي بن محمد.. أصله من الحجاز.. استقدمه المتوكل خوفاً من ثورة قد يقوم بها ويطيح بحكم العباسيين^(٨٠).

الفصل الثاني عشر

فوجيء درب الحصا حيث يقع منزل ابن الرضا علي بن محمد بمجموعة من الرجال الاتراك المسلحين وبعض الزوج الغلاظ يأخذون اماكنهم.. وقد أبلغ أهل المنزل بالحصار المفروض.. لايخرج ولا دخول!!

كثيرون تساءلوا عن سرّ هذا الاجراء.. ترى ما الذي حصل لكي يحاصر منزل هذا الفتى الحجازي؟!

في المسجد الجامع دارت أحاديث خاصة مع الذين قدموا من بغداد.. هناك أخبار حول القاء القبض على ثائر علوي يدعى يحيى بن عمر وهو من ذرية زيد الشهيد..

قال رجل يبدو عليه الوقار:

- أنا رأيته بنفسه مقيداً بالأغلال، ورأيت عمر بن فرج ينهال عليه بالمقرعة.. ضربه ثمانية عشرة ضربة وسيق إلى سجن المطبق^(٨١).

قال آخر بدهشة:

- أمره عجيب؟

- من تعني؟

- عمر بن فرج.. بالأمس كان يُضرب بعد أن صودرت أمواله وها هو الآن يضرب أبناء النبي ﷺ.

قال الشيخ الذي نقل الخبر:

- أنت لا تعرف يحيى انه رجل صالح في وجهه نور الأولياء..

عجيب أمر الناس هذه الأيام.. كل من يريد المال والثراء تزلف للسلطان بسبب أولاد الأنبياء..

وأراد الرجل أن يقول شيئاً:

- سمعت أن...

وقطع كلامه بعد أن رأى أحد أزلام الفتح بن خاقان فغير كلامه قائلاً:

- سمعت أن امير المؤمنين سيحتفل بالبيعة لأولاده بولاية العهد؟

- نعم سمعت.. وسمعت أيضاً أنه سيأتي إلى المسجد لإمامة الناس وارتفع أذان الظهر يدعو المؤمنين للصلاة فتشكّلت صفوف الصلاة..

كان موكب الخليفة يخترق الشارع الرئيسي المؤدي إلى المسجد.

وكان في الموكب رجل عباسي بدين نسي اسمه وبقي لقبه فهو معروف بـ «هريسة».. تنضح النذالة من عينيه قال للخليفة وقد وصل الموكب منزل علي بن محمد:

- انك تفعل أشياء عجيبة.. ما يعمل أحد بك أكثر مما تعمله بنفسك في علي بن محمد.

- ماذا تعني؟!

- لا يبقى من الخدم في القصر والآن وشارك في خدمته.. حتى الستائر ترتفع أمامه.. وتُفتح له الأبواب.. انه يعامل كأمر كبير!

قال المتوكل:

- وهل تظنني أمرتهم بذلك.. انهم يفعلون ذلك طواعية.

- الناس عندما يرون هذا الاستقبال يظنون ان الخليفة لم يفعل ذلك إلا لأنه يرى استحقاقه للخلافة.

- وماذا تريدني أفعل؟

- دعه إذا جاء القصر يشيل الستر لنفسه ويمشي كما يمشي غيره.. وبهذا سيشعر بالهوان!

قال المتوكل وهو يصوب نظرة حاقدة على المنزل:

- سأفعل ذلك.. لن يشيل الستر له أحد.

وأردف حانقاً:

- سأستدعيه بعد الظهر ونرى كيف يتصرف؟

انتبه الجميع إلى صوت سنابك الخيل تمرق من شارع الخليج.. قال الفتح بن خاقان دون مقدمة:

- انها خيول الأمير.. لقد عاد من رحلة الصيد..

وشعر الخليفة بالزهو.. انه يعلق آمالاً على ابنه الذي يشبهه تماماً..

وخرج طفل في الخامسة من عمره.. لفت نظر الحراس.. عيناه النجلاوان تضيئان بالصفاء.. القى نظرة حوالية ثم مشى باتجاه أطفال في مثل سنه كانوا يلعبون، توقف قريباً منهم وراح يراقبهم بصمت وحزن.. لا أحد يدري سرّ حزن هذا الطفل البريء.. عندما يغوص المرء في أعماق الحياة يشاهد حقائق كثيرة مستورة وراء مظاهر براءة خادعة..

هناك من يرى الزهور في الربيع فينتشي ببهجة الحياة.. ولكن ألا تحمل الزهور سرّ الذبول والاندثار؟!

ألا تنطوي حركة الشمس في الشروق على حقيقة الغروب؟.. كل شيء في هذا الوجود يتحرك باتجاه غائية ذات أهداف.. وعندما يعي الانسان حركة العالم تنكشف له أسرار كثيرة وحقائق مستورة.

من أجل هذا كان يحيى بن زكريا الذي أوتي الحكمة صبيا يحزن وهو يراقب أمه عندما تشعل الموقد.. انها تشعل أولاً صغار العيدان لأن الحطب لا يشتعل إلا بنارها!

قال حارس رأى دموع الحزن تموج في عيني الصبي الاسمر:

- لماذا لا تشارك أترابك في اللعب.

واستدرك الرجل بعد أن رأى انه لا يحمل لعبة:

- أتريد أن اشترى لك لعبة تلعب بها؟

قال الصبي وهو ينظر إلى الرجل:

- لا.

- لماذا؟!

- ما للعب خلقنا!

فوجيء الرجل بجواب لم يكن يتوقع سماعه أبداً فقال على الفور:

- فلماذا خلقنا إذن؟!

- للعلم والعبادة.

قال الرجل وقد ازدادت دهشته:

- من أين عرفت ذلك؟!

أجاب الصبي بخشوع:

- من قوله تعالى: (أفحسبتم انما خلقناكم عبثاً؟)

بهت الرجل وظل حائراً ينظر إلى هذا الصبي الغارق في الحزن قال بأسى:

- أنت ما تزال صغيراً بريئاً لا ذنب لك ما الذي حصل لكي تفكر هكذا؟!

قال الحسن الذي تشرب الحكمة صبياً:

- إليك عني، إني رأيت والدتي توقد النار بالخطب الكبار فلا تتقد إلا بالصغار.. إنني أخشى أن أكون من صغار حطب جهنم^(٨٢).

وأطرق الحارس الغليظ القلب.. كان يفكر في مصيره.. مشاهد من النار المجنونة تتراقص أمام عينيه.. ولم ينتبه إلى نفسه إلا بعد أن سمع كافور الخادم ينادي على الصبي الذي عاد أدراجه وتوارى خلف باب المنزل..

وفي الأصيل كان الازدحام على باب القصر شديداً أناس من مختلف الاجناس البشرية تتحشد عند البوابة الكبرى تترقب أذنًا في الدخول.. ومن خلال ما يرتديه القوم يكتشف المرء مستوياتهم المعاشية فهناك تجار كبار، وفقراء مدقون تفضح الثياب فقرهم.. وهناك شبان جاءوا من اصقاع بعيدة لرفع شكاوى ضد حكاهم ولعل ما يلفت الانتباه ذلك الوفد الاصفهاني الذي يتصدره شاب جسر عيناه تشعان بالشجاعة والشهامة.. في الباب حدثت ضوضاء وجلبة للحرس وسمع القرييون لغطاً بسبب تنفيذ أمر الخليفة الذي صدر قبل دقائق..

وخرج موظف رسمي يعتذر للمحتشدين عن تأجيل مواعيد اللقاء..

تساءل الشاب الاصفهاني واسمه عبدالرحمن:

- ما الذي حصل يا ترى؟!

وأجاب رجل له معرفة بما يجري في هذه المدينة:

- الخليفة أمر باحضار علي بن محمد ابن الرضا.

- ومن يكون هذا الرجل؟!

- رجل علوي تقول الرافضة بإمامته!

ردّ رجل آخر من أهل المدينة:

- اتوقع أن يغادر القصر جثة هامدة!

قال شيخ اصفهاني لعبدالرحمن:

- هيا بنا إلى الخان لا فائدة من الوقوف والانتظار!

قال عبدالرحمن باصرار:

- لا أبرح حتى أنظر إلى هذا الرجل.. أي رجل هو.

وفي الاثناء ظهر من مكان قريب شاب أسمر يمتطي جواداً أدهم وتطلع الناس إليه وقد انتظموا صفين.. كان علي ينظر إلى نقطة واحدة.. توقع عبدالرحمن أنها قرية من عرف الفرس.. الهدوء والطمأنينة يغمرانه.. لكأن ما يحدث في هذا العالم لا يعنيه.. لم يكثرث لكل هذه العيون التي تتطلع إليه ولا يبدو عليه أنه يواجه خطر القتل في قصر طاغية أرعن يسوس الأمور وفق هواجسه ومخاوفه.. مثل نبع بارد يتدفق ماءً زلالاً تدفق الحب في قلب عبدالرحمن - وشعر بالدهشة عن مصدر هذا الحب العجيب الذي ولد من أول نظرة.. هتف في اعماقه المتوجسة:

- يا رب ادفع عنه شرور المتوكل! احمه يا رب.

وعندما حاذى الفارس العجيب رفع رأسه والقى نظرة على عبدالرحمن وقال بمحبة:

- استجاب الله دعائك وطول عمرك وكثر مالك وولدك.

وغمرت عبدالرحمن حالة من القشعريرة افقدته توازنه، وشعر بان قدميه تخذلانه.. فاستند إلى أحد رفاقه الذي بادره:

- ماذا حصل لك يا عبدالرحمن!!؟

- أجاب مبهوراً:

- لا شيء.. لا شيء أبداً^(٨٣)!

ترجل علي بعد أن اجتاز البوابة، واتجه إلى المدرج حيث يقف حراس غلاظ عند باب القصر الداخلية..

كانت هناك عينان تتلصصان فلقد أمر الخليفة إلا يبادر أحد لخدمة ابن الرضا.. ليرفع الستائر بنفسه ويفتح الأبواب.

كانت الأبواب مشرعة لفسح الطريق أمام نسائم الأصيل المنعشة لتدخل أروقة القصر. عندما وصل الشاب الأسمر الستائر المخملية حدث شيء عجيب هبت نسمة قوية رفعت

الستائر، وولج الرجل العلوي البهو..

كانت العينان المتلصصتان تراقبان بدهشة ما يجري.

جرى اللقاء وغادر علي البلاط باتجاه الستائر التي ما إن وصل إليها حتى ارتفعت واجتاز الامام يغمره نسيم الاصيل العليل.. كانت العينان المتلصصتان تسجلان تفاصيل دخول الرجل العلوي وخروجه..

ووصلت رقعة إلى الخليفة فيها:

- «ان علي بن محمد دخل الدار فلم يُخدم ولم يَشِلْ أحد بين يديه سترأ هب هواء رفع الستر له فدخل... وإن هواءً خالف ذلك الهواء شال الستر له حتى خرج».

قال المتوكل بحقد:

- «ليس نريد هواءً يشيل الستر.. شيلوا الستر بين يديه»^(٨٤).

وابلغ الخدم والحرس في القصر بأمر الخليفة الذي الغى فيه أوامر سابقة.

الشاب العلوي يغادر القصر عائداً أدراجه إلى منزله، وقد الغيت اجراءات الحصار ولكن الخليفة لم ينس أن يوعز بتكثيف المراقبة على منزله والتجسس على لقاءاته حتى في الطريق..

الجواسيس يطاردون عن بعد خطوات الأمام، والامام يجتاز الشارع المؤدي إلى درب الحصا وقد بدت من بعيد المنارة الملوّنة كفنار يهدي السفن التائهة إلى شاطئ الأمان..

اتجه الإمام نحو المسجد الجامع، وعندما أراد أن يعبر الشارع انبرى إليه رجل أبرص يلتمس البركة وقد جلس ينتظر في قارعة الطريق.. أشار الامام بيده قائلاً:

- تنح عافاك الله..

لكن الرجل لم يتوقف.. ولم ينتبه أيضاً للعيون التي تبرق بالنذالة وهي تراقب تصرفات الأمام الذي هتف مرة أخرى:

- تنح عافاك الله.. تنح عافاك الله.

توقف الرجل الأبرص ولم يجسر على الأقتراب وتقهقر إلى الوراء كثيراً وراح ينظر إلى الفتى المبارك نظرة من يفقد أمله الأخير وانتبه إلى صوت جاره يخاطبه:

.. هل كلمته؟

.. لا لكنه أشار بيده قائلاً: تنح عافاك الله قال جاره:

.. قد دعا لك قبل أن تسأله.. انك ستعافى^(٨٥).. انه رجل مبارك.. ومضى الرجل الابرص وقد غمره الأمل بالشفاء.

الفصل الثالث عشر

وصلت أخبار عن اشتعال ثورة مسيحية في مدينة حمص السورية وقد تم قمع الثورة بوحشية^(٨٦).

واتخذ المتوكل اجراءات قاسية في معاملة الرعايا المسيحيين في انحاء الدولة الإسلامية.

ومن حمص وصل ايضاً نبأ عن وفاة الشاعر الشيعي عبدالسلام بن رغبان الذي عرف بـ «ديك الجن»^(٨٧).

وفيما كان البلاط يستعد للاحتفال بعقد ولاية العهد للابناء الثلاثة وصلت أخبار من مدينة بغداد تفيد بتدهور صحة حاكم المدينة الذي أرسى دعائم الحكم فيها بالحديد والنار.. ان اسحاق بن ابراهيم يحتضر وهو يعيش ساعاته الأخيرة.. تظاهر ابنه محمد الذي يعمل موظفاً في البلاط بالحزن أما قلبه فيكاد يرقص فرحاً سوف تسقط مدينة السلام.. في يده مثل تفاحة ناضجة شهية.. آه بغداد مدينة الاساطير مدينة الجواري الحسان واللذائذ، وقطع سلسلة احلامه صوت جلبة في البلاط أن الأمير الزبير^(٨٨) الذي سيغادر مع وفد من القادة الأتراك سامراء إلى بغداد لعيادة حاكمها..

انضم محمد بن اسحاق إلى أعضاء الوفد وقد كسى وجهه ملامح كاذبة من حزن مفتعل..

تركت زيارة الوفد لقصر الحاكم انطباعاً كاملاً بأن الرجل الذي حكم بغداد عشرين

سنة ستراخي قبضته وسيصبح في عداد الاموات.. الليلة أو غداً في الصباح.

ولذا قفل راجعاً بعد أن زار القاضي المغضوب عليه يحيى بن اكثم، وقد كانت الزيارة من أجل الافادة من خدماته فهناك نوايا لطرد رئيس سلطة القضاء ابن ابي دؤاد بشكل رسمي بعد أن عزل عملياً من ممارسة نشاطه.

صادفت زيارة الوفد ظاهرة طبيعية أثارت فزع البغداديين فقد فوجيء السكان بلون مياه دجلة يستحيل إلى الاصفرار واستمر ذلك الوضع ثلاثة أيام ثم انقلب فجأة إلى ما يشبه لون ماء المدود^(٨٩).

وغادر الوفد بغداد التي كانت مضطربة بسبب الشائعات حول حاكم المدينة وقائد الشرطة.. وما اثارته مياه دجلة العجيبة من هواجس.. وأخبار عن هدم دور العلويين^(٩٠)، وما يتعرض له يحيى بن عمر من تعذيب داخل السجن..

في سامراء بدأت الاستعدادات لعقد ولاية العهد، وانصرف «الصولي» كاتب البلاط إلى صياغة عهد الولاية لكل من محمد ولقب بـ «المنتصر» والزبير ولقب بـ «المعتز» وابراهيم وقد لقب بـ «المؤيد» وقد قسمت الدولة الإسلامية إلى ثلاثة مناطق للإدارة والحكم؛ وما لبث بريد بغداد أن وصل لينبئ عن وفاة حاكم بغداد العام، فتأجلت الاحتفالات يومين تم خلالها تنصيب خلفه محمد حاكماً عاماً لبغداد^(٩١).

وفي ليلة الاحتفال ارتدت زوجة الخليفة اليونانية الاصل^(٩٢) بدلة حريرية فاتقة الجمال فبدت وكأنها «افروديت» ربة الحسن خرجت من البحر^(٩٣).

حاولت المستحيل أن تجعل ابنها المدلل الولي الأول للعهد بجميع رغباته الشاذة.. ولكن الحمرة كانت قد اطاحت بآخر ذرة من وعيه ولم يعد يفهم ما تهذي به «افروديت» الساحرة..

اتصلت برئيس الوزراء الفتح بن خاقان حاولت إقناعه بكل وسيلة ولكن كيف يمكن تجاوز تقاليد الخلافة العباسية العريقة؟ كيف يمكن تجاوز الابن الاكبر.. ان محمد يكبر الزبير بأكثر من خمسة أعوام وقد اثبت رجاحة في العقل^(٩٤).. ومع ذلك فعلها الآ تفقد الأمل.. ربّما يحدث شيء من يدري.. ربّما يصبح المعتز هو الأول^(٩٥).

بدأت الاحتفالات بعد صلاة الغروب، وكان القصر قد استحال إلى صدفة تتدفق بضياء مئات القناديل.. بدأت مراسم عقد الولاية بجلوس الخليفة على سرير ذهبي مرصع بالجواهر الثمينة.. ثم حضر ولادة العهود المنتصر، المعتر والمؤيد وهم يرتدون بدلات سوداء اللون شعار الدولة الرسمي، وقد تألقت فوق رؤوسهم تيجان الذهب، فاتخذوا أماكنهم وقوفاً قرب السرير الملكي..

كان البلاط يغص بالحاضرين من قادة الجيش والوزراء وكتاب الديوان..

نهض ابراهيم الصولي ليقف قريباً من السرير المهيب ليقراً عهد الولاية.. توزيع المملكة على ولادة العهود فكان نصيب المنتصر إفريقيًا، والمغرب، وللمعتر اقليم خراسان الثري وأذربيجان وأرمينية، وللمؤيد الشام والأردن وفلسطين..

وارتجل الكاتب البليغ شعراً في المناسبة:

اضحت عرى الإسلام وهي منوطة	بالنصر والاعزاز والتأييد
بخليفة من هاشم وثلاثة كنضوا	الخلافه من ولاء عهود
قمر تواليت حوله اقماره	يكننن مطلع سعه بسعود
كنضتم الآباء واكتنفت بهم	فسعوا بأكرم انفس وجدود

بعدها نهض المتوكل لتسليم ابنائه ألوية العهد والعمل في مناطق الحكم، فسلم المنتصر لواءين أسود وابيض، فالأسود هو لواء العهد والابيض هو لواء العمل في المناطق الخاضعة لحكمه^(٩٦)!

وتلا ذلك قيام المعتر بإعلان محمد بن اسحاق حاكماً على بغداد خلفاً لوالده الذي توفي قبل يومين، كما قلده سيفاً ثميناً^(٩٧).

بعدها بدأ توزيع الجوائز على رجال الدولة، وراح الخليفة بعد أن تبددت مسحة الحفل الرسمية يشرب أنخاب الاحتفال البهيج ويملاً كؤوس الخمرة لضيوفه..

كان خاقان واقفاً في زاوية من زوايا البلاط ولم يكن يشارك في شرب الانخاب.. كان يتورع فيما يبدو من شرب الخمرة واكتفى بإظهار الابتهاج بما يجري..

وعندما رمقه المتوكل.. ملأ له كأساً وأمر رئيس وزرائه الفتح بن خاقان أن يقدمها إلى ولده..

قال المتوكل: قل له لا يردّ هذا الشرف.. خليفة يملأ له الكأس ويخدمه وزير!

ابتسم خاقان متملقاً ورفع الكأس قائلاً:

- لم أكن اشربها من قبل.. أنني أشرب من أجل أمير المؤمنين.

وابتسم المتوكل انه لا يودّ رؤية انسان شريف..

يجب أن يتملق له الجميع.. يجب أن يشربوا من دنان خمرته ويأكلوا من فتات موائده..
ويصفقوا له دائماً.

ما يلفت النظر في الاحتفال حضور يحيى بن اكثم من بغداد، وقد انتشرت شائعات عن احتمال تولية السلطة القضائية.. والذي أكد هذه الأخبار غياب أحمد بن أبي دؤاد عن حضور حفلة تتويج ابناء الخليفة كولاة للعهد، ولم يغير من الوضع حضور «محمد بن أحمد» رئيس محكمة الاستئناف من قناعة الجميع باحتمال تولي ابن اكثم سلطة القضاء..

لم يحضر أيضاً «علي بن محمد» والاسباب معروفة أنه لا يحرص على حضور حفلات القصر بشكل عام ولن يحضرها بسبب ما ترتكب فيها من انتهاكات للاخلاق والشرعية..

وفيما كانت أصوات الغناء وضحكات المخشين تصدح في فضاء القصر المضيء.. كان هناك شاعر يقطن في بيت تملكه الدولة ويدفع بدل ذلك ايجار، وقد أغلق على نفسه الدار لأنه لا يملك بدل الايجار فراح يشدو بألم:

يا رب لا فرج مما أكابده بسر من رأى على عسري واقتاري
لا راحة قبل وقت الموت تدركني فيستريح فؤاد غير جبّار^(٩٨)

الفقراء يتنون من الجوع والاحرار يعيشون مشردين مغضوب عليهم لأنهم لا يركعون للطغاة.

الفصل الرابع عشر

لم يكن المتوكل ليهتم بشيء اهتمامه بالاخبار؛ اخبار ما يجري في القصور وهي أخبار عليّة القوم والأخبار العامة في المدن والحواسر.. ولذا كان جهاز الاستخبارات من أنشط أجهزة الدولة فأَيّ تحرك صغير أو كبير يجد صداه في قصر الخليفة؛ الذي كان يتابع شخصياً قراءة تقارير رجال استخباراته خاصة التقارير القادمة من بغداد..

ثم يأتي اهتمامه الثاني بحفلات المجون التي يخطط لها الطاغية شخصياً وينتخب حتى المطربات..

في ذلك اليوم البارد من شباط سنة ٢٣٦هـ ٨٥١م ورد تقرير من استخبارات مصر يفيد: ان الوالي يزيد بن عبدالله ضرب جندياً لمخالفته.. فاقسم الجندي عليه بالحسن والحسين أن يعفو عنه فزاده الوالي ثلاثين جلدة..

أمر المتوكل الذي كان يستمع إلى التقرير أن تضاف إلى عقوبة الجندي مئة سوط أخرى وأن يرسل إلى سامراء مخفوراً^(٩٩).

تملأ الخليفة في جلسته ونظر إلى رئيس وزرائه ومسؤول الاستخبارات العامة^(١٠٠)، ادرك الفتح بن خاقان أن الخليفة يتوق إلى الحديث عن حفلته المسائية.. فأطبق السجل وقال للخليفة المسترخي فوق السرير الملكي:

- والآن يا سيدي حان وقت المرح.

قال المتوكل:

- لقد اشتقت إلى الغناء.. تركنا زنام الزامر^(١٠١) بلا غناء.

واستطرد:

- ارسل إلى بغداد من يخبر «عنان» أن ترسل لنا مغنية حسناء الوجه والنغم..

قال الفتح:

- حسناً يا سيدي.. وهل نتظر ريثما تصل؟

- كلاً سوف يسلينا عبادة في حركاته.. وأبو العنبر في حكاياته.

القي المساء بكلاكله فوق سامراء، وقد اقفرت المدينة من العابرين ولم يعد أحد يسمح سوى ولولة رياح شباط وهي تجوس خلال الشوارع والأزقة.. وقد يسمع في بعض الاحيان سنابك خيول الدوريات تدك شوارع المدينة المبلطة بالحصى والصخور الكلسية.

قال الخليفة مخاطباً أبا العنبر بعد أن عبّ أول كأس من خمرة معتقة:

- ايش حكاية حمارك ووفاته حدثني!

تحفز أبو العنبر وقد برقت عيناه:

- نعم يا أمير المؤمنين.. كان حماري اعقل من القاضي..

واستطرد في حكايته مع قهقهة المتوكل:

- ولم تكن زلة فاعتل فجأة ومات.. فرأيت في المنام فقلت له: يا حماري العزيز كنت اسقيك الماء البارد واطعمك الشعير الجيد فلم مت على غفلة وما الذي جرى عليك؟
- فماذا قال الحمار؟

- قال لي: اتذكر يوم ذهبت إلى فلان الصيدلاني تكلمه في كذا وكذا؟ فقد مرت بي «حمارة» حسناء (المتوكل يضحك بخلاعة) فعشقتها من أول نظرة واشتد بي الهيام فمت كمدأ متأسفاً..

قلت له: يا حماري العاشق فهل قلت في ذلك شعراً؟

قال لي: نعم وانشدني:

هـام قلبـي بأثـان ^(١٠٢)	عند باب الصيدلاني
تيمـتني يوم رحـنا	بثناياها الحسنان
وبخـد ذي دلال	مثل خد الشيفران
فبها مت ولو عشت	إذا طـال هـواني

قلت له: يا حماري الشاعر فما الشيفران؟ قال: هذا من غريب الحمير.

وانتشى المتوكل طرباً وأمر شلته أن يغنوا جميعاً بشعر الحمار.. ورمى إلى أبي العنبر صراراً مليئة بمسكوكات ذهبية^(١٠٣).

وفي الأثناء وقد مرّ شطر من الليل وصلت المغنية الحسنة التي بدا عليها تعب السفر خاطبها المتوكل بقسوة:

- أين كنتم كل هذا الوقت؟!

قالت الحسنة:

- ان مولاتي قد خرجت إلى الحج واخرجتنا معها.

- الحج؟! وهل الحج في شعبان؟

قالت الجارية:

- كان حننا إلى قبر الحسين^(١٠٤).

طوح المتوكل بكأسه البلوري الذي تهشم فوق سجادة أذربيجانية نفيسه وصرخ بعد أن قفز من فوق سريره:

- الحسين!.. الحسين! لقد اندثر الحسين منذ قرن ونصف.. ومن يكون الحسين؟!

خيم صمت مخيف.. واستحال المهرجون إلى فئران مذعورة.. المتوكل يتحول إلى وحش يصعب التكهن بما سيفعله.. فكر عبادة المخنث أن يقوم بحركة تعيد إلى السهرة مرحها السابق شدّ مخدّته تحت ثوبه النسائي.. ونزع عمامته الملفوفة بطريقة مضحكة.. وراح يتمرّص وسط الصمت المطبق هائفاً:

- قد أقبل الأصلع البطين.. خليفة المسلمين.

وانطلق المهرجون جميعاً يصدحون بالغناء بهذا الشعر المنحط.. انطلقت اسارير المتوكل الذي صبّ لنفسه كأساً أخرى وراح يعبّها نشواناً..

المخنث يرقص ويغني ويمسح على بطنه فجأة توقف الغناء..

لقد وصل الأمير المنتصر الذي أوماً إلى المخنث أن يلتزم الأدب..

دهش المتوكل لما حصل والتفت إلى المخنث:

- ما حالك؟ لماذا كفت عن الغناء؟

اقترب من الخليفة السكران وهمس في أذنه عن تهديدات المنتصر..

التفت المتوكل إلى ابنه الذي اختط شاربه واطلق ضحكة ماجنة ولكنه طوح بكأس الخمرة وصرخ:

- ما الذي يجري هنا؟

قال المنتصر بأدب:

- يا أمير المؤمنين ان الذي يحكيه هذا الكلب، ويضحك منه هؤلاء هو ابن عمك علي.. شيخ أهل بيتك وبه فخر، إذا أردت أن تأكل لحم ابن عمك فكله وحدك ولا تطعم هذا الكلب وأمثاله منه..

أطلق المتوكل ضحكة هستيرية وصفق بيديه منشداً ببذاءة:

غار الفتي لابن عمه رأس الفتي في حر أمه
وخاطب المهرجين:

- هيا غنوا جميعاً بهذا الشعر^(١٠٥).

واستحال البلاط إلى بؤرة تمارس فيها كل ألوان الآثام والخطايا.

في اليوم التالي صدرت قرارات خطيرة فقد اقبل الوزير محمد بن الفضل بسبب ميوله الشيعية وتم تعيين عبيد الله بن يحيى بن خاقان بدلاً منه لما عرف عن حقه على العلويين^(١٠٦).

كما اصدر أمراً باعتقال المرأة البغدادية ومصادرة جميع ممتلكاتها^(١٠٧) وانطوت أيام شعبان ثم تلاه رمضان..

في عيد الفطر اصدر المتوكل ومن أجل تحسين سمعته لدى الرأي العام أمراً بانزال جثمان احمد بن نصر الخزاعي من الصليب وتسليمه إلى ذويه، وقد حضر ابن اخيه موسى إلى سامراء لاستلام الجثمان الذي نقل في مركب شراعي إلى بغداد فوراً، وقد أحدث

وصول الجثمان المقطوع الرأس إلى بغداد ضجة وتجمهر الآلاف من عامة الشعب للتبرك به، ووصلت تقارير سريعة إلى سامراء حول ما يجري في بغداد فصدرت أوامر مشددة بارهاب الناس ومنع التجمعات^(١٠٨).

وفي نفس الشهر وصلت أخبار عن حدوث تمرد مسيحي خطير في أرمينيا فكلف القائد التركي بغا الذي عرف بالشرابي^(١٠٩) بمعالجة الموقف، فاجتمع بدوره مع «أبي سعيد» أحد القادة العسكريين فخرج من قصر «بغا» مخموراً ومحملاً بالهدايا متجهاً إلى الكرخ^(١١٠)، وشاء القدر أن يسير موكبه في درب الحصا متجهاً صوب الجسر الوحيد الذي يربط بين ضفتي دجلة..

كانت نسائم آذار المنعشة تهب من ناحية النهر مشبعة برائحة المياه الندية وقد تلالأت النجوم في سماء كحلية صافية، وكان علي ابن الرضا جالساً على دكة عند عتبة الدار وقد جلس إليه ثلاثة من جيرانه يستمعون إلى حديثه.. واقترب موكب القائد «أبو سعيد محمد» تتقدمه الفوانيس المضيئة ونهض الجالسون لتحية القائد الذي بدا عليه الفرح بما حصل عليه سوف يكون حاكماً على أرمينيا بعد اعادتها إلى بيت الطاعة والقضاء على التمرد فيها..

وعندما اجتاز الموكب المنزل غمغم الأمام وهو يشيع القائد العسكري:

- انه فرح بما هو فيه وغداً يموت قبل الصلاة.

تبادل الرجال نظرات فيها دهشة.. وعندما انصرفوا قال أحدهم:

- سمعت ما قاله هذا الرجل المدني؟!

- هذا علم بالغيب!

- لعله قصد أنه سيموت في النهاية.. فنهاية كل انسان هي الموت.

- ماذا تقول؟! انه يعني الليلة سيموت القائد.

- ولماذا لا نتحقق من الأمر، فاذا ظهر كذبه نغتاله ونستريح منه.

وعاد الرجال الثلاثة إلى منازلهم ينتظرون مطلع الفجر وفي غبش الفجر سمعت ضجة وكانت دوريات من الفرسان في طريقها إلى قصر الخلافة..

وفي المسجد الجامع سمع الجميع الخبر.. لقد توفي القائد العسكري أبو سعيد فجأة.. وتضاربت الاخبار في كيفية الوفاة ولكن من المؤكد أنه أصيب بما يشبه السكتة القلبية^(١١١).

الفصل الخامس عشر

في ذو القعدة من سنة ٢٣٦هـ تقرر أن تقوم أم المتوكل وهي جارية تركية اسمها «شجاع» برحلة إلى الحجاز لأداء فريضة الحج مصطحبة حفيدها «محمد المنتصر» الذي بلغ سن الرجال، وظهرت عليه سيماء الرزاة والعقل.. كما تقرر أيضاً أن يقوم الخليفة بتشجيع والدته وورثه على العرش حتى منطقة النجف حيث تنهض في تلك البقعة الجرداء من ضواحي الكوفة قبة بيضاء يرقد في ظلها بطل الإسلام الخالد علي بن أبي طالب..

وتحرك موكب والدته الخليفة وحفيده الذي عين أخيراً على موسم الحج لهذا العام^(١١٢).

وعلى مقربة من القبة البيضاء الناصعة وفيما كانت نسائم نيسان تهب منعشة جرى وداع عادي بين الأب وابنه والأبن ووالدته.. وعندما غابت قافلة «شجاع» التي يحفها حرس خاص القى المتوكل نظرة على القبة البيضاء أودعها كل احقادها وعقده النفسية..

ورأى طريقاً يتفرع من طريق القوافل فسأل عنه أجابه أحد مرافقيه بأنه طريق يتجه إلى كربلاء.. من بعيد لاحت قافلة تتجه نحوها، ورجالاً يترجلون عن دوابهم مفضلين السير مشياً على الأقدام فتساءل عن سر ذلك ف قيل له.. ان العشق يبلغ بعضهم بحيث ينطلق لزيارة مرقد الحسين مشياً على الاقدام!!

كاد المتوكل يتفجر غيظاً وحقدًا لما يرى ويسمع.. قفز على صهوة جواده والهبة بالسياط عائداً أدراجه إلى سامراء فتبعه جنوده وبطانته..

من يرى عيني المتوكل في تلك اللحظات سيكتشف جحيماً مدمراً يموج بالهقد والجريمة وسيحدث وحشية الإجراءات القادمة..

لم يكد يضع قدمه في سامراء حتى أوعز إلى وزيره الجديد عبيد الله بن يحيى أن يرسل إلى حاكم بغداد تعليمات مشددة بمنع زيارة مرقد الحسين في كربلاء.

كان البريد السريع ينقل بواسطة الحمام الزاجل ولذا هبط في قصر محمد بن إسحاق

حاكم بغداد طائر يحمل أوامر خطيرة وعلى الفور اتخذت اجراءات لتنفيذ أمر الخليفة، وانطلقت مفارز مسلحة باتجاه كربلاء حيث اتخذت مواقعها حول المرقد..

وقرأ قائد الشرطة بياناً جاء فيه:

- ان الدولة تمنع واعتباراً من بعد غد زيارة الحسين بن علي وانه «من وجدناه عند قبره بعد ثلاثة فسيكون مصيره السجن في المطبق»^(١١٣).

أمر عجيب كل شيء يمضي عكس ما يريده المتوكل! قوافل الزوّار تتدفق نحو كربلاء.. الدموع تموج في العيون.. والقلوب يعتصرها الألم..

- يا حسين يا مظلوم.. يا ريحانة محمد وسبط الرسول.. يا بن فاطمة الزهراء..

يزيد يولد مرة أخرى.. يزيد الجديد يريد ذبح الحسين من جديد!

انتهت أيام الانذار الثلاثة.. وانفجر الوضع بحدوث اشتباكات عنيفة بين الوافدين للزيارة وقوات الشرطة ولم تنفع التعزيزات العسكرية القادمة من الكوفة في ثني الناس عن التهافت.. وبلغت المأساة ذروتها في سقوط القتلى والجرحى بعد أن حدث اشتباك عنيف استخدم فيه الجيش اسلحته.. وصلت سامراء تقارير تعكس خطورة الأوضاع.. من أجل هذا صدرت أوامر شخصية من المتوكل تطلب من جميع القوات المرابطة في كربلاء بالانسحاب والإعلان أنها جاءت في مهمة للصالح العام^(١١٤).

وفي بغداد حدث لغط بسبب الاجراءات التعسفية واقدام المتوكل على منع زيارة الأولياء والشهداء والصديقين.. وهل هناك ما هو أقدس من ريحانة النبي الحسين ابن فاطمة الزهراء؟! وبدت الاوضاع مشحونة بالخطر خاصة في الكوفة وبدأ الجواسيس نشاطاً مسعوراً في نقل التقارير التي يشم فيها رائحة المعارضة للحكم..

وفي بغداد دوهم منزل المحدث نصر بن علي الجهمي بسبب نقله حديث عن أهل البيت جاء فيه بعد اسناد متصل: «ان رسول الله أخذ بيد الحسن والحسين وقال: «من احبني وأحب هذين، وأباهما وأمهما كان معي في درجتي يوم القيامة».

وفُسر الحديث بأنه مناهض لسياسة المتوكل.. فصدرت أوامر من سامراء بضربه ألف

سوط.. وبدأ بعضهم بالتوسط لدى الخليفة مركزاً على نقطة مهمة أن المحدث ليس شيعياً وعندها استؤنف الحكم مرة أخرى لتصبح العقوبة النهائية خمسمئة سوط فقط^(١١٥)!

وفي بغداد أيضاً وقعت حوادث غامضة فقد توفي «الحسن بن سهل» أخو الوزير المشهور «الفضل بن سهل» وجاء في التقارير أنه تناول شربة من دواء توفي أثرها على الفور وذلك في صباح يوم الخميس المصادف ٥ ذو الحجة وفي يوم الجمعة توفي حاكم بغداد محمد بن اسحاق^(١١٦)!

فاسندت قيادة شرطة بغداد إلى محمد بن عبدالله بن طاهر الذي أصبح حاكماً على بغداد والكوفة إضافة إلى اقليم خراسان بسبب ولائه المطلق للمتوكل وعدائه للعلويين.

وبلغت اجراءات منع الزيارة ذروتها مع مطلع محرم الحرام حيث تزداد وتيرة الزيارة لتبلغ أوجها يوم عاشوراء.. امتلأت زنانات سجن المطبق الرهيب بالابرياء من الذين اعتقلوا بسبب زيارة الحسين..

في سامراء كان الحزن يغمر منزل علي الهادي بسبب ما يجري من انتهاكات واجراءات ظالمة فبينما يعيش المنحرفون والساقطون في رغد من العيش يحيا الاحرار حياة لا تطاق.. جوع، تشرد وحرمان.. خاصة ابناء علي انهم لا يستطيعون الزواج.. ان الحكم الأموي لم يبلغ هذه الدرجة من الانحطاط ما بلغها في عهد المتوكل!!

فبينما يتلوى نصر بن علي الجهمي تحت السياط بسبب نقله حديث عن أهل البيت عليه السلام إذا يحيى بن اكثم الذي ملأت بغداد حكايات شذوذه الجنسي يستدعى إلى سامراء لتسلم سلطة القضاء ورئاسة محكمة الاستئناف^(١١٧).

الوقت الآن قبل منتصف الليل في تموز سنة ٨٥١م ٦ محرم الحرام سنة ٢٣٧هـ الخليفة مع شلته التي يجتمع بها كل ليلة.. وقد انضم إليها مؤخراً الوزير عبدالله بن يحيى، والقاضي ابن اكثم ولم يعد المرء يفرق بين اجتماعات البلاط وحفلات المجون فكل الذين يشاركون في الأولى يحضرون في الثانية، وكل ما ينطق به الطاغية أمر نافذ لا تراجع عنه ولا نقاش فيه.. لقد بدأ عصر الإرهاب والحكم المطلق والطغيان حيث تصبح لمنافع الحاكم ورغباته الأولوية أما الدولة والبلاد والشعب فإلى الجحيم..

ماذا ينقص المتوكل؟! حرس قوي مجهز بالسلاح؛ ووزراء متملقون وحاشية فاسدة.. وجيش لا يعرف غير تنفيذ الأوامر واستلام المرتبات الشهرية..

في سامراء استيقظت في النفوس حمى الثراء وجمع المال.. الذهب، الجواهر.. لكأن نفس الحاكم الدينية توقظ الغرائز المنحطة والميول الفاسدة والاطماع.. في قصر زوجة الخليفة هناك عمال مستوردون لتنفيذ عمليات حفر غامضة تحت القصر سرايب ممرات رهيبة تحت الأرض وانفاق سرية^(١١٨).

وبدأ زمن الصعود على جثث الابرياء.. من العلويين والمتعاطفين مع أهل البيت عليه السلام وفرض الحصار على منزل علي بن محمد الهادي فلم يعد يخرج إلى المدينة ولا يزوره أحد..

وفيما كان الحرس التركي يتخذ مواقعه كان المتوكل قد بدأ سهرته الليلية الماجنة لتتطلق الضحكات الخليعة وتمارس ألوان الآثام والخطايا.. حيث يسقط الانسان في هاوية الرذيلة.

الفصل السادس عشر

من عادة الطاغية إذا اراد القيام بعمل خطير أن يتأكد أولاً من ولاء حرسه الخاص.. أنه قوي مرهوب اذ كان له حرس شديد لا يعرف غير تنفيذ الأوامر.. ومن عاداته أيضاً أنه في عشية ارتكابه الجريمة ما يستغرق بممارسة لذائذه وشهواته فيكثر عبثه ومرحه..

وفي تلك الليلة من شهر تموز ٨٥١م محرم الحرام سنة ٢٣٧هـ صدرت الأوامر للقوات المرابطة في الكوفة بالزحف إلى كربلاء واحتلالها وهدم قبر الحسين عليه السلام..

وفيما كانت القوات المدججة بالسلاح وأدوات التدمير توقف الصحراء على امتداد المسافات بين الكوفة وكربلاء.. كان المتوكل يحتفل بليلة ساهرة..

ودارت كؤوس الخمر، وكانت فتاة حسناء ترتدي ثياباً حريرية شفافة تحمل برشاقة كؤوس الخمرة المعتقة فيما كان صوت طروب يتدفق نشوة وسحراً.. ان «محبوبة» تسحر بصوتها الرخيم السكارى وتزيدهم سكرأ إلى سكر.

ودخل الوزير عبيدالله بن يحيى وعيناه تبرقان بالظفر كان يحمل سيفاً مهنداً.. تقدم باتجاه الخليفة وانحنى أمامه بملق وتخضع وسلمه السيف قائلاً:

- هذا السيف الذي كنت تطلبه.. لقد وصل سامراء في المساء أمسك الخليفة بالسيف.. وسلمه من الغمد.. وتمتم منتشياً:

- سيف عجيب!!

السيف يبرق بسبب أضواء القناديل.. وادرك بعضهم أن المتوكل ينتظر كلمات الثناء.. قال البحتري:

- انه يشبه الهلال ذا ثلاث ليال.

وقال آخر:

- بل انه يشبه بابتسامته حسناء ذات دلال.

وقال الوزير:

- ان له من الجمال ما دام في يد الخليفة أو في يد الأعوان والرجال.

أعاد المتوكل السيف إلى غمده واشتعلت في رأسه فكرة انتخاب حارس خاص يرافقه دوماً.. من أجل هذا همس في أذن رئيس وزرائه قائلاً:

- اطلب لي غلاماً تثق بنجدته وشجاعته.. أدفع له هذا السيف ليكون واقفاً على رأسي لا يفارقني في كل يوم ما دمت جالساً^(١١٩).

وبرقت في ذهن ابن خاقان صورة الغلام التركي «باغر» فقال على الفور:

- يا سيدي «باغر».. باغر التركي ليس هناك من هو في مثل شجاعته وبأسه!

- علي به!

- الآن؟!

- نعم حالاً.

وما أسرع أن دخل «باغر» بطوله الفارع لكأنه العملاق الذي تصوّره حكايات ألف ليلة وليلة.. صعد المتوكل بصره في الفتى المفتول العضلات.. عينان صغيرتان ثاقبتان وقسوة في ملامح الوجه وجبين ضيق، وحاجبان مخيفان كخنجرين يتحفران لتنفيذ جريمة ما.. سلّم المتوكل السيف شخصياً للغلام التركي الذي منح على الفور رتبة قائد عسكري، وسيتقاضى مرتباً مغرياً.. ان مهمته الوحيدة أن يقف حارساً للخليفة.. أنه الوحيد الذي يحق له مرافقة الخليفة في أي مكان من القصر حتى جناح الحريم يستطيع أن يقف بازاء الستائر المخملية حيث يتوارى الخليفة غارقاً في لذائذ الجنسية التي لا تكاد تنتهي^(١٢٠).

كان من المقرر أن يقوم الخليفة بتدشين يخته الملكي في الصباح ولكن الخليفة الذي اسرف كثيراً في شرب الخمر لم يستيقظ إلا في الظهر، وقد ظهرت علائم القلق على وجه رئيس وزرائه والمسؤول عن نقل الأخبار.. فهناك ما يستدعي اطلاع المتوكل عليه بعد أن وصلت اخبار خطيرة من كربلاء!!

وفي أصيل ذلك اليوم كان اليخت الملكي يرسو على ضفاف القاطول^(١٢١) لم يشأ الفتح اطلاع سيده على الاخبار إلا بعد أن ابتعد اليخت عن المرسى ليلج مياه دجلة التي راحت تحمل اليخت باتجاه الجنوب الشرقي.. وبدت مناظر المدينة وهي تعاكس مجرى التيار كشريط ملوّن، وكانت المنارة ابهى ما يكون في ذلك الاصيل.. وبدت قصور المتوكل حيث ظهر البرج^(١٢٢) شامخاً كعملاق..

التفت المتوكل إلى رئيس الاستخبارات مستفسراً عن آخر الاخبار قال ابن خاقان:

- لقد نفذ الجيش مهمته واحتل المنطقة المحيطة بقبر الحسين وتم هدم البيوت التي بنيت حوله.. خربوا ما يقارب من مئة جريب من الأراضي.. ولكن..

- ولكن ماذا؟

- تهيبوا تخريب القبر.. قبر الحسين.. ولم يجدوا عاملاً واحداً ينفذ لهم ذلك..

- انهم يتمردون على أوامري؟!

- يا سيدي ان الناس يتبركون بزيارته فهو الحسين ابن فاطمة؟!

وسمع البعض خليفة المسلمين يسب فاطمة الزهراء^(١٢٣)! حتى الشاعر البحري استاء من ذلك واقشعر جسمه ولكنه انصرف إلى ترديد أبيات يتغنى بها في حضرة الخليفة تهنئه له بقصره العجيب الذي بناه فوق سفينة^(١٢٤).

قال الفتح:

- يا سيدي حتى النصارى امتنعوا عن هدم القبر!

برقت عينا المتوكل بالحقد وصرخ.

- اليهود.. عليك باليهود.. انهم يفعلون كل شيء من أجل الذهب..

لم يكره المسلمون اليهود مثلما كرهوهم ذلك اليوم.. وكان منظرهم وهم يحملون معاول الهدم كشياطين انبعثت من أصل الجحيم تريد احراق كل الاشياء الجميلة..

العيون اليهودية تبرق بالشر والجريمة والدناءة وانوفهم المعقوفة تستحيل إلى أنوف لذئاب لا تعرف الرحمة انهم ينطوون على دناءة مقرفة، ولو انبعث لهم موسى بن عمران لقتلوه من أجل عجل ذهبي له بريق يخطف القلوب ويخطف الابصار!

كان الوقت مساءً وقد هيمنت في خرائب البيوت المهذمة رهبة الظلام، وكان صوت صهيل الخيول وحده يكسر حاجز الصمت الذي جثم فوق المكان..

ليلة العاشر من المحرم مخزونة بحزن سماوي حتى السماء تبدو كابية غارقة في الرماد.. كل شيء يبدو حزيناً ومنظر الخرائب وصهيل الخيول يشعل في الذاكرة ما حدث في هذه البقعة من العالم من مأساة وفجيعة.. حتى نسائم الفرات الندية لم تبدد مشاعر الحزن والأسى.. الجنود المسلمون يشعرون بالعار وهم يرون عشرات اليهود كالضباع يريدون نبش قبر سبط محمد وابن فاطمة وعلي.. ومع ذلك فهم يقفون عاجزين عن فعل أي شيء!!

حب الحياة الدنيا سلبهم الثأر لكرامتهم المهذورة.. وهبت نسائم معطورة من جهة المرقد الطاهر حيث يرقد الحسين.. الحسين بن علي..

«آه ما أطيبك وأطيب قبرك وتربتك»^(١٢٥).

آه من الأرجاس الأوغاد.. آه من قتلة الانبياء.. لا يتورعون عن ارتكاب كل جريمة من

أجل المال.. المال.. الذهب معبودهم الوحيد..

مأساة عاشوراء تنبعث من جديد.. الحسين يقاتل وحيداً من أجل أمة هدرت كرامتها.. من أجل أمة خضعت للطاغية.. ها هو الحسين يقاتل من جديد ضد طاغية جديد.. المتوكل يحشد جيشه من اليهود.. من احفاد قتلة الانبياء والمرسلين لنشب قبر الحسين.. لذبح الحسين.. لمحو الحسين ولكن هيهات.. الحسين اسمه في قلوب الأحرار ورسمه في حنايا الصدور.. صدور الثوار.

«الديزج» اليهودي الذي عبد العجل الذهبي من دون الله يتقدم ومعه أولاد الأفاعي والحيات إلى البقعة المباركة.. وهوى السامري على صندوق خشبي تفوح منه رائحة المسك وبدأت الذئاب البشرية تنهش الأرض المقدسة حيث هوى الحسين وحيث هشت صدره عشرة خيول مجنونة.

كان «هارون المعري» القائد العسكري المربط مع قواته قد نام على اصوات المعاول.. وفي عالم تسبح فيه الأرواح رأى رسول الله ﷺ يصق في وجهه ويطرده^(١٢٦)!

وطلع الفجر رمادياً حزيناً وتكشفت معالم الجريمة لقد دمر المرقد الطاهر وسوى بالتراب..

وجيء بعشرة ثيران لكرب المنطقة وحراثتها وتحويلها إلى أرض زراعية.. وشوهد أن الثيران كانت تحيد عن منطقة القبر ميمناً أو شملاً ولم ينفع الضرب الشديد لدفع الثيران لحراثة القبر^(١٢٧).

وقدم اليهودي تقريره بيد مرتجفة بسبب حمى الليلة الفائتة للمسؤول التنفيذي عن المهمة:

- فعلت ما أمرت به.. لم أر شيئاً.. ولم أجد شيئاً!

قال القائد بدناءة:

- هل عمقت في النبش؟

- قد فعلت فما رأيت..

قال القائل وهو ينفذ أمر الخليفة العباسي العاشر:

- افتحوا النهر على الأرض المحروثة.

مثل الطوفان اندفعت مياه الفرات لتغمر الأرض المكروبة.. وحدث شيء عجيب..
المياه لا تغمر البقعة المباركة راحت تدور.. حولها فبدت كجزيرة صغيرة.. واحة في قلب
الصحراء وقد علا زبد الماء (١٢٨).

الفصل السابع عشر

أطل يوم «عاشوراء»، وتضاعف الحزن وقد استحال المتوكل إلى «يزيد» آخر أذ
أغارت ذئابه من اليهود على بقعة طاهرة تضم رفاة الحسين.. عاشوراء ينبعث من جديد..
والحسين ينهض ليقا تل يزيد الجديد..

كانت البقعة من تلك الأرض، حيث دارت ملحمة الحسين ما تزال غارقة في المياه ما
خلا جزيرة صغيرة لم يمسه الماء وعم الاستياء المدن الإسلامية بما فيها الكوفة، وبغداد
وسامراء وتذمر المسلمون وتجراً بعضهم على سب الخليفة في المحافل العامة والدعاء عليه في
الصلاة.

وانتشرت أبيات شعرية تندد بجريمة المتوكل، وكان الناس يرونها مكتوبة على جدران
المنازل والجوامع وحفظها الكثير من الناس:

تالله إن كانت امية قد أتت	قتل ابن بنت نبيها مظلوما
فلقد أتاه بنو ابيه بمثلها	هذا لعمر ك قبره مهودوما
أسفوا على أن لا يكونوا شاركوا	في قتله فتتبعوه رميما (١٢٩)

وانتشرت الأبيات للشاعر المشردّ دعل الخزاعي كان قد هاجم فيها المتوكل لدى
اعتلائه عرش الخلافة وقد وصفه فيها بالذئب البشري:

الحمد لله لا صبر لا جلد ولا عزاء	إذ أهل الهوى رقـدوا
خليفة مات لم يحزن له أحد	وأخر قام لم يفرح به أحد
فمر هذا ومر الذئب يتبعه	وقام هذا فقام الويل والنكد

وبدأت حملة اعتقالات واسعة طالت الكثير من الأبرياء الطيبين، وامتألت زنانات المطبق بالمؤمنين من الأحرار الذين ينبض في قلوبهم اسم الحسين.

عمّ الذعر أنحاء البلاد وألقي القبض على كثير من أصدقاء الإمام في طليعتهم «علي بن جعفر» اذ ورد إلى قصر الخلافة تقرير رفعه عمر بن فرج يؤكد خطورة علي بن جعفر وأنه من زعماء الرافضة^(١٣٠)..

وسيق الرجل الفاضل إلى السجن وكان من المؤكد أنه سوف يتعرض إلى تعذيب رهيب لدفعه على تقديم كل ما يملك من أجل الخلاص من أجل هذا أجرى اتصالاً مع أحد الشخصيات ووعدته بمنحه ثلاثة آلاف دينار مقابل إطلاق سراحه..

واسرع الرجل إلى الوزير المنتفذ عبيدالله بن يحيى وبحث معه فكرة التوسط له لدى المتوكل فوعده بذلك.

وفي المساء وكان مزاج الخليفة منفثاً قال ابن يحيى:

- يا سيدي جئتكم متوسطاً لإطلاق سراح علي بن جعفر.

فوجيء المتوكل بتصرف وزيره وقال مستنكراً:

- لو شككت فيك لقلت أنك رافضي.. اتعرف من هو؟ انه وكيل الهادي..

وتوقف لحظات ليقول بحقد:

- انني عازم على قتله^(١٣١).. واقسم انني لن أخرج جثته من السجن إلا بعد ثلاثة أيام^(١٣٢)..

وشعر عبيدالله بانه ارتكب حماقة كبرى في التوسط من أجل إطلاق رجل شيعي مغضوب عليه من الخليفة.. وجاء الوسيط يستفسر من الوزير الذي قال له بيأس:

- لا تتعب نفسك.. ان عمر بن الفرّج كتب عن ابن جعفر بانه رافضي.. أن قتله بات مؤكداً بل أن المتوكل أقسم على الا يسلم جثمانه إلا بعد ثلاثة أيام.

وعندما أحيط علي بن جعفر بالنتيجة أصيب بخيبة أمل ولكنه سطر بعض الرسائل إلى كثير من شخصيات الدولة للتوسط في أمره..

وأخيراً نجحت الوساطات واستجاب المتوكل بشرط أن يسدد مبلغاً قدره ثمانين ألف درهم فاذا عجز عن دفع المبلغ فليبع غلامه فلان بهذا المبلغ إلى الخليفة وعندها يخلّى سبيله^(١٣٣).

قال الوزير مبتهجاً:

- وأخيراً سوف تخرج من السجن ليس عليك إلا أن تشهد بأنك بعت المتوكل غلامك فتذهب إلى منزلك.. ما رأيك؟

قال السجين:

- نعم سأفعل ذلك.

وأمر الوزير بحضور أحد الكتاب لتسجيل البيع وضبط شهادة الشهود..

وخلال تلك المدة.. تألفت في ذاكرته مشاهد لغلامه الطيب الذي نشأ في ظلال الايمان الوارفة.. كيف سيسلمه إلى الطاغوت فيخرجه من النور إلى الظلمات؟

وعندما حضر الكاتب والشهود قال السجين بشجاعة مدهشة:

- اشهدوا انه حرّ لوجه الله.

فكتب الوزير تقريراً عما حصل وما لبث أن جاءت رسالة المتوكل شديدة القسوة:

- يقيد السجين بخمسين رطلاً وتوضع الأغلال في عنقه بوزن خمسين رطلاً ويرمى في زنزانة ضيقة..

- لقد اقتربت النهاية.

صوت دوى في السجن، كان يودّ أن يقضي السنوات الأخيرة من حياته في المسجد بين تلاوة القرآن والصلاة وقد يحج إلى بيت الله حجة الحتّام ويستريح ولكن الحياة في ظلال الطغاة تستحيل إلى جحيم لا يطاق.. إما أن ينسلخ الانسان عن انسانيته وإما أن يحيا مكبلاً بالأغلال..

وعندما سمح لأسرته باللقاء طلب من أولاده أن يحيطوا بجميع اصدقائه بالخبر وأن

يسعوا في خلاصه بكل وسيلة.. وكتب رسالة إلى الامام بهذا الخصوص فاستلم الجواب في نفس اليوم وكانت كلمات الامام وجيزة لكنها تنطوي على ايمان بالله راسخ عميق:

- لا والله لا يكون الفرج حتى تعلم أن الأمر لله وحده.

هزّت الكلمات وجدان السجين المؤمن.. لقد نسي حقيقة كبرى أن كل شيء يمضي بمشيئة الله.. الله وحده القاهر الجبار الملك القيوم الذي بيده مقاليد السموات والأرض.. لماذا اذن يتوسل بالذين لا يملكون من الحول والقوة شيئاً؟!

من أجل هذا كتب إلى اسرته بوقف جميع مساعيها في اطلاق سراحه وأن تسترد جميع رسائله التي سبق أن ارسلها إلى اصدقائه ومعارفه.. فمكث في ظلمات السجن..

ولكن إلى متى؟

في البداية واجه السجين مصيره بشجاعة وتحمل التعذيب بصبر وبسالة، ولكن الجسد الآدمي لا يستطيع تحمل سياط العذاب، دائماً هناك من يتراجع في البداية يكتن صرخاته لكتبته ولكن لهيب العذاب يفجر آلاماً رهيبه لا تحتمل وعندها تدوى صرخات الاستغاثة، فاذا اضيفت إلى الاغلال والقيود ظلمات متراكمة بعضها فوق بعض فأن شعوراً مدمراً بالانسحاق يجتاح المرء، ويدفعه إلى التشبث كالغريق بأي شيء.. ولكن السجين كان يعي طوال كل تلك الأيام الرهيبة أن عليه أن يستغيث بالله فقط وأن يوصل صوته إلى ولي الله.

أما عبدالعظيم الحسني^(١٣٤) فقد أفلت من قبضة رجال الشرطة ولم يعرف له من أثر.

واستلم الامام رسالة من السجين جاء فيها: «قد ضاقت نفسي وقد خفت الزيف يا سيدي».

وجاء ردّ الأمام: «أما إذا بلغ الأمر منك ما قلت فسأقصد الله تبارك وتعالى فيك»^(١٣٥).

في ذلك السرداب المغمور بالسكينة والسلام.. وفي الهزيع الأخير من الليل.. شرع الأمام كفيه إلى السماء.. انه يشهر سلاح الانبياء.

كل شيء يمضي بإرادة الله القاهرة.. بمشيئته وحده..

و شاء الله أن تداهم الحمى جسد المتوكل وأن تنصحه والدته باطلاق سراح المعتقلين..
وجاء الوزير يشرّ السجين بالحرية..

و ادرك «علي بن جعفر» حينئذ أن الايمان الراسخ بالله يهب الانسان العزة والكرامة
والحرية الحقيقية..

وزاره الامام مهنتاً ونصحه بالرحيل إلى مكة^(١٣٦):

- ان سامرا لم تعد مكاناً آمناً فارحل إلى حرم الله وأمنه..

سوف يعمّ الرعب الأرض ويخاف المؤمنون سطوة الاشرار.. سيعلو صوت الغناء
تراتيل القرآن.. سوف تزخرف القصور بالذهب والفضة، وسوف تتهاوى بيوت الفقراء..
سوف تفرّ كل الأشياء الجميلة، وسيخرج الشيطان يعربد ويدمر، وسينزوي العقل البشري
أمام جنون الغرائز..

ولكن معركة الانسان المؤمن لن تنتهي إلا بانتصار الانسان على الخنزير المرتبص في
أعماقه المظلمة..

الفصل الثامن عشر

انتقل المتوكل رسمياً إلى قصره الجديد «البرج» الذي انفق المهندسون في بنائه
١/٧٠٠/٠٠٠ دينار^(١٣٧) غير تماثيل الذهب والفضة، وكان اعجب ما فيه بركة مياه مفروشة
بالذهب والفضة، وشجرة ذهب مليئة بتماثيل طيور ذهبية تصدر أصواتاً تحاكي اصواتها في
الطبيعة وقد اطلق على الشجرة اسم «طوبى» شجرة الجنة، أما العرش الملكي فقد صنع من
الذهب الخالص يتصدره أسدان كبيران وعلى جانبه مدرج ملئ بتماثيل الحيوانات والطيور
وقد صمم كل ذلك وفق الروايات التاريخية التي تصف سرير النبي سليمان عليه السلام اما جدران
القصر فقد زينت بالفسيفساء من الداخل والخارج وقد امتاز القصر بارتفاعه الشاهق.

أما جناح الحريم فقد اشتمل على مقصورات كثيرة جداً وقد زينت جدرانها بلوحات
تصور فتيات يؤدين ألواناً متنوعة من الرقص وموسيقيين اضافة إلى صور الحيوانات
والطيور تنحصر في تفريعات نباتية ودوائر^(١٣٨).

وكان حوض السباحة محاطاً بالنافورات المختلفة الاشكال.. كل ذلك يوجد في قلب حديقة غناء مجهزة بدكة مرمية واسعة، تستخدم في ليالي الصيف لإقامة الحفلات الراقصة. في منتصف شهر محرم الحرام طلع القمر بدرأ وقد شابت نوره الفضي صفرة فبدأ شاحب اللون حزينا، ان لهذا الشهر نكهة حزينة في النفوس إذ تتوهج في الذاكرة كل مآسي عاشوراء يوم جثم الشمر على صدر سبط الرسول للذبح.. ويوم رفع رأس الحسين على رمح طويل.

غير أن ما ضاعف الحزن هذا العام ما فعله المتوكل بمرقد الحسين.. لقد هدم الضريح وحرثت الأرض ثم اغرقت بالمياه..

استحالت كربلاء إلى أرض تجوس فيها ثيران الحراثة.. وكما تنشق في الأرض الزهور انشق لكربلاء اسم جديد.. اسم ولد يوم غمرت المياه أرض كربلاء لكنها لم تغرق قبر الحسين.. حارب حول البقعة المباركة حيث مشى سبط محمد.. من أجل هذا عرف القبر بالحائر^(١٣٩).

كان الامام قد ركب سفينة^(١٤٠) متوجهة إلى بغداد لينطلق منها إلى كربلاء ولكن جميع الطرق كانت محاصرة بمفارز مسلحة تمنع الزوار من الاقتراب من المنطقة.

وقد قطع الطريق على الامام الذي ذهب بصحبة ولديه، ولذا عاد إلى سامراء والألم يعتصر قلبه لما يجري من عدوان على القيم الإسلامية والانسانية.

كان الوضع متأزماً جداً ينذر بوقوع حادث ما، وقد بدا الوجه الاسمر حزينا كسماء مثقلة بالغيوم..

وعندما ولج المنزل استقبلته ابنته بباقة من الورد تناولها وقد اشرفت ابتسامة في محياه، وقبل ابنته التي لم تبلغ الثالثة من ربيع العمر.. كان وجهها الملائكي يختصر براءة الطفولة.. شم الأب الورد أربح وملاً صدره بشذى العطر ثم وضع باقة الورد على عينيه وناولها صاحبه الذي قدم من بغداد قائلاً:

- يا أبا هاشم من تناول وردة فقبلها ووضعها على عينيه ثم صلى على محمد وآله الأئمة.. كتب الله له من الحسنات مثل رمال عالج^(١٤١) ومحا عنه من السيئات مثل ذلك^(١٤٢).

وفي القصر الجديد كان المتوكل يتشظى غيظاً ان موقف علي بن محمد يعدّ ضربة للحكم.. كان البلاط يغصّ برجال الدولة وبينهم المعتز ولي العهد المدلل وكتاب الديوان..

المتوكل جالس فوق سريره الذهبي المهيّب والتماثيل وفي طليعتها الأسودان.. تبخلق بصمت.. الخليفة ينظر شزراً إلى رئيس وزرائه بن خاقان.. وانفجر بركان الحقد.. ان وزيره عبيدالله بن يحيى نقل تقارير خطيرة عن ابن الرضا يهاجم فيها سياسة المتوكل.. صرخ المتوكل وهو يوجه كلماته إلى الفتاح الذي وقف ذليلاً:

- هذا الذي تقول فيه ما تقول!؟

حاول رئيس الاستخبارات أن يخفف من اندفاع المتوكل في الاتهام فهناك معلومات كاذبة:

- انه مكذوب عليه يا أمير المؤمنين!

لكن المتوكل أصم أذنيه.. لقد انفجر الحقد العباسي الذي يخشى أبناء علي:

- والله لاقتلته.. هذا الذي يدّعي الكذب، ويطعن في دولتي^(١٤٣) وفي عصبية مخيفة أصدر أمراً باحضار أربعة رجال من «سكان الخزر».. فهؤلاء لا يعرفون غير تنفيذ الأوامر.. وسلمهم بنفسه أسلحة لاغتيال الرجل الاسمر الذي سيحضر إلى القصر..

كانت فكرته أن يواجه الامام بالاتهام ثم يسمح له بمغادرة البلاط وفي الرواق المؤدي إلى البوابة ينقض عليه أربعة رجال غلاظ لاغتياله والتخلص منه إلى الأبد.

الإمام في طريقه إلى القصر وقد امتلأ صدره غضباً علوياً وإباءً حسينياً.. كل شيء يمضي بمشيئة الله.. أنه في عين الله وإذا كان المتوكل يتكل في سلطنة إلى حرسه وجيوشه فان ابن الرضا يتوكل على الله، وكفى بالله وكيلاً.. يمشى مرفوع الرأس..

تتألق في عينيه رسالات الله، وتضيء جبينه الأسمر هالة من نور محمد.. الكلمات المقدسة تدوي في أعماق الفتى الاسمر:

- «يا عدتي عند العدد..

ويا رجائي والمعتمد..

ويا كهفي والسند ويا واحد..

يا أحد.. ويا قل هو الله أحد..

اسألك بحق من خلقتهم، ولم تجعل في خلقك مثلهم أن تصلي عليهم^(١٤٤)..

الهي عاذ المظلوم ببابك..

وتوكل المقهور منا عليك

ورجوعه اليك

ويستغيث بك إذا خذله المغيث..

ويستصرخك إذا قعد عنه النصير..

وتتفتح أبواب السماوات وتهبط ملائكة الله لنصرة المظلوم.. فاذا به يمشي على الأرض هوناً.. وعيون من السماء تحرسه.. أنه ليس وحيداً ومن كان مع الله كان الله معه..

وهب حرس القصر لأداء التحيات، والخدم إلى رفع الستائر لقد جاء ابن الرضا تحيطه هالة من النور، وتشع من عينيه النجلاوين أنوار الهيبة والقداسة. وعندما ولج البلاط غمر المكان سكينه.. حتى المتوكل الذي كان يتحفز كنمر متوحش أخذ بالتضائل حتى استحال إلى قط وديع.. ها هو يهب من سريره مأخوذاً بالرجل الاسمر الذي بدا في عينيه عملاقاً مهيباً.. يستطيع أن يطيح بعرشه ويحيل قصره إلى خرائب وانقاض.. هتف المتوكل دون وعي:

- يا سيدي.. يا بن رسول الله.. يا خير خلق الله يا ابن عمي.. يا أبا الحسن ما جاء بك يا سيدي في هذا الوقت؟

أجاب الإمام بنبات الجبل... جبل النور:

- جائي رسولك يقول: المتوكل يدعوك.

- كذب ابن الفاعلة..

وأراد الأمام أن يوضح له حقيقة كبرى فقال ناصحاً:

- لا تطلب الوفاء ممن غدرت به، ولا الصفاء ممن كدرت عليه عيشه..

أتطلب الوفاء من الذين تغدر بهم؟ وتطلب منهم أيضاً تصفو قلوبهم لك وأنت تكدر عليهم الحياة؟!

متودداً قال المتوكل، وقد وجد نفسه ضئيلاً:

- ارجع يا سيدي إلى منزلك..

والتفت إلى ولي عهده وإلى رئيس وزرائه:

- يا فتح يا معزز شيعوا سيديكم.

وغادر الامام البلاط ظافراً.. تخفق من حوله أجنحة الملائكة.. ووراءه رجال الدولة وأمامه حرس القصر..

أما الرجال الأربعة فقد ظلّوا مبهورين وهم ينظرون إلى الرجل الاسمر في موكبه المهيّب^(١٤٥).

وفي نفس اليوم استلم ابراهيم الصولي كاتب البلاط ومسؤول ديوان الضياع رقعة وصلته بطريقة غامضة فلم تكن ضمن رسائل البريد الرسمي وعندما نشرها اصفر لونه وشعر بأن حياته قد باتت مهددة.. رسالة فيها ابتزاز مالي ان شخصاً يدعى اسحاق يقول: ان بحوزته قصائد لابراهيم في مدح الامام الرضا بمناسبة تسنمه ولاية العهد وقصائد غيرها بعضها بخط ابراهيم نفسه! اما مطالبه فهو اسقاط جميع الديون التي بذمته والمثبتة في ديوان الضياع.. وفيها تهديد بايصال القصائد إلى المتوكل شخصياً.

استحال قلبه إلى طبل افريقي مجنون يدق بعنف.. ان وقوع القصائد في يد المتوكل يعني نهايته بطريقة بشعة.. منذ مدة وهو يعمل في البلاط ويلاحظ بعض العيون تبرق كعيون الافاعي.. مؤامرات دسائس نفاق.. تملق.. انخطاط في كل شيء..

لقد استحال المتوكل إلى طاغية ولم يعد هناك شيء ثابت ولا مقدس كل شيء مستباح..

ان رجلاً يخشى الموتى وهم في القبور، لا يمكن أن يكون أنساناً سوياً أبداً وخليفة يقدم على تدمير مرقد الحسين يعني أنه أسوأ من يزيد.. يزيد الذي لا يملك حسنة واحدة.

انتبه «الصولي» إلى نفسه على خطى قادمة..

وحارس يقول: أن الخليفة يطلبك على الفور!

أخفى الرقعة في أحد جيوبه وامثل لارادة الخليفة كان يتوقع أن حادثاً ما سيقع له..

وخلال اللحظات الأولى أدرك الصولي أن الأمور غير ما كان يتوقع، اشتعلت في أرمينيا ثورة بقيادة اسحاق بن اسماعيل حاكم تفليس ومعه أمراء الأرمن والمطلوب توجيه رسالة إنذار قوية..

أن عقلية الصولي البليغة متحفزة تماماً لتسطير رسالة شديدة اللهجة لها هيبة جيش جرار.. فشرع قلمه وراح يكتب كلمات موجزة الألفاظ واسعة المعاني جاء فيها:

- «أما بعد..

فإن لأمر المؤمنين أناة، فإن لم تغن عقب بعدها وعيداً فإن لم يغن؛ أغنت عزائمهم.. والسلام»^(١٤٦).

ابدى الخليفة اعجابه بالرسالة مما جعل الصولي يتنفس الصعداء ولكنه ما لبث أن غرق في هواجسه لأن مجرد اتهامه بالتشيع يكفي في تدمير مستقبله والقضاء عليه.. ولذا بادر إلى تسطير كلمات موجزة في رقعة وضعها في المكان المطلوب وفيها استجابة ودعوة للاجتماع في منزل أحد الاصدقاء..

وفي المساء حمل «الصولي» سجل «الضياع» معه واتجه إلى منزل الصديق وجلس ينتظر بقلق..

طُرق باب المنزل فهب صاحب البيت ليفتح الباب لكنه ما لبث أن عاد أدراجه قائلاً دون سؤال:

- كان مكدياً سأل وانصرف.

اعتصم الصولي بالصمت مستغرقاً في هواجسه، لكنه تحفز مع طرقات خفيفة على الباب:

ودخل رجل في الخمسين من عمره يبدو عليه أنه عانى ألماً كبيراً قبل أن يحضر قال الصولي:

- لقد تأخرت عن الموعد.

قال الرجل:

- تصورت أنك تريد الايقاع بي.

- معاذ الله.. لقد أحضرت معي السجل لأحو أمانك الديون التي بذمتك.

- وأنا أحضرت جميع قصائدك بخطك وبغير خطك.

قام الصولي بمحو جميع الديون التي بذمت الرجل وقام الرجل بتسليم جميع الأشعار..

قال الصولي:

- أريد أن تحلف لي بأنك لا تحتفظ بغير هذه الأوراق.

- أقسم لك.

راح الصولي يطالع قصائد شعره ثم راح يحرقها الواحدة تلو الأخرى^(١٤٧).. والدموع توج في عينيه كغيوم ممطرة^(١٤٨).

الفصل التاسع عشر

فيما كانت الجيوش الإسلامية بقيادة «بغا» تغادر العراق باتجاه أرمينيا لقمع التمرد، كانت الشرطة تعتقل القاضي السابق أحمد بن أبي دؤاد وقد صدر أمر بتجميد ممتلكاته.

لم يستطع ابن أبي دؤاد أن يدافع عن نفسه، بسبب شلله النصفي.. وما لبث أن وردته أخبار باعتقال ابنه أيضاً وبتجميد أمواله..

واضطر القاضي السابق وابنه إلى تقديم غرامة مالية بمبلغ ١٦/٠٠٠/٠٠٠ درهم واجبرا على مغادرة سامراء إلى بغداد بطريقة مهينة^(١٤٩).

ومضت في ذاكرة القاضي المهان مشاهد العزّ والنفوذ والسلطان يوم كان القضاء في قبضته عشرين سنة وكانت كلمة واحدة منه تقتل ناساً وترمي بآخرين في ظلمات السجون.. وها هو الآن يطرد مهاناً من سامراء إلى بغداد التي تحقد عليه ويودّ أهلها أن يشربوا دمه. أما الأموال التي جمعها طوال هذه السنين فقد استحوز عليها المتوكل ولعله سيئني بها قصراً جديداً^(١٥٠).

ومضت في ذاكرته مشاهد قديمة يوم كان المتوكل ذليلاً يلتمس منه أن يتوسط له لدى أخيه الواثق.. وكيف البسه حلّة الخلافة بنفسه وكان أول من حيّاه بلقبه الرسمي.. بل أنه هو الذي صنع لقبه.

«آه يا الغدر الزمان» الدنيا لا تصفو لأحد أننا نكتشف ذلك بعد فوات الأوان.. كل ما زرعه بالأمس يحترق أمام عيني، يستحيل إلى رماد تتخطفه العاصفة الهوجاء.. انني اقترب من حفرتي.. إنها قرية جداً.. اشعر انها على خطوات معدودة.. جائع ليس في حوزتي من الزاد شيئاً^(١٥١)..

لقد كان المتوكل قبل خمسة أعوام عبداً ذليلاً.. كان يتصور أنه سيبلغ ذروة النفوذ ويحكم باسمه.. سيكون المتوكل خليفة بالاسم فقط.. وسيكون هو الخليفة المتنفذ بالفعل.. ولكن كيف انقلب هذا العبد الذليل الذي كان يتوسل إليه بالأمس إلى طاغية يحكم البلاد وفق نزواته؟!

كيف استحال هذا المخلوق الذليل إلى ذئب؟ هل أكل قطعة لحم بشرية^(١٥٢)؟ في البداية كان المتوكل يتودّد ويتظاهر بالتعاطف مع أهل السنة ويتصنّع الطيبة معهم، وفي نفس الوقت بدأ في تجنيد حرس قوي.. ثم يواجه أعداءه وخصومه.. ولا ينسى أيضاً أن يفرض الضرائب التي تزداد يوماً بعد يوم لإفقار الشعب، فينصرف المواطنون إلى الانهماك في العمل لكسب قوتهم اليومي. وعندما يجد نفسه حاكماً مطلقاً فإنه يبرر لنفسه سفك دماء أهله بعد أن يقذفهم بالاتهامات الباطلة.. ويحتقر القانون والأخلاق..

أنه يتحول إلى ذئب.. ذئب لا يتورع عن أكل اللحوم البشرية.. حتى حدود البلاد يتركها عرضة للغزاة لكي يشعر الشعب بحاجته إلى الحاكم فيضطر إلى الخنوع له من أجل كسب حمايته..

ولذا فإن المتوكل لم يطلب من الفتيات اللاتي كن يؤدين رقصة شعبية التوقف عن الرقص بعد أن تلقى انباءً خطيرة تفيد بهجوم الاسطول الروماني على مدينة «دمياط» المصرية، وإحراق المدينة وأسره مئات النساء والاطفال، وتدميرهم حوضاً لبناء السفن كان يجهز الاسطول الإسلامي بالسفن الحربية.

وكانت الانباء الحربية تترى: لقد غرق مئات الاطفال والنساء في بحيرة دمياط^(١٥٣)..

وفي اليوم التالي قام برحلة ترفيهية فركب يخته الملكي متجهاً أولاً إلى الشامية شمال بغداد ثم عبر إلى «قطر بل»^(١٥٤) المليئة بالكروم والمعروفة بمعاصرها التي تنتج أفضل أنواع الخمور! فامضى ليلتين، ثم عاد إلى بغداد^(١٥٥) فيما كانت نساءم كانون الأول تهب.

وأعلن المتوكل وهو يتصدر موكبه المهيب في شوارع بغداد وأسواقها أنه سيرد على الهجوم النصراني، وسيعامل اتباع النصرانية بمنتهى القسوة^(١٥٦).

وعندما عاد المتوكل إلى سامراء كان الخريف يللمل أيامه الأخيرة مبشراً بشتاء قارس طويل.

وفي القصر أمر الخليفة بإحضار ابن السكيت فحضر ومعه الأميران المعتز والمؤيد.. ودارت أحاديث حول التقدم الذي أحرزه ولداه في العلوم كما سأله أسئلة أخرى وعن عمره فأجاب:

- لقد ذرّفت على الخمسين.

وعن مؤلفاته فقال:

- «اصلاح المنطق»، و«تهذيب الألفاظ»، «كتاب الاضداد»، «كتاب الامثال» «شرح ديوان أبي نؤاس» «شرح ديوان طرفة بن العبد» «شرح ديوان الخنساء» «شرح ديوان عروة بن الورد» وكتاب «النوادر».. واشتغل في كتاب جديد اسمه «معاني الشعر»^(١٥٧).

قال المتوكل وقد خطرت في رأسه فكرة ماذا لو يخرج «ابن الرضا» بهذا العالم لهذا قال:

أريد منك أن تهياً اسئلة تسأل بها علي بن محمد.. تنفس ابن السكيت الصعداء لأن المتوكل لم يكتشف تشيعه ولذا أجاب على الفور:

- أبذل جهدي.. ان لدي اسئلة تتلجج في صدري منذ مدة.

أمر المتوكل أن يشهد عدد كبير المناظرة بين ابن السكيت وابن الرضا.

وعندما اكتمل الحضور بدأ ابن السكيت الذي ظل طوال الوقت معتصماً بالصمت^(١٥٨) اسئلته فقال بأدب:

- لم بعث الله موسى بالعصا واليد البيضاء؟

وبعث عيسى بإبراء الاكمة والأبرص وإحياء الموتى؟

وبعث محمداً بالقرآن والسيف؟

قال الذي عنده علم النبوات:

- بعث الله موسى بالعصا واليد البيضاء في زمان الغالب على أهله السحر.. فأتاهم من ذلك بما قهر سحرهم وبهرهم. واثبت الحجة عليهم.

وبعث عيسى بإبراء الاكمة.. والابرص وأحياء الموتى بإذن الله في زمان الغالب على اهله الطب فأتاهم من ذلك ما قهرهم وبهرهم.

وبعث محمداً بالقرآن والسيف في زمان الغالب على أهله السيف والشعر، فأتاهم من القرآن الزاهر والسيف القاهر ما بهر به شعرهم، وقهر به سيفهم، واثبت الحجة عليهم^(١٥٩).

وأثار الامام سؤالاً:

- ما بال القرآن لا يزداد على النشر والدرس إلا غضاضة؟!

وسكت ابن السكيت كعادته فأجاب الإمام:

- لأن الله تعالى لم يجعله لزمان دون زمان ولا لناس دون ناس فهو في كل زمان جديد،

وعند كل قوم غرض إلى يوم القيامة»^(١٦٠).

قال ابن السكيت:

- فما الحجة الآن:

أجاب الأمام متحدّياً التيار الذي يحاول تهميش دور العقل:

- العقل.. يعرف به الكاذب على الله فيكذب.

وفي الاثناء حدثت جلبة.. لقد القي القبض على رجل نيسابوري يدّعي أنه نبي وأنه ذو القرنين.. ومعه كتاب يزعم أنه كتابه المقدّس: ومعه سبعة وعشرون من أتباعه..

لم يكن الرجل متزناً في تصرفاته، وكان يبدو عليه الاجهاد النفسي.. عيناه زائغتان ونظراته تائهة.. أشار المتوكل إلى جلاّد أن يلهب جسمه بالسياط.. فتهاوى الرجل تحتها..

ورأى اتباعه صاحبهم ينهار ويتوسل وقد انخطف لونه..

قال المتوكل لهم:

- إذا اردتم النجاة فاصفعوه..

واندفعوا مثل المجانين لينهالوا عليه بالضرب.. والمتوكل يقهقه مبتهجاً.. فيما اعتصم الامام بالصمت وقد غمرته حالة من الحزن.. لعلّه الجوع دفع بهذا المعتوه إلى إدعاء هذه الترهات.

أمر المتوكل حرسه بحمله إلى الميدان العام ليعلن كذبه على الملأ ثم يلقي في الحبس، ريثما يُنظر في أمره وعندما انفض الحاضرون قال «ابن اكثم» لخليفته وقد تأججت في نفسه الاحقاد والاطماع:

- ما لابن السكيت والمناظرة؟! انما هو صاحب نحو وشعر ولغة.

قال المتوكل:

- فهل تستطيع أن تسأله.

- ولم لا؟! سوف اهيأ له من الاسئلة ما يعجز عن جوابها!

- سوف نرى!

ومضى ابن اكثم يهياً سؤاله وحباله..

وهتف المتوكل بغلامه النصراني الاثير^(١٦١):

- يا أبا نوح! أين أنت

وانطلقا معاً نحو بركة السباع للاستجمام.

الفصل العشرون

كان يحيى بن أكثم جالساً بين يدي الخليفة الذي بدا نصف نائم وينظر بطرف خفي إلى القاضي وهو يقرأ أسئلته قبل طرحها على ابن الرضا.

وكان «المنتصر» ولي العهد قد بدا في زيه الرسمي ملكاً مهيباً وعندما حانت التفاته من الأب إلى ابنه شعر قليلاً بالغضب، وخامره شعور بان ابنه سوف يصبح ملكاً وكلما كبر الابن يعني ان الأب في طريقه إلى الفناء.

ان مجرد تصور هذه الفكرة يزعجه، ولذا استوى جالساً وراح يتأمل رجال البلاط بعينين نافذتين.. يحاول أن يغوص في الاعماق الغامضة ويعرف ما يموج فيها من مؤامرات ودسائس.

قال للقاضي الذي استكمل قراءة الأسئلة بشيء من الغرور:

- سلم الرقعة لابن السكيت ليرفعها إلى ذلك الأسود^(١٦٢).

وفيما كان المتوكل يتطلع إلى القاضي وهو يلف أسئلته، وردت انباء عن حدوث قلاقل في مدينة حمص، واشتراك النصاري في الثورة التي اندلعت في المدينة، قال المتوكل بعد أن قطع على رئيس وزرائه قراءة التقرير:

- اين النصراني الذي فجر بالمرأة المسلمة؟

اجاب القاضي:

- سيقام عليه الحد

- لينفذ الحكم أمامي.

وجيء بالنصراني الذي زاغت عيناه من الرعب وعندما لمح الجلّادين أدرك ان نهايته وشيكة سوف يموت تحت السياط..

اقرب من الغلام النصراني ليهمس في أذنه شيئاً.

صاح الخليفة:

- ماذا قلت له يا أبا نوح!

استنكر بعضهم موقف الخليفة الذي كنى غلامه النصراني، قال القاضي:

- يا سيدي لا تجوز تكنية الكافر!

وسكت الخليفة قليلاً ثم أشار إلى الجلّاد لتنفيذ الحكم ولكن النصراني الزاني عمل بنصيحة الغلام فصاح:

- اشهد أن لا إله إلا الله.. اشهد أن محمداً رسول الله.

قال القاضي.

- لقد هدم إيمانه شركه وفعله.

قال أحد الفقهاء وكان يراقب ما حصل:

- ان إسلامه لا يدفع عنه الحد.. ولكن يخفف عنه وحدث لغط في البلاط.

اقترح الفتح بن خاقان رفع القضية إلى ابن الرضا.

وعندما حرّرت رقعة في القضية قال المتوكل:

- اصف إلى المسألة مسألة أخرى: هل يجوز لي تكنية غلامي النصراني أم لا؟

أريد الجواب حالاً.

في منزل الامام كان ابن السكيت يكتب أجوبة الامام عن اسئلة ابن اكثم^(١٦٣).

والقى الامام نظرة في السؤالين الجديدين وكتب بخطه:

- يضرب النصراني حتى الموت.

وكتب تحت السؤال الثاني.

- بسم الله الرحمن الرحيم: (تبت يدا أبي لهب وتب).

وانطلق الكاتب وقد امتلأت نفسه اجلالاً للأمام الذي وجده كنيع يتدفق علماً وخُلُقاً.

هيمن صمت مهيب على البلاط، وهتف القاضي باستياء:

- لا القرآن يقول بهذا الحكم ولا السنة!!

وحدث لغط حول الحكم العجيب وبرقت عينا المتوكل فقد يهزم ابن الرضا أمام الفقهاء..

ولذا أعاد الرقعة إلى الامام ومعها رسالة شفوية تقول:

«ان فقهاء المسلمين قد انكروا ذلك، وقالوا: لم تجيء بهذا الحكم به سنة ولم ينطق به كتاب.. فبين لم أوجب عليه الضرب حتى يموت؟

وجاء الجواب من الذي أوتي علم الكتاب:

- بسم الله الرحمن الرحيم: ﴿فَلَمَّا رَأَوْا بَاسْتًا قَالُوا آمَنَّا بِاللَّهِ وَحُدَّهُ وَكَفَرْنَا بِمَا كُنَّا بِهِ مُشْرِكِينَ﴾ *
فَلَمْ يَكْ يَنْفَعُهُمْ إِيمَانُهُمْ لَمَّا رَأَوْا بَاسْتًا ﴿١٦٤﴾.

ورضخ الجميع لحكم القرآن (١٦٥).

وفي قرارة نفسه كان المتوكل قد بدأ يرضخ لشخصية الامام وكلما ازداد ايماناً بهذه الحقيقة، ازداد حقداً وازداد توجساً منه.. انه لن ينفك عن التخطيط للقضاء عليه.. انه الوحيد من بين الجميع لم يطأطىء له رأساً ولم يخش سطوته.

وبدا القاضي بوجهه العبوس انساناً منطفاً منهزماً خاصة في اعتراضه على المتوكل في تقنية غلامه النصراني، قال في نفسه:

- كأنني لم أقرأ القرآن.. ولم أقرأ أبداً سورة الذهب.

واستعادت ذاكرته مشهداً قديماً قبل ربع قرن عندما القى سؤاله العويص على «محمد الجواد» يوم أراد المأمون تزويجه من ابنته واعترض عليه العباسيون!

كان محمد الجواد يومها في العاشرة من العمر تقريباً.. وتمرّ السنون ويدفعه القدر مرة أخرى إلى امتحان ابنه علي الهادي الذي اجتاز العشرين..

وفوجيء القاضي بعودة ابن السكيت الذي اكتست ملامحه بنشوة الظفر..

كان يحمل رقعة ملفوفة بعناية فيها أجوبة اربعة عشرة سؤال.. سلمها إلى القاضي ومضى..

وراحت عينا القاضي تعبران على الاسئلة وتتوقفان عند بعض الأجوبة الحساسة..

توقف متأملاً جواباً عن سؤاله: قال تعالى: ﴿أُوْثِرُوْهُمُ ذِكْرًا وَنَاثًا﴾ اذ كان الله يزوج عباده من الذكور، فكيف عاقب قوماً فعلوا ذلك؟

وجاء الجواب قوياً:

- «ان الله تعالى زوج الذكران المطيعين ومعاذ الله أن يكون الجليل العظيم عنى ما لبست به على نفسك تطلب الرخصة لارتكاب المحارم^(١٦٦)، ومن يفعل ذلك يلقي آثاماً يضاعف له العذاب يوم القيامة، ويخلد فيه مهاناً.. إن لم يتب».

وقفرت عيناه إلى سؤال آخر:

- أخبرني عن رجل اقرّ باللواط على نفسه أيحد أم يدرأ عنه الحد؟

فجاء الجواب:

«اما الرجل الذي أقر باللواط على نفسه ولم تقم عليه بينة وانما تطوع بالإقرار فاذا كان للإمام الذي من الله أن يعاقب عن الله، كان له أن يمن عن الله.. أما سمعت قول الله: ﴿هَذَا عَطَاؤُنَا فَامْنُنْ أَوْ أَمْسِكْ بِغَيْرِ حِسَابٍ﴾ فبدأ بالمن قبل المنع..

قد انبأنك بجميع ما سألتنا عنه فاعلم».

ادرك القاضي ان المتوكل لم يلتفت إلى مدلول الجواب الاخير: «فاذا كان للإمام الذي

من الله» وما فيها من سلب لشرعية الخلفاء الذين لا تتوفر فيهم شروط الخلافة، ولذا التفت إلى الخليفة وقدم له نصيحة مخلصه قائلاً:

- لا تسأل هذا الرجل عن شيء بعد مسائلي فانه لا يرد عليه شيء بعدها إلا دونها وفي ظهور علمه تقوية للرافضة» (١٦٧).

اكتفى الخليفة بان صوب إليه نظرة ازدراء وأدار ظهره إليه ليشعره بوجوب إخلاء المكان ولم ينس أن يصدر أوامره بتكثيف المراقبة على منزل الامام وابلاغه بعدم الخروج من البيت حتى لأداء الصلاة في المسجد الجامع.

وفي نفس الليلة كان المتوكل يجتمع مع شلته من المهرجين وكان علي بن الجهم ومروان ضمن الحضور، بدأت الحفلة بشرب الانخاب كالمعتاد، وكان المتوكل قد وقع اختياره على ابن الجهم لينفس عن عقده النفسية فقال مخاطباً ابن الجهم:

- سمعت أنك خطبت امرأة من قريش فلم يزوجوك لأنك لست قرشياً وأن عثمان ادخل عشيرتك في قريش ثم أخرجكم علي بن أبي طالب.

أجاب ابن الجهم ثائراً:

- هذه دعوى الرافضة لعنهم الله..

غمز المتوكل مروان ليحط من شأنه فقال مروان:

إن جهماً حين تنسب به ليس من عجم ولا عرب

لج في شمتي بلا سبب سارق للشعر والنسب

حاول ابن الجهم أن يتجاهل مروان وأوماً المتوكل لمروان أن يزيد الهجوم عليه فقال:

فخل قريش وانسابها فأنت لانسابها سارق

فان كان سامة جداً لكم فأمك مني إذا طائق

وتأجج الحقد في قلب علي بن الجهم ان منافسه مروان يحظى بمنزلة كبيرة أما هو فقد أصبح نصيبه الاحتقار والامتهان. قطع المتوكل عليه افكاره عندما سأله:

- يا علي أيما اشعر أنت أم مروان؟

- أنا يا أمير المؤمنين!

التفت المتوكل إلى مروان:

- ما تقول؟

- كل أحد اشعر مني ولا أصف نفسي، وما دام أمير المؤمنين راض عني فما أبالي.

والتفت إلى ابن الجهم قائلاً باحتقار:

- أنت أشعر مني؟!!

- أو تشكّ في ذلك؟

- اشدّ الشك.. أمير المؤمنين حكم بيننا.

- أمير المؤمنين يحاييك.

تدخل المتوكل قائلاً:

- هذا من عجزك يا ابن الجهم..

وأردف وهو يؤجج نار الاحقاد بين الشاعرين:

- لقد أبحث كل واحد منكما في هجاء صاحبه.

والتفت إلى أحد اصدقائه:

- احكم بينهما يا بن حمدون.

قال ابن حمدون.

- طرحتني بين أنياب ومخالب.. واما إذا أمرت فان اشعرهما عندي أعرفهما في الشعر.

قال المتوكل:

- قد سمعت يا علي.

قال ابن الجهم وقد فخره الحسد:

- انك تميل إليه.

- هذا عيُّ منك وعجز.. ان كنت شاعراً ماهراً فلا أفضله عليك.. اهجه إذا استطعت.

وجم ابن الجهم.

فقال الخليفة منتشياً بالمعركة:

- اهجه يا مروان.

فاندفع مروان:

ان ابن جهم في المغيب يعيبنني	ويقول لي حسناً إذا لاقاني
فاذا التقينا نال شعري شعره	ونزا على شيطانه شيطاني
صغرت مهابتة وعظم بطنه	فكأنهما في بطنه ولدان
ان ابن جهم ليس يرحم أمه	لو كان يرحمها لما هجاني

ودوت ضحكات المتوكل وامتلأ البلاط بضحكات الحاضرين..

التفت المتوكل إلى مروان:

- بحياتي عليك ان حضرك شيء آخر فهاته.

اندفع مروان ليسدد ضربته الأخيرة إلى ابن الجهم فشبهه بالمرأة قائلاً:

بنت جهم يا عليّ	صرت بعد قرشية
قلت ما ليس بحق	اسكتي يا نبطية
اسكتي يا بنت جهم	اسكتي يا حلقية

راح المتوكل يرفس برجليه من شدة الضحك^(١٦٨) وراحت الكؤوس تدور مرة أخرى.. وكانت برهان الجارية الحسنة تحمل دناً بلورياً فقال لها المتوكل:

- صبي الكأس في فمي.

وراحت الحسنة تصب الخمر في فم الخليفة السكران.

وكانت ليلة حمراء مثقلة بالمتع الآثمة.

وفي الصباح كان ابن الجهم يحزم امتعته فقد صدر أمر بنفيه إلى خراسان^(١٦٩) ولم تنفع
توسلات الشاعر الحقيير الذي باع نفسه للشيطان.

الفصل الحادي والعشرون

كان محمد بن الفرّج الذي زج في السجن.. سجن المطبق الرهيب منذ سنة ٢٣٢ يصلي
الظهر عندما ناداه السجنّ وسلمه رسالة قادمة من سامراء..

وعندما فض الرسالة أدهشته جملة تقول:

- يا محمد لا تنزل في ناحية الجانب الغربي.

قال في نفسه:

- يكتب اليّ وأنا في السجن!!؟

رجال شرطة السجن يعرفون محمداً هذا ويعرفون أنه شقيق عمر بن الفرّج الذي انحدر
بشخصيته إلى الحضيض ورضي أن يصبح جلاًداً بعد أن كان من المع رجال البلاط..

كانوا يحتقرونه لأنه يقدم على خطوة واحدة للتخفيف عن محنة أخيه في السجن، ولم
يتوسط أبداً لاطلاق سراحه.. كانوا يتمنون أن يروا عمر مكان أخيه وكانوا يتبارون فيما
بينهم عن حجم العذاب الذي سوف يصبونه عليه لو حصلت تلك المعجزة..

لقد القي في السجن فيما مضى مدة من الزمن، ولكنه استطاع أن يحصل على أمر
باطلاق سراحه مقابل بعض الخدمات.. لقد باع نفسه للشيطان.. أنه على استعداد أن يلبي
كل رغبات المتوكل حتى لو أمر بقتل أخيه لفعل ذلك!

وحصلت المعجزة في زمن قلّت فيه المعجزات وبدأت الحوادث بأن لفق عمر بن الفرّج
تقريراً عن صاحب خانات بغداد يتهمه فيها بأنه سبّ صحابة النبي ﷺ، فدوهم خان بغداد
واعقل الرجل وسيق مخفوراً ليمثل أمام قاضي الشرقية «أبو حسان الزيايدي» الذي تسنّم
القضاء مطلع العام أي قبل أشهر معدودة.

لم يجد عمر بن فرج صعوبة في العثور على الشهود فحشد سبعة عشر شخصاً تضاربت

شهاداتهم في المحكمة ومع ذلك فقد «دين الرجل البريء».

ولكن الحقيقة أن الجواسيس المزروعين في خانات بغداد سمعوه يهاجم سياسة المتوكل، وهدمه قبر سبط رسول الله ﷺ الحسين بن علي لأنها سابقة خطيرة جداً لم يجرؤ عليها حتى الامويين.

ولكي يُعدم الرجل لُفقت له هذه التهم الباطلة واعتقل بسبب سبه المزعوم للصحابه.. ولعل الذي حصل انه لعن كل من يسبّ علياً عليه السلام ومعنى هذا أنه يلعن خليفة المسلمين^(١٧٠).

ورُفعت القضية إلى سامراء.. إلى الوزير الحاقد عبيد الله بن يحيى الذي رفعها بدوره إلى المتوكل فجاءت الأوامر كما يلي:

- «يضرب المتهم ألف سوط.. وحتى الموت ثم تلقى جثته في مياه دجلة دون اجراء مراسم الصلاة باعتباره خارجاً على الشريعة ملحداً في الدين^(١٧١)».

وفي نفس اليوم اطلق سراح محمد بن فرج بعد ثمانية أعوام قضاها في سجن المطبق الرهيب، والعجيب أن يلقي القبض على أخيه عمر بن فرج ويحكم بالسجن، وأن يصفع يومياً.

أما محمد فقد انطلق إلى خان بغداد بسبب استمرار تجميد جميع أمواله، وهناك سمع تفاصيل عن قضية صاحب الخان الذي القي القبض عليه.

كثيرون من أهالي بغداد حضروا تنفيذ الحكم وشهدوا مقاومة الرجل وكان شيخاً وقوراً، ظل يقاوم السياط القاسية ببسالة أما محمد بن عبد الله بن طاهر حاكم بغداد، فقد اكتفى بالنظر إليه بقسوة لا مثيل لها..

في السوط الثلاثئة اسلم الشيخ البريء الروح، وظل جسده الملتهب يتلقى السياط دون ألم.. لقد حُلقت روحه بعيداً.. تركت هذا الإهاب الطيني، إلى عوالم مغمورة بالسلام.

القي جثمان الشيخ في مياه دجلة الحزينة فحملته بعيداً إلى شواطئ مهجورة.

وفي مدينة حمص الثائرة كان الجنود الاتراك يعيشون فساداً بعد قمع الثورة، فتهدمت

صوامع وبيع وكنائس يذكر فيها اسم الله.

وكشفت المتوكل عن وجه الطاغية بعد أن وصلت أوامر رهيبة في تنفيذ احكام
الاعدام:

- يجلد زعماء الثورة حتى الموت.

ثم يصلبون على أبواب منازلهم.

يرسل عشرون من أبرز وجوه المتمردين إلى سامراء.. بعد جلد كل واحد منهم ثلاثمائة
سوط.. تهدم جميع الكنائس في المدينة وطرد جميع النصارى من المدينة!

كان الفصل صيفاً قانظاً وشمس آب ترسل من اللهب ما يشوي الوجوه..

ووقع حادث عجيب إذ تحشدت في سماء سامراء غيوم لا يعرف من أين قدمت،
ومالبت الرعود أن دوت في الفضاء.

وتدفق المطر غزيراً^(١٧٢) وكانت أجساد المصلوبين تغتسل في المطر.

وفي بغداد انقضت الشهب والنيازك^(١٧٣) منذ الساعات الأولى من المساء وظلت تنهمر
مثل المطر وذلك مساء الاربعاء سنة ٢٤١هـ آب سنة ٨٥٥م.

وأغارت الجيوش الرومية على حدود الدولة الإسلامية وأسرت آلاف من «الزط» نساءً
ورجالاً وأطفالاً كما ساق آلاف المواشي^(١٧٤).

كما تعرضت الدولة الإسلامية في حدودها الغربية إلى غارات «البجة»^(١٧٥) للسيطرة
على مناجم الذهب والماس.

وفي منتصف الليل دهم منزل الامام وأخذ مخفوراً إلى قصر المتوكل وهناك أودع في
سجن في سرداب القصر وفي اليوم التالي انتشرت شائعات حول نية الخليفة في اغتيال ابن
الرضا.

من أجل هذا جاء رجل من أقصى المدينة يسعى.. جاء يتسم أخبار ابن الرضا، فولج
القصر وهو يكتم ايمانه، انضم إلى جموع الناس التي كانت تنتظر قضاء حوائجها.

كان «زرافة» الحاجب بطوله الفارع الذي يشبه الزرافة يؤدي عمله، عندما وقعت عيناه عليه أوماً إليه.

- يا صقر ما شأنك.. هل جئت لشيء؟

- خير أيها الاستاذ.

وأشار إليه:

- اقعد.

وانتحى صقر زاوية في المكان واجتاحته موجة من الندم وشعر بأنه وقع في ورطة.. ماذا يقول للحاجب.. ليس هناك ما يبرر مجيئه؟!

ان زرافة ليس من الغباء بحيث لا يعرف لماذا حضر بن أبي دلف إلى القصر.. لقد جاء يسأل عن ابن الرضا.

قال زرافة بعينين نافذتين:

- لعلك تسأل عن مولاك؟

قال صقر متوجساً:

- ومن مولاي؟ مولاي أمير المؤمنين.

اشار بكفه الغليظة إلى فمه:

- اسكت مولاك الحق هنا.. في سرداب القصر لا تحتشمني انني على رأيك.

- الحمد لله.

- أتحب أن تراه؟

- نعم.

- انتظر حتى يخرج مسؤول البريد.

وعندما غادر صاحب البريد، قال زرافة لغلام له:

- خذ بيد صقر وارشده إلى الرجل العلوي المحبوس..

وأضاف:

- اتركهما لوحدهما!

تقدم الغلام الذي أخذ معه مشعلاً إلى السلالم المؤدية إلى سرداب القصر.. ووجد نفسه في ظلمات متكاثفة.. واجتاز الغلام بعض الممرات وكانت الخطى يتردد صداها في الفضاء الخالي، وخيل إلى صقر انه سمع زئير أسد من وراء الجدران الصخرية. أوماً الغلام إلى حجرة وتركه عائداً من حيث أتى.. وتقدم صقر من الحجرة متوجساً، وتناهى إليه صوت تلاوة حزينة:

- ﴿فَاتَّقُوا اللَّهَ وَأَطِيعُوا عَنِّي * وَمَا أَسْأَلُكُمْ عَلَيْهِ مِنْ أَجْرٍ إِنْ أَجَرْتُ إِلَّا عَلَىٰ رَبِّ الْعَالَمِينَ * أَتُبْنُونَ بِكُلِّ رِيعٍ آيَةً تَعْبُونَ﴾؟!

﴿وَتَتَّخِذُونَ مَصَاصِعَ لَعَلَّكُمْ تَخْلُدُونَ﴾؟!

﴿وَإِذَا بَطِشْتُمْ بَطِشْتُمْ جَبَّارِينَ﴾.

﴿فَاتَّقُوا اللَّهَ وَأَطِيعُوا﴾.

﴿وَاتَّقُوا الَّذِي أَمَدَّكُمْ بِمَا تَعْلَمُونَ﴾..

﴿أَمَدَّكُمْ بِأَنْعَامٍ وَبَنِينَ﴾..

﴿وَجَنَّاتٍ وَعُيُونٍ﴾..

﴿إِنِّي أَخَافُ عَلَيْكُمْ عَذَابَ يَوْمٍ عَظِيمٍ﴾..

﴿قَالُوا سَوَاءٌ عَلَيْنَا أَوُحِشْتَ أَمْ لَمْ تَكُنْ مِنَ الْوَاعِظِينَ﴾..

﴿إِنْ هَذَا إِلَّا خُلُقُ الْأَوَّلِينَ﴾..

﴿وَمَا نَحْنُ بِمُعَذِّبِينَ﴾..

﴿كَذَّبُوهُ فَأَهْلَكْنَاهُ إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَةً وَمَا كَانَ أَكْثَرُهُ مُؤْمِنِينَ﴾..

﴿وَإِنَّ رَبَّكَ لَهُوَ الْعَزِيزُ الرَّحِيمُ﴾..

وولج صقر الحجرة فألقى مولاه جالساً على حصير وإلى جانبه قبر محفور.

- سلام عليك.

أشار الإمام إليه أن اجلس:

- سلام عليك..

وبعد لحظات صمت قال ابن الرضا مشفقاً عليه:

- يا صقر ما أتى بك.

قال صقر بحزن:

- سيدي جئت أتعرف خبرك.

والقى نظرة على القبر واجهش بالبكاء فقال الامام بحب:

- يا صقر! لم يحن الأجل بعد.

- الحمد لله!

تساءل صقر بعد لحظات سكوت:

- يا سيدي حديث يروى عن النبي ﷺ لا أعرف معناه.

- وما هو؟

- قوله ﷺ: لا تعادوا الايام فتعاديكم.

أجاب الإمام:

- نحن الأيام ما قامت السموات والأرض.

السبت: رسول الله.

الأحد: أمير المؤمنين.

الاثنين: الحسن والحسين.

الثلاثاء: علي بن الحسين، محمد بن علي وجعفر بن محمد.

الأربعاء: موسى بن جعفر، علي بن موسى، محمد بن علي، وأنا.

الخميس: ابني الحسن.

الجمعة: حفيدي واليه تجتمع عصبة الحق.. وهو الذي يملأ الدنيا قسطاً وعدلاً كما ملئت ظلماً وجوراً.

هذا معنى الأيام فلا تعادوهم في الدنيا، فيعادوكم في الآخرة^(١٧٦).

وقال الامام:

- اتحب أن ترى بقعة من بقاع الجنة يا صقر؟

- نعم يا سيدي!

- انطلق إلى طوس وزر قبر جدّي الرضا!

اغتسل وصل عند رأسه ركعتين.

ان موضع قبره لبقعة من بقاع الجنة، لا يزورها مؤمن إلا اعتقه الله من النار، واحله دار القرار^(١٧٧).

وعندما مضت ساعة قال الامام:

- ودّع واخرج فلا آمن عليك^(١٧٨).

ربما يعتقلونك بسبب زيارتك لي.

كان صقر يودّ لو امتد به اللقاء إلى مالا نهاية.. انه يشعر في حضرة هذا العلوي الطاهر بأنه يجلس على ضفة نهر ظليل.. يشمّ شذى الورد والكلمات المضيفة التي تتدفق من نبع الحقيقة.

نظر إلى رجل أوجب الله طاعته على الناس.. وتأسف لهذه الأمة التي ضيعت رجالها فضاعت، ولم تحترم قادتها الحقيقيين فسحقت تحت الاقدام..

يا لهوان الدنيا؟!

يتربع رجل تافه على عرش الحكم.. بينما يلقي بالإنسان الطاهر في ظلمات السرايب!!

وقبل أن يغادر اضاء الامام له قنديلاً من الحقائق:

- «الدنيا سوق.. ربح فيها قوم.. وخسر فيها قوم آخرون»^(١٧٩).

الفصل الثاني والعشرون

ليس هناك من يعرف بالضبط السبب الذي دفع المتوكل إلى طرد القاضي ابن اكثم من مناصبه في سلطة القضاء ومحكمة الاستئناف ومصادرة أمواله.

ولكن من المؤكد أن الجميع يعرفون تلذذ الطاغية في رؤية مشهد السقوط المدوي..

أمر عجيب لقد قام المتوكل برفعه من الحضيض الذي قذفه فيه المأمون عندما قال عنه: «فيه خبث سريرة وسوء طوية» وأوصى أخاه المعتصم ألا يقربه ولا يستوزره..^(١٨٠).

ولم يكن المتوكل يكن احتراماً لأبن اكثم ولكن توصية أحمد بن حنبل جعلته يعينه رئيساً لسلطة القضاء^(١٨١).

هو الآن جليس البيت يقلب كفيه فيراهما صفراً من كل ما جمعه من الأموال أخذوا منه خمسة وسبعين ألف دينار، وعثرت الشرطة اثناء التفتيش على الفتي دينار كان قد اخفاهما داخل اسطوانة وها هو يتلقى أمراً بإخلاء القصر الهاروني^(١٨٢) كما سمع بمصادرة الدولة أربعة آلاف جريب له في البصرة.. ففكر بالذهاب إلى مكة.. لقد بات فقيراً معدماً.. لم يعد يملك في العراق ناقة ولا جمل^(١٨٣).

اطلق سراح الامام في الليل سراً ولم يسمع أحد باعتقاله كما لم يسمع أحد بإطلاق سراحه.. ما يزال الامام جليس البيت يخشى الناس زيارته لما يترتب على ذلك من تنكيل وقد منع من مغادرة البيت إلا إذا أراد الذهاب إلى أرضه للعمل.

في المدينة التي تشبه معسكراً كبيراً^(١٨٤)، وبالرغم من ضجيج الحياة وكثرة الباعة في الأسواق فإن الشوارع تكاد تكون مقفرة إلا من روث الدواب فالأتراك لا يتركون عاداتهم في ركوب صهوات الجياد بكامل اسلحتهم ولا يكادون يراعون النظام وقد اعتاد الناس هذه الفظاظة، لأنهم في كل الاحوال لا يستطيعون أن يغيروا شيئاً من ثقافة هذه المدينة التي أنشئت في الاساس كثكنة عسكرية لإيواء مئتين وخمسين ألف جندي تركي مع أسرهم.

كان هناك رجلان غربيان يتجولان في المدينة أحدهما أعرابي رث الثياب لكأنه وصل تَوْاً من صحراء قاحلة جرداء.. وآخر يمتطي بغلة رمادية اللون يقودها غلام.

قال الغلام وقد شعر بالتعب:

- كيف تريدنا نعر عليه دون سؤال؟!

قال الرجل الذي يرتدي زي النصارى:

- أما سمعت في الخان.. ان الخليفة قد منعه من مغادرة المنزل والسؤال عنه يعرضنا للخطر.. هذه مدينة مليئة بالجواسيس..

واستأنف بعد لحظات صمت:

- أنا أخشى الخليفة.. وهذا ابن الرضا رجل مبارك لقد سمعت الكثير من كراماته.. انني اعتقد ببركته.. انه ابن نبي!

فغر الغلام فاه!

- فلماذا لا تعتنق الإسلام؟

- يا بني ليس سهلاً أن يدع الانسان دين الأجداد.

وعندما ولجا درب الحصا شم رائحة أرض مرشوشة بالماء وداخله شعور بأن المنزل الذي يبحث عنه يكمن هنا قال لغلامه:

- اطرق الباب واسأل لمن هذا المنزل.

تقدم الغلام وطرق الباب طرقات خفيفة، وفي باله أن يبحث عن عذر مقبول كأن

يطلب شربة ماء مثلاً!

انفتح الباب وظهر غلام شديد السواد كلؤلؤة سوداء..

سأل الغلام بعد أن حيّاه.

- لمن هذه الدار؟

- لابن الرضا.

وأردف بعد أن أشار إلى الرجل الذي يمتطي دابته:

- أنت يوسف بن يعقوب؟!

ودهش النصراني الذي بادر قائلاً:

- نعم!

- انزل!

ترجل يوسف ومضى يتبع الغلام الأسود، الذي قاده إلى الدهليز وأمره أن ينتظر.

دخل كافور حجرة تفوح منها رائحة الورد ثم خرج بعد لحظات ليقول:

- أين المئة دينار؟

كاد يوسف يصعق من المفاجآت: كيف عرف ابن الرضا أنني حملت له مئة دينار

هدية؟!

أخذ الغلام صرة الدنانير وولج الحجرة مرة أخرى ليظهر بعدها قائلاً:

- تستطيع الدخول.

نهض يوسف وولج الحجرة المفعمة برائحة الورد كان ابن الرضا جالساً وحده فنظر

إليه بعطف وحنان وقال:

- أما أن لك؟!

وأدرك يوسف أنه يدعو إلى الإسلام رسالة الله الأخيرة.

فقال:

- يا مولاي قد بان لي من البرهان مافيه الكفاية.

أجاب الامام وهو يعرف تشبته بدين الآباء:

- هيهات.. انك لا تسلم..

وسكت لحظات ليقول:

- ولكن سيسلم ولدك.. سيكون من شيعتنا..

ونظر من خلال كوة إلى الافق الازرق البعيد وتمتم:

- يا يوسف ان أقواماً يزعمون ان ولايتنا لا تنفع أمثالك... امض فيما وافيت له..
سوف ترى ما تحب.

ونفض النصراني الذي شعر بان البركة تغمره.. انه لم يشعر بالطمأنينة إلا في
حضرة هذا السيد المبارك!

نهض واثقاً من أن الخليفة لن يمسه بسوء بل أنه سوف يحقق هدفه من لقاء المتوكل..
فغادر الحجرة آمناً تملأ السكينة قلبه وفي ذكرائه مشاهد متألفة عن زهد يشبه زهد
الأنبياء^(١٨٥).

لم يمض من الوقت سوى لحظات عندما نهض الامام ليرتدي ثيابه فقد آن له الذهاب
إلى أرض زراعية له يعمل فيها.. الأعرابي الذي كان يجتاز الأزقة والشوارع باحثاً عن منزل
ابن الرضا وصل إلى درب الحصا بعد أن عثر على من يرشده..

طرق الباب فخرج إليه صبي في العاشرة اسمر الوجه حياً الأعرابي بأدب وأخبره بأن
ابن الرضا يعمل في قرية خارج المدينة وأرشده إلى الطريق التي توصله إليه.

ومضى الأعرابي لا يلوي على شيء.. اجتاز الشوارع والاسواق ثم وجد نفسه خارج
المدينة كان الوقت ضحىً وشمس خريفية تغمر الدروب الملتوية خلال الزروع فيما ظهر دير
على ضفاف النهر تحيطه الكروم.

وعندما وصل الاعرابي القرية لم يجد صعوبة في العثور على الرجل الذي يبحث عنه.
كان الشاب العلوي مستغرقاً في عمله في أرض تفوح منها رائحة طيبة.. حيّاه بأدب
وابتسم العلوي الأسمر وهو يردّ التحية باحسن منها.. قال الاعرابي وقد تألقت عيناه
بالأمل:

- يا بن رسول الله! أنا رجل من أعراب الكوفة ومن المتمسكين بولاية جدك علي بن
أبي طالب، وعليّ دين فادح عشرة آلاف درهم، ولم أر من أقصده سواك.
غمر الحزن الوجه الاسمر.. الناس البسطاء يتضورون جوعاً والمترفون من الحاكمين
ينهبون خيرات الأرض..

دعا الامام الاعرابي إلى الجلوس فجلس عند جذع شجرة وجلس الامام بعد أن
أستخرج قلماً ورقعة ودواة وكتب صكاً بمبلغ عشرة آلاف درهم يتوجب تسديده بتاريخ
هذا اليوم..

قال الامام وهو يسلمها إلى الاعرابي:

- خذ هذه الورقة فاذا جئت منزلي في «سر من رأى» وحضر عندي جماعة فطالبي
بالدين الذي في الورقة، واغلظ عليّ في ترك ايفائك..

- يا سيدي لا تستطيع أن أفعل ذلك!

- لا تخالفني فيما أقول لك.

نظر الاعرابي إلى الوجه الاسمر المضيء.. الجبين الواضح تجمعت فوقه حبات عرق
الفلاحين كلؤلؤ منضود، وقد فاحت رائحة زكية.. وقبل أن يغادر الاعرابي قال مستغرباً:

- سيدي أين الرجال؟! أتبأشر العمل بنفسك؟!

- قال الامام وهو يمسك بالمسحاة بقوة:

- قد عمل بالمسحاة من هو خير مني ومن أبي في أرضه.

- من هو يا سيدي؟!

- رسول الله ﷺ وأمير المؤمنين وآبائي كلهم عملوا بأيديهم وهو من عمل الانبياء والمرسلين والأوصياء الصالحين^(١٨٦).
- هتف الاعرابي وهو يغادر الأرض الطيبة:
- السلام عليك وعلى آبائك الطاهرين.
- وفي الأصيل كان الاعرابي يترصد من بعيد الباب المشرعة لاستقبال الزائرين..
- ومرّت ساعة ورأى ألواناً من الناس تفد إلى المنزل، تدخل ورأى بعض الوجوه القاسية تدخل هي الأخرى ولفت نظره شيخ طيب تبدو عليه سيماء الصلاح ترجل عن برذونه ودلف إلى المنزل فدلف معه الاعرابي..
- وهب الإمام لاستقبال الشيخ قائلاً:
- مرحباً بأبي هاشم.
- لم يجلس الاعرابي وانما ارتدى جلد النمر وهو يمسك بالرقعة ملوحاً:
- لقد جئت لاستيفاء الدين الذي بدمتك.
- أجاب الامام معذراً:
- ولكن ليس بحوزتي شيء من المال فأمهلني.
- إلى كم هذا التسويف؟!
- لو كان عندي مال لاعطيتك يا أخا العرب.
- كلاً لن أخرج من العسكر حتى استوفي المال.
- قال الامام بلهجة فيها محبة:
- أجلّني إلى غد أو بعد غد.
- سأبيت الليلة في الخان وأعود صباح غد.
- وغادر الاعرابي المنزل فيما كانت بعض العيون ت برق كعيون الأفاعي..

مع ارتفاع الأذان للصلاة من فوق المأذنة الملوية، التي بدت كفنار في مرفأ مهجور..
غادر الجميع المنزل باستثناء أبي هاشم الجعفري.

انطلق رجل تبرق عيناه كأفعى إلى القصر وقدم تقريراً مفصلاً عما جرى في منزل ابن
الرضا ولم ينس بطبيعة الحال قصة الأعرابي..

كان الامام جالساً فوق حصير في حجرة مفروشة بالحصى، ليس فيها من زخرف الحياة
شيء غير سيف هو ذكرى والده الراحل.. وقد بدا السيف في غمده مقهوراً وكأنه ينتظر
لحظة الانطلاق في دروب الثورة والجهاد.

وفي الصباح كان المتوكل قد أمر بحمل ثلاثين ألف درهم إلى منزل الامام لتسديد ديونه
وعندما جاء الاعرابي ناوله الامام المبلغ كله قائلاً:

- خذ هذا المال فأقض به دينك، وانفق الباقي على عيالك.

واهتز الاعرابي لخلق الامام الكريم:

- ان ديني يقتصر على ثلث هذا المبلغ يا سيدي!

- انه لك انفقه على عيالك!

وأخذ الاعرابي كيس النقود وهو يردد مأخوذاً:

- الله أعلم حيث يجعل رسالته.

وانقلب الاعرابي إلى أهله مسروراً يملأ صدره بالهواء الطلق.

الفصل الثالث والعشرون

حل شتاء سنة ٨٥٦م وكان بدر شعبان قد أخذ بالتناقص ووصلت انباء محزنة: فقد
ضربت الزلازل المنطقة الوسطى من إيران وقد لقي آلاف الناس حتفهم تحت الانقاض^(١٨٧).

كان منزل الامام مغمور بالسكينة وقد شابته حالة من الحزن.. لزم ابن الرضا الفراش
وقد أملت به وعكة صحية..

وصل أبو هاشم المنزل متأخراً، وعندما وضع كفه على الجبين الاسمر ألفاه يتوهج من

شدة الحمى..

فتح ابن الرضا عينيه وعندما وقعتا على أبي هاشم غمغم:

- ابعثوا رجلاً إلى الحائر^(١٨٨) يدعو لي.

كان أبو هاشم الذي قدم من بغداد متعباً لا يستطيع أن ينفذ هذه المهمة.. لهذا غادر المنزل للبحث عن أحد اصدقاء الامام فطرق منزل علي بن بلال وعندما جلس لحظات قال:

- ان سيدنا ابن الرضا يطلب من أحدنا أن ينطلق إلى الحائر للدعاء له قال علي بن بلال: وقد انبعث في قلبه سؤال:

- ما يصنع بالخير وهو الخير؟!

الحسين امام وهو امام فلماذا الدعاء عند مرقد الحسين، وما الفرق بين إمام وإمام؟!
وسكت أبو هاشم، ولكن ابن بلال أعرب عن استعداده للذهاب نزولاً عند رغبة الامام..

وعاد أبو هاشم إلى منزل الامام.. جلس عند ابن الرضا.. الوجه الاسمر يتألق نوراً وسكينة ان قلق العالم كله لن يستطيع يؤثر على صفاء هذا الانسان الذي مسّه الله وطهره تطهير..

لم يمكث أبو هاشم سوى وقت قليل ثم غادر المنزل متجهاً إلى شارع الخليج حيث ترسو القوارب والسفن الشراعية.. وهناك على الشاطئ الرملّي وحيث تندفع أمواج دجلة جلس الرجل الذي هدّت قامته السنون وراح يدندن بأبيات شعرية ليروح بها عن نفسه^(١٨٩):

في المساء وبعد أن تألقت الغيوم في السماء جاء أبو هاشم يتفقد صحة الامام فوجده منطلق الوجه طيباً فجلس عنده وراح يتأمل وجهه المضني فتألق في أعماقه اسم فاطمة الزهراء فتساءل:

- لم سميت فاطمة: الزهراء.

قال ابن فاطمة:

- كان وجهها يزهر لأمير المؤمنين من أول النهار كالشمس الضاحية وعند الزوال كالقمر المنير، وعند غروب الشمس كالكوكب الدرّي^(١٩٠)، وعندما أراد أن ينهض مودّعاً قال له الإمام:

- إجلس.

وعاد إلى جلسته وقد أشرقت نفسه بالنور وتذكر كلمات ابن بلال فقال:

- ان ابن بلال قال: ما يصنع بالخير وهو الخير!

أجاب الامام ليؤكد مجد الحسين:

- ألا قلت له: إن رسول الله كان يطوف بالبيت ويقبل الحجر الاسود، وحرمة النبي والمؤمن أعظم من حرمة البيت؟

- جعلت فداك لو كنت أعرف مثل هذا الجواب لم أرد عليك.

- يا أبا هاشم هذه مواطن يحبّ الله أن يتعبّد له فيها، فأنا أحب أن يدعى لي حيث يحبّ الله أن يُعبّد^(١٩١).

يا أبا هاشم أن الله عز وجل جعل من أرضه بقاعاً تسمى المرحومات، أحب أن يدعى فيها فيجيب، والله عز وجل جعل من أرضه بقاعاً تسمى المنتقحات، فإذا كسب الرجل مالا من غير حلّ سلّط الله عليه بقعة منها فانفقها فيها^(١٩٢).

كان الظلام قد اصبح حالكا فسطعت النجوم. ونهض أبو هاشم ليغادر المنزل، وخيل إليه أنه رأى شبحاً يمرق في الظلام..

لشدة ما يمقت هذه المدينة المليئة بالأشباح والجواسيس.. جواسيس لا يمكن أن يكتشفهم، فربما كان الجاسوس غلاماً أو جارية.. ربّما كان شحاذاً يصادفه المرء عند أبواب المساجد..

هناك عشرات الأذان التي تنصت لكل ما يقال.. وآلاف العيون التي تبرق كعيون الافاعي.. وعشرات الوجوه المثلثة..

ومضى أبو هاشم يشق طريقه في الليل وحيداً يفكر.

في الصباح كانت سامراء تضج بالحركة والحياة، بعد الاعلان عند توقيع هدنة مع الروم سوف يفرج عن الأسرى بعد أن نجح نصر بن الأزهر^(١٩٣) في مهمته في القسطنطينية.

رياح كانون تهبّ قارسة البرد لكنها لم تبدد الفرجة التي عمت بغداد حيث تدفق الكثير من أهلها إلى سامراء لمرافقة الوفد الذي سيتجه إلى شواطئ نهر «اللامس» حيث تتم هناك عملية الافداء.

وأعلن ان القاضي جعفر بن عبدالواحد سوف يشهد عملية فداء الاسرى، وقد أناب في منصبه فتى يدعى «ابن أبي الشوارب».. وعندما أهل شهر رمضان كان كانون الثاني قد رحل تاركاً هبوب الرياح الباردة لشباط، وكان الناس يتطلعون إلى عيد الفطر بشوق فهو اليوم الذي تعين أن يكون موعداً لفداء الف رجل وامرأة يعيشون تحت نير الروم^(١٩٤).

وفي المساء دشّن المتوكل قصره الجديد «المليح» الذي فرغ العمل منه وكان جاهزاً لاستقبال الخليفة منذ اسبوع وقد كلف بناؤه ٥/٠٠٠/٠٠٠ درهم^(١٩٥).

جلس المتوكل مسترخياً فوق سرير ذهبي يستمع إلى قصيدة البحري:

واسـتـنـم الصـبـح في خـيـر وـقـت	فـهـو مـغـنـى أنـس ودار مـقـام
نـاظـر وـجـهـه المـلـيـح قـلـوب	يـسـطـيـع مـعـلـنـاً بـالـسـلام
الـبـسـا بـهـجـة وقـابـل ذـا ذاك	فـمـن ضـاحـك وـمـن بـسـام ^(١٩٦)

وبعدها قدّم مشعوذ هندي بعض الألعاب السحرية^(١٩٧).

وفي آخر الليل استحال البلاط إلى بؤرة للزديلة.. وكان المهرجون يفعلون كل شيء يجعل المتوكل منبسّطاً مرحاً، وكان الخليفة قد ثمل تماماً فدخل بغا الشرابي ليصرف الندماء ويقود الخليفة إلى مخدعه خلف الستائر الحريية.

الفصل الرابع والعشرون

انفجر الوضع داخل البلاط بعد تنامي نفوذ زوجة الخليفة اليونانية الاصل.. فهذه المرأة الطموحة التي كانت في الاصل مجرد جارية حسناء استغلت كل الوسائل في السيطرة على

زوجها الذي أصبح طوع بنانها.. ثم مدت نفوذها إلى البلاط عبر رئيس الوزراء الفتح بن خاقان الرجل الثاني في الدولة، وشيئاً فشيئاً أصبحت «قبيحة»^(١٩٨) المرأة القوية في البلاط. وها هي الآن تدفع ابنها المعتز إلى كسب المزيد من النفوذ حتى غدا ابن القصر المدلل.. وحتى أصبح قصره «بركوارا» الذي كلف بناؤه عشرين مليون درهم^(١٩٩) من أجمل قصور سامراء.

ثم فوجيء الجميع بظهور عملة جديدة للدرهم تحمل اسم المعتز وهذا ما أثار كثيراً من اللغط.. لأنه يعدّ إهانة لولي العهد الأول «المنتصر» واكتشف الجميع أن زوجة الخليفة قد باتت الحاكم الفعلي للبلاد.. خاصة بعد أن ظهر بان الخليفة قد عين ولده المعتز مسؤولاً أعلى لخزائن الدولة ودور الضرب وسك النقود^(٢٠٠).

وأخذت الدسائس في القصر طابعاً خطيراً بعدما تجرأ «عبيدالله بن يحيى» الوزير المتنفذ في البلاط على تقديم تقرير إلى الخليفة حول ميول ولي العهد «المنتصر» وتعاطفه مع العلويين، وهذا اتهام خطير قد يؤدي إلى الموت.

وقد تناقل الناس أستياء المنتصر من تصرفات أبيه المعادية لأهل البيت خاصة اقدمه على تدمير مرقد الحسين عليه السلام.

وفي بغداد وسامراء بدأ الهمس الخائف عن «المهدي» من ذرية فاطمة الذي «سيخرج فيملاً الأرض قسطاً وعدلاً كما ملئت ظلماً وجوراً».

لم يعد التكهن بتصرفات المتوكل بعد اليوم، أصبح هدفه الوحيد الاستمتاع بالمتع الآثمة.. وقمع من يتصوره يقف في طريقه.. يجب أن يستحيل الشعب إلى بقرة حلوب لا تعرف غير الطاعة ودر اللبن وبسخاء وإلا فسوف يحلب الدماء حتى الموت..

يجب أن يتحول الناس إلى عبيد له.. لا يعرفون غير تنفيذ أوامره والخشوع في حضرته.. واكثر ما يرهبه أن يرى انساناً حراً مستقلاً التفكير.. انه بهذا يتحداه ويواجه حكومته..

من أجل هذا عندما وصله تقرير عن ميول ابن السكيت الشيعية استدعاه ليرهبه..

كان ابن السكيت الذي قضى أعواماً في تعليم المعتز والمؤيد والمنتصر قد اخفق في بذر

فكرة الخير في قلب المعتز الذي نشأ في احضان امرأة فاسدة.. اما المؤيد فقد نشأ ضعيف الارادة تماماً.. ولكنه يأمل خيراً من المنتصر، فهذا الشاب الذي نشأ في احضان فتاة صالحة متديّنة قد بدأ يتفتق عن عقل فذ وإرادة واستقلال في التفكير وتعاطف مع الخير والعدل..

دخل ابن السكيت البلاط ليقف وجهاً لوجه أمام الطاغية الذي يحفه حرس شديد وقد بدا «باغر» بطوله الفارع وقسوة ملامحه عملاقاً كالذي تصفه الحكايات البغدادية.. ولوهلة تذكر مسرور خادم الرشيد ذلك الكائن الغامض الذي ينطوي على كثير من الاسرار.

ظل ابن السكيت واقفاً وذهبت تحية للخليفة ادراد الصمت الذي جثم فوق البلاط..

كان المعتز والمؤيد واقفين يرتديان الزي الرسمي، والحرس التركي يقف كالتماثيل الحجرية كما اصطف عشرة من الحراس الزنوج بأيديهم الرماح الطويلة كل هذه المخلوقات تنتظر مجرد اشارة واحدة من هذا المخلوق الضئيل الأصفر الساقين.. انه يستمد جبروته من خنوع هذه النفوس الآدمية التي انسلخت عن انسانيته واستحالت إلى قطع من الذئاب البشرية.

تصوّر المتوكل أن ابن السكيت قد أُرهب بمافيه الكفاية، وأنه سوف ينهار مع أول كلمة.. سوف يهزم وسيطيح بحريته وكرامته فالبقاء حياً يستحق كل التضحيات.. حتى بالكرامة قال المتوكل دون مقدمات:

- يا يعقوب! أيهما أحبّ اليك ولدائي هذان.. أم الحسن والحسين؟

تفجّر غضب مقدس في اعماق ابن السكيت.. لم ير أمام عينيه سوى جثة محنطة.. فهذا الطاغية يريد سحق كرامته وهيهات؛ أجاب بكلمات تتشظى بسالة وتحدياً:

- والله ان قبر خادم علي خير منك ومن ابنك!

استحال الطاغية إلى ذئب لم يكن ليخطر في باله أن يسمع مثل هذا الجواب.. اشار إلى حرسه التركي فانقضوا عليه كالوحوش.. وراح الانسان الذي ثأر لكرامته يتلقى الركلات بصبر عجيب حتى هوى فوق أرضية البلاط.

وأمر المتوكل جلاذاً أن يستلّ لسان الضحية من قفاه^(٢٠١).

وغمغم المعتز وهو يضع قدمه فوق عنق معلمه بنذالة:

- إذا وليت الخلافة لأبيدن آل أبي طالب.

وفي المساء حمل قارب شراعي جثمان الشهيد إلى بغداد حيث دفن هناك^(٢٠٢).

وعندما سمع الامام الهادي بالنبا تجمعت في عينيه الدموع لقد فقد صديقاً عزيزاً^(٢٠٣) وعالمًا كبيراً، وانساناً كريماً وفي اليوم التالي تسربت أخبار أكيدة عن نية الخليفة السفر إلى دمشق واتخاذها عاصمة له^(٢٠٤)، كما شيع جثمان كاتب البلاط ابراهيم الصولي.

وفي المساء كان الفرّاشون يفرشون دكة مرمية واسعة في الحديقة الخلفية من القصر حيث نبتت اشجار الآس.. وفيما كان المنتصر ولي العهد الذي تأزمت علاقاته مع والده في طريقه بين قصر الجوسق الخاقاني إلى قصر «الملّيح» كان المتوكل قد اتخذ مكانه بين الوسائد الوثيرة فيما انتصب خلف الاشجار حرس تركي.. أما «باغر» فقد وقف قريباً من الخليفة وفي راسه توج طموحات لا يعرفها أحد، ولم يلحظ أحد أيضاً علاقاته الوثيقة مع موسى بن بغا الذي حمل اسم بغا الصغير والذي اختص بتقديم دنان الخمر والاشراف على حفلات الخليفة.. أما أبوه بغا الكبير فقد غادر سامراء إلى الشام استعداداً لغزو جديد.

أراد المتوكل استفزاز ابنه الذي ثبت لديه تعاطفه مع العلويين واستيائه من سياسته تجاههم. قال له متهمكاً:

- يا رافضي.. ألا تسأل ربك الاسود عن هذا الآس ماله قد اصفر؟ فانك تزعم أنه يعلم الغيب!!

أجاب المنتصر بآتران:

- يا أمير المؤمنين إن ربي الله والذي تعنيه لا يعلم الغيب..

ومع ذلك فأنا لا شك بأنه يعلم أشياء كثيرة.. انه من أهل بيت الوحي.

نظر المتوكل إلى ابنه باستياء:

- سوف اسميك المنتظر بدلاً من المنتصر..

- لماذا يا أبي؟؟

- لأنك تنتظر موتي لتصبح خليفة.

- من قال ذلك.. انني أتألم من أجل ابناء عمومتي.. مشردين في الأرض لا يملكون قوت يومهم.. أما المخنثون فقد انتفخت بطونهم من الحرام.

- ماذا تنتظر.. لماذا لا تذهب إلى ربك الأسود فتسأله.

- غداً يا أبي.

صاح بهياج:

- كلا الآن يا منتظر.. الآن.

انحنى المنتصر لأبيه الخليفة وغادر المكان..

لم يجد الشاب الذي اجتاز العشرين صعوبة في لقاء ابن الرضا.

لشدهما يحب هذا الانسان الهادي.. وجهه الاسمر يغمره سلام وطمأنينة.. ترى لماذا يحقد أبوه على هذا الرجل العلوي الذي لا يريد شيئاً سوى انتشار الفضيلة والخير والمحبة؟!؟

قال الامام بود:

- امض واحفر أصل الآس الأصفر فانك ستجد جماجم نخرة واصفرار الآس لتنتها.

وعندما رأى المتوكل الجماجم شعر بقشعريرة.. ان قصوره وحدائقه تنهض على مئات الجماجم البشرية التي لا يعرف من قتل أصحابها ومتى؟!؟

صاح بانه:

- أهل التراب.. لا أريد لهذا الخبر أن يتجاوز باب القصر.. أفهمت؟

- نعم يا أمير المؤمنين.

وفي اليوم التالي صدر مرسوم بنقل العاصمة إلى دمشق وحدثت حركة مناهضة لقرار الخليفة في صفوف الجنود الاتراك الذين يشكلون عماد الجيش عاجها المتوكل بزيادة في مرتباتهم ومنح أسرهم امتيازات جديدة (٢٠٥).

الفصل الخامس والعشرون

هل هناك علاقة بين مسار الانسان وعطاء الأرض وحنو الطبيعة؟ لماذا وعد نوح قومه بالخصب والمطر إذا ما نبذوا الاوثان التي كانوا يعبدون؟ ولماذا تفنى القرى عندما تفسد في الأرض؟..

وهل تظل لعنة سدوم وعامورا تطارد الخليقة إلى الأبد؟!

«ولو أن أهل القرى آمنوا واتقوا لنزلنا عليهم بركات من السماء والأرض» أصبح المنكر معروفاً والمعروف منكراً واتخمت بطون المهرجين حد الانتفاخ، وتصور الاحرار جوعاً من أجل الكرامة والحرية.

ازداد سعي المتوكل في اقامة حفلاته الخليفة وازدادت الضرائب وتوقفت بركة الارض، وارتفعت الاسعار.

وكان المتوكل الذي وصل دمشق في صفر من السنة ٢٤٤هـ مايس ٨٥٨م قد شعر بالندم فقد كان يتوقع أن الربيع سيكون لطيفاً في قصره الجديد في ضواحي دمشق.. ولكنه وجد الرياح باردة، ثم زحّت السماء بالثلج حتى تعطلت الحياة في المدينة وانقطعت الطرق^(٢٠٦).

وما لبث الجو أن تغير فجأة من البرودة إلى الحرارة وهاجم البرغوث المنطقة، وتزامن ذلك مع هزّات أرضية مخيفة.

وكانت التقارير قد بدأت تصل حول تحركات مشبوهة يقوم بها الاتراك في سامراء^(٢٠٧)، فقرر المتوكل العودة، وبرقت في خياله فكرة بناء مدينة جديدة قريبة من سامراء، وظلّت الفكرة سرّاً لم يطلع عليه أحداً حتى رئيس وزرائه الفتح بن خاقان فخرانة الدولة خاوية.

سامراء حزينة، فهذه المدينة تحمل في طياتها سرّ الفناء انها ولدت لتكون عاصمة للبلاد ومركزاً سياسياً وادارياً وثكنة عسكرية للجيوش، فإذا نقلت العاصمة إلى مدينة أخرى فمعنى هذا الخراب.

كان الناس يتحدثون في كل مكان عن جنون الخليفة في نقل العاصمة إلى دمشق..

ولكن الخليفة لديه من الخطط الشيطانية ما يجعل الشعب يعيش في حيرة وذ هول..
ولا أحد يعرف ما يدور في خلد الطاغية سوى انسان واحد.. انه علي بن محمد
المعروف بابن الرضا إذ قال لصاحبه وهو ينظر إلى الأفق البعيد:
- ان هذا الطاغية يتبدى ببناء مدينة لا يتم له بناؤها ويكون حتفه فيها على يدي بعض
فراعة الاتراك.

وقال الرجل الحائر:

- فكم بقي من ملك المتوكل؟

أجاب الامام وهو يتلو بخشوع:

- بسم الله الرحمن الرحيم

﴿تَرْهَوْنُ سَبْعَ سِنِينَ ذَاكَ مَا فَتَحَ حَصْرُهُ فَذَرُوهُ فِي سَبِيلِهِ إِلَّا قَلِيلًا مِمَّا تَأْكُلُونَ * ثُمَّ يَأْتِي مِنْ بَعْدِ ذَلِكَ سَبْعُ شِدَادٍ
يَأْكُلُنَ مَا قَدْ بَقِيَ لَهُنَّ إِلَّا قَلِيلًا مِمَّا تَحْصُونَ * ثُمَّ يَأْتِي مِنْ بَعْدِ ذَلِكَ عَامٌ فِيهِ يُغَاثُ النَّاسُ وَفِيهِ يَعْرِضُونَ﴾.

لقد استحال المتوكل إلى طاغية وأصبحت الأمة قطيعاً ينتظر الذبح.. من أجل أن يتلذذ
الطاغية بمنظر الذبح واتهام اللحوم الآدمية الشعب أصبح أسيراً في قبضة طاغية هو الآخر
مستعبد لشهواته الشاذة.. حتى هو لم يعد يشعر بالحرية أنه أسير رغباته المستعرة دوماً.. لقد
هبط المتوكل إلى أسوأ مراتب العبودية، أصبح هوسه الجنسي مصدر عذاب له وللآخرين..
إنه يشعر بقوة وضیعة جداً تدفعه إلى التردّي يوماً بعد آخر.. أنه يشعر بالخواء.

فقيرة هي النفس التي تنظر إلى باطنها فتجد خواءً، فتمتد إلى خارجها لتقتني ما يسد
لها هذا الخواء، وماذا تقتني؟

تصيد أناساً آخرين ذوي نفوس أخرى لتخضعهم لسلطانها، فحيثما وجدت طاغية -
صغيراً كان أو كبيراً - فاعلم أن مصدر طغيانه هو فقر نفسه. ان المكثفي بنفسه لا يطغى.. إن
من يشعر في نفسه بثقة واطمئنان ليس في حاجة إلى دعامة من سواه»^(٢٠٨).

في الصباح الباكر انبعثت صرخة^(٢٠٩) من جناح الحريم في قصر الجوسق الذي فضل

المتوكل الاستقرار فيه لدى عودته من دمشق..

واجتمع الحرس التركي.. كان الخليفة غائباً عن الوعي تماماً في ذلك الصباح بعد ليلة حمراء ساهرة..

وصل الطبيب بختيشوع متأخراً وأجرى فحوصات على الجسد الملتهب بسبب الحمى.. وجاءت والدته وهي تشعر بالقلق لمصيره وفيما كان بختيشوع يقوم بفحوصاته همست الأم بلهجة فيها لكنة تركية في أذن ابنها ونصحته بإطلاق سراح السجناء. ارتسمت ابتسامة سخرية في وجه الطبيب النصراني من تفكير أم الخليفة، فنظر إليه المتوكل بعينين فيهما تهديد.

كانت قد ظهرت في عنق المتوكل دما مل.. ربما بسبب تلوث الهواء في دمشق وكان الطبيب يعالجها ببعض المراهم التي لم تسفر عن نتيجة حتى سقط الخليفة مغمياً عليه. - ليس هناك من طريق سوى إجراء الجراحة.

همس بختيشوع.

نظر إليه المتوكل بعينين فيهما توجس.. انه يخشى دسائس الاطباء.. لقد مات كثيرون بسبب ذلك؟

ومن يدري ربما يحاول هذا النصراني الثأر لأبناء دينه بعد الاجراءات المذلة التي لم يفلت منها سوى أصحاب النفوذ.

أمر المتوكل وزيره أن يستدعي أطباء آخرين خاصة ابن الطيفوري ويزداد النصراني فرماً لديهم ما ينفع.

سادت حالة من التوجس سامراء بين من يتفائل بموت الخليفة والخلاص منه وبين خائف على نفوذه وما جمعه من أموال..

حتى زوجة الخليفة أصبحت تفكر بمستقبلها الخاص.. يجب تنفيذ خطتها في تقديم ابنها المعتز على ابن «حبشية».. ولم تكتفي بذلك بل راحت تملأ الأقبية السرية في قصرها بالمزيد

من الذهب والجواهر والأموال.. هذه المرأة الفاتنة اخطر من زوجها انها تعرف مصدر الخطر الذي يهدد نفوذها.

وكان المنتصر الذي غادر القصر مساءً بعد حلول والده فيه قد سمع بالنبأ فشرع بالتفاؤل.. ان القدر سيقضي على والده، وعندها سيثار لكرامته التي يحاول أبوه سحقها..

في الظهر تشكل فريق من الاطباء برئاسة بختيشوع الذي أعاد فحوصاته كما اجرى ابن الطيفوري فحوصات أخرى.. وكانت النتيجة أن الجراحة هي الوسيلة الوحيدة للعلاج.. نقل رئيس الوزراء تقرير الفريق الطبي للخليفة الذي استمع إليه باهتمام وظهر خوف في عيني المتوكل.. خوف لا يعرفه سوى ابن خاقان فهذا الانسان الذي يرعب الجميع ويخشاه الجميع يخاف من مبضع الجراحة!!

الأم تنظر إلى ابنها بقلق ولكنها شعرت بالأمل عندما سمعت الفتح يقول:
- لماذا لا تبعث إلى هذا الرجل فتسأله.. فإنه لا يخلو أن يكون عنده وصفة يفرج بها عنك.

- من تعني؟

- ابن الرضا.

- ابن الرضا؟!؟

وشع الأمل في عيني «شجاع»^(٢١٠) ونذرت في نفسها أن عوفي ابنها أن تهدي إلى الرجل المبارك عشرة آلاف دينار.

هز المتوكل رأسه موافقاً.. وسرعان ما انطلق مبعوث خاص إلى منزل الامام الهادي في درب الحصا.

الفصل السادس والعشرون

كان منزل الامام في ذلك الاصيل مشرعاً فقد رفع الحصار ظاهراً، ولكن الجواسيس كانوا يتناوبون العمل ويراقبون بدقة كل ما يجري..

كان المنزل يكتظ بالحاضرين وفيهم شخصيات عباسية وعلوية اتخذت أماكنها قرب الأمام فهم جميعاً ينتمون إلى هاشم شجرة المجد..

ودارت أحاديث حول بعض الأمور اليومية.. قال رجل يدعى محمد بن هارون الجلاب:

- يا سيدي.. رويانا عن آبائك أنه يأتي زمان لا يكون فيه شيء أعزّ من أخ أنيس أو كسب درهم حلال.

أجاب الامام وقد علت وجهه سحابة حزينة:

- يا محمد: ان الأخ الأنيس موجود، ولكنك في زمان ليس شيء اعز من درهم حلال، وأخ في الله عز وجل»^(٢١١).

وقال رجل أهوازي وهو يتألم من جرح في اصبعه لرجل في جواره كفاني الله شرّ هذا اليوم.

واستطرد:

- لقد جرح اصبعي، وصدمني راكب في كتفي ودخلت السوق وكان مزدحماً فمزقت ثيابي.. فما أشأم هذا اليوم؟!

التفت الامام وقد سمع طرفاً من الحديث:

- يا حسن كيف تتهم بذنبك من لا ذنب له.

قال الرجل وقد انتبه إلى خطأه.

- استغفر الله يا مولاي.

قال الامام بحبة ليعظ الجميع:

- يا حسن ما ذنب الأيام حتى صرتم تتشائمون فيها؟

- استغفر الله لن أعود إلى ذلك إلى الابد انها توبتي إلى الله يا بن رسول الله.

- اما علمت يا حسن ان الله هو الميثب وهو المعاقب.. والجزاء بالاعمال عاجلة وآجلة؟!

- بلى يا مولاي.

- لا تجعل للأيام صنعاً في حكم الله.

قال حسن بأدب من يتلقى العلم:

- بلى يا مولاي^(٢١٢).

وسأل رجل:

- ما معنى التوبة النصوح؟

أجاب الامام:

- أن يكون الباطن كالظاهر..

وسكت لحظة:

- وأفضل من ذلك^(٢١٣).

وساد صمت مهيب فقال الامام وهو يدعو الناس إلى النظافة لأنها الخطوة الأولى للنهوض بالأمم والمجتمعات:

- ان الله يحب الجمال والتجمل، ويكره البؤس والتبؤس..

وان الله عز وجل إذا انعم على عبد نعمة أحب أن يرى عليه أثرها.

تساءل رجل:

- كيف يظهر أثر النعمة؟

أجاب الامام:

- ينظف ثوبه، ويطيب ريحه، ويحسن داره، ويكنس أفنيته.. حتى ان السراج قبل مغيب الشمس ينفي الفقر، ويزيد في الرزق»^(٢١٤).

ودلف رجل تظهر عليه سيماء العلم والجلال فأراد أن يجلس في زاوية ما، ولكن الامام الذي يجد العلم والعلماء نهض له احتراماً للعلم والتقوى فلهما المجد الحقيقي لا للنسب.

وجلس الرجل إلى جوار الإمام وقد غمرت روحه الفرحة.. انه يعيش في زمن يمجّد المال والثراء والجاه الكاذب.

وانشغل الامام بتفقد شؤون العالم الذي كان يرتدي حلة بسيطة تفصح مستواه المعاشي. وكان كافور الذي ينتظر اشارة سيده قد أدرك ان الامام سوف يهب لهذا الرجل مبلغاً كبيراً أنه يعرف مدى تكريمه للعلماء^(٢١٥).

وعندما نهض الرجل وغادر المكان ونهض له الامام احتفاءً به وتكريماً له.. ساد همس بين العباسيين الذين اعتبروا هذا الموقف اهانة لهم.. وسرعان ما استحال الهمس إلى لغط وقال احدهم للإمام:

- كيف تقدمه على سادات بني هاشم؟

أجاب الامام وهو يعرفهم مجد العلم.

- اياكم أن تكونوا من الذين قال الله تعالى فيهم: ﴿أَلَمْ تَرَى إِلَى الَّذِينَ أُوتُوا نَصِيبًا مِّنَ الْكِتَابِ يُدْعَوْنَ إِلَى كِتَابِ اللَّهِ لِيُحْكَمَ بَيْنَهُمْ ثُمَّ يَتَوَلَّى فِرْقٌ مِّنْهُمْ وَهُم مُّعْرِضُونَ﴾^(٢١٦)..

والثفت إلى المستائين:

- أترضون بكتاب الله حكماً.

- وكيف لا؟!

- أليس قال الله سبحانه: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِذَا قِيلَ لَكُمْ تَقَسَّحُوا فِي الْمَجَالِسِ فَافْسَحُوا يَفْسَحِ اللَّهُ لَكُمْ﴾ إلى قوله: ﴿وَالَّذِينَ أُوتُوا الْعِلْمَ دَرَجَاتٍ﴾.

فلم يرض للعالم المؤمن إلا أن يرفع على المؤمن غير العالم، كما لم يرض للمؤمن إلا أن يرفع على من ليس بمؤمن..

اخبروني عن قوله تعالى: ﴿يَرْفَعُ اللَّهُ الَّذِينَ آمَنُوا مِنْكُمْ وَالَّذِينَ أُوتُوا الْعِلْمَ دَرَجَاتٍ﴾ هل قال: يرفع الله الذين أوتوا شرف النسب درجات؟

أوليس قال الله: ﴿هَلْ يُسْتَوِي الَّذِينَ يَعْلَمُونَ وَالَّذِينَ لَا يَعْلَمُونَ﴾^(٢١٧)؟

فكيف تستنكرون رفعه له وقد رفعه الله لعلمه لا لنسبه.

سكت الحاضرون على مضض.. لقد اعتادوا التمجيد على أساس النسب منذ عشرات السنين.

قال رجل عباسي تعدى الخمسين من عمره:

- يا ابن رسول الله لقد شرفته علينا.. وما زال منذ أول الإسلام يقدم الأفضل في الشرف على من دونه.

أجاب الامام مستكراً هذا المنطق اللاإسلامي:

- سبحان الله!! أليس العباس بايع أبا بكر وهو تيمي والعباس هاشمي.. أو ليس عبدالله بن عباس كان يخدم عمر بن الخطاب وهو هاشمي وأبو الخلفاء، وعمر بن الخطاب عدوي..

وما بال عمر أدخل البعداء من قريش في الشورى، ولم يدخل العباس؟؟

فإذا كان رفعا لمن ليس بهاشمي على هاشمي منكرأ فأنكر على العباس بيعته لأبي بكر وعلى عبدالله بن عباس خدمته لعمر وإذا كان ذلك جائزاً فهذا جائز»^(٢١٨).

وسكت الرجل أمام منطق الإسلام الاصيل الذي لا يعرف مجداً إلا للإيمان والعلم.

وانتبه الجميع إلى دخول شخص يرتدي الزي الرسمي لموظف يعمل في البلاط.. تقدم الرجل وحياً للإمام وسلمه رقعة فيها بضعة كلمات تبين حالة الخليفة الصحية والاعراض التي ظهرت عليه ويطلب وصفة للعلاج..

وكتب الامام وصفة العلاج: يؤخذ كسب الشاة^(٢١٩) فيداف بماء الورد ويوضع عليه.. فإنه نافع بأذن الله»^(٢٢٠).

وقدمت الوصفة إلى الفريق الطبي، وصدرت من أحد الاطباء كلمات تنم عن استهزاء..

ولكن الفتح اشار على المتوكل بتجربة الوصفة فلا ضرر من ذلك وحضر المهرم العجيب، ووضع بعناية على منطقة الدمامل، وما لبث المتوكل أن غط في النوم وكانت أنفاسه قد انتظمت..

وبعد ساعات فوجيء الجميع بانفتاح «الخراج» وخروج القيح والصديد، وتمائل الخليفة للشفاء وبشرت والدته التي سارعت إلى الوفاء بنذرهما.

وفي المساء وقد تاقّت نفس المتوكل للترويح اجتمع شمل شلة الأُنس والمرح وكان فيهم سليمان الطبال، حشيشة، ابن القصار، صالح الدفاف، ومن المغنيات عريب وجواربها: بدعة، سراب، شارية، وجواربها: ندمان، منعم، نجلة، تركية، فريدة، وعرفان^(٢٢١) وتألفت محبوبة بثوب حريري أخاذ.

وأدّى البعض معزوفات جميلة كما انبرت المطربة محبوبة فراحت تنشده شعراً تتغزل فيه بزوجة الخليفة الحسنة:

وكاتبة بالمسك في الخد جعفرأ	بنفسي خط المسك من حيث أثرا
لئن كتبت في الخد سطرأ بكفها	لقد أودعت قلبي من الحب أسطرا
فيا من مملوك لملك يمينه	مطيع له في ما أسر وأظها
ويا من من مانها في السريره جعفر	سقى الله من سقيا ثناياك جعفرأ ^(٢٢٢)

وطرب المتوكل وراح يحتسي خمرة المفضلة؛ وراحت محبوبة تشدو:

أدور في القصر لا أرى أحدا	اشكو إليه ولا يكلمني
حتى كأني ركبت معصية	ليست لها توبة تخلصني
فهل لنا شافع إلى ملك	قد زارني الكرى فصالحني ^(٢٢٣)

وعندما انفض الجميع نهض الخليفة نصف ثمل ليأخذ محبوبة إلى ما وراء الستائر الحريية.

الفصل السابع والعشرون

وصلت القصر تقارير خطيرة حول استلام الامام مبالغ كبيرة من المال وأن منزله مشحون بالاسلحة، ومعنى هذا أن هناك استعداداً للثورة..

كان التقرير من الخطورة بحيث أفرغ المتوكل فأصدر أمراً إلى سعيد الحاجب أن يفاجيء منزل الامام بهجوم ليلي وضبط كل ما يعثر عليه من المال والسلاح..

كانت سامراء غافية في تلك الليلة من ليالي خريف سنة ٢٤٥هـ ٨٥٨م، عندما نفذ سعيد الحاجب هجوماً مفاجئاً على منزل الامام وضع سعيد السلم على الجدار ومنه ارتقى إلى السطح.. كان القمر في المحاق والظلام دامساً ما خلا نجوم اشتد سطوعها، فبدت كقلوب تنبض بوهن.. ومن فوق السطح كان سعيد يتلمس طريقه إلى مدرجات ليتمكن النزول منها إلى باحة الدار ولكن دون جدوى..

فجأه وفيما هو حائر يسمع صوتاً يناديه باسمه:

- يا سعيد مكانك حتى يأتوك بشمعة..

وجاء كافور الخادم يحمل شمعة، وفي ضوئها رأى سعيد المدرج الذي يؤدي باحة الدار..

ولمح سعيد الأمام مرتدياً جبة صوف وقلنسوة فأشار إلى حجرات المنزل قائلاً:
- دونك البيوت.

وانصرف إلى سجداته متجهاً إلى الكعبة العظمى، فيما كانت النجوم تسطع في السماء؛ وراح سعيد يفتش الغرف تفتيشاً دقيقاً وكانت مشاعر الخجل تتعاضم في أعماقه وهو يرسل اللعنات على أولئك الجواسيس الأوغاد..

وجد في إحدى الغرف بكرة^(٢٢٤) عليها ختم أم المتوكل، وكيساً مختوماً بنفس الختم.. ولج إلى السرداب وشعر برهبة في ذلك العمق تحت الأرض.. لكنه لم يجد شيئاً سوى أرضية مفروشة بالحصى وكان الحوض الصغير خالياً من الماء..

وقبل أن يغادر المنزل خاطبه الامام:

- دونك المصلّى.

تقدم سعيد إلى الحصى ورفع له سيفاً في غمد، فأخذه معه وغادر المنزل من الباب وقد شيعه كافور الخادم بعد أن أخذ منه الشمعة..

وانطلق الحاجب الذي ترك السلم على الجدار لا يلوي على شيء..
استعرت هواجس المتوكل وهو يرى بدرة وكيساً محتومين بختم والدته، واثابه قلق..
كل شيء يمكن أن يحدث، ولكن هل تتأمر والدته عليه؟
انه يعرف جيداً عواطف ابنه المنتصر الذي ذهب بعيداً في ولائه لأبناء علي.. انه يتحداه
في قصره، ويدافع عن علي أمام الجميع بينما يتزلف إليه الناس بشتم علي والتهريج عليه!
.. كلا!

صرخ المتوكل بحقد، وأصدر أمراً بإيقاظ والدته فوراً.. جاءت المرأة التي اجتازت
الستين بحلة النوم، وقد خطف الرعب لونها.. ما الذي حصل يا ترى؟
كان «باغر» بطوله العملاق يتقدم المرأة إلى البلاط حيث جلس ابنها على سرير وثير
وأمامه على منضدة مضلعة دن بلوري خاوي..

أدركت المرأة العجوز ما جرى بعد أن لمحت بدرة الدراهم والكيس..
نظر إليها المتوكل بغیظ، ونظر إلى المال المختوم بمختمها قالت «شجاع» بلكنة تركية:
.. كيف؟.. قد نذرت في علّتك لما أيست منك إن عوفيت حملت من مالي عشرة آلاف
درهم..

.. هذا خاتمك؟

.. نعم هو خاتمي!

.. والكيس؟ كم فيه؟

.. أربعمئة دينار.

فتح المتوكل الكيس وعدّ النقود وكانت أربعمئة..

أطرق المتوكل برأسه وقال:

.. عودي إلى حجرتك.

تساءلت الأم:

- ما الذي حصل؟!

- لا شيء.. لا شيء..

وعندما غادرت المرأة، المكان التفت المتوكل إلى حاجبه وأمره بإعادة الأموال إلى صاحبها.. كما أعاد أيضاً السيف المقهور الذي لم يشهر حتى الآن.

قال سعيد الحاجب وهو يسلم الأموال والسيف إلى الامام معتذراً:

- يعزّ علي يا سيدي أن أدخل دارك بغير أذنك ولكني مأمور.

واكتفى الامام بالصمت ثم تلا قوله تعالى:

- ﴿وَسَيَعْلَمُ الَّذِينَ ظَلَمُوا أَيَّ مُنْقَلَبٍ يَنْقَلِبُونَ﴾ (٢٢٥).

ورجف قلب سعيد، إنه لا يشعر بالهبة التي يحسها حتى في حضرة المتوكل.. انه يحس بان عيني الامام تنفذان إلى أعماقه الحائرة.

وفي منتصف الليل عندما استحال القصر إلى بؤرة للرديلة، وكان المتوكل ما يزال تحت تأثير الحادثة برقت في ذهنه فكرة..

آه لو استطيع أن اجرّ ابن الرضا إلى الشراب.. آه لو ينادمني مرة واحدة.. ولكن لا فائدة.

التفت إلى عبيد الله بن يحيى قائلاً بصوت سمعه الجميع:

- ويحكم لقد أعياني أمر ابن الرضا وجهدت أن يشرب معي، وينادمني فامتنع وجهدت أن أجد فرصة في ذلك فلم أجدها!!

قال أحدهم وقد برقت في عينيه الندالة:

- إذا لم يجد ذلك مع ابن الرضا، فهذا أخوه موسى.. يأكل ويشرب ويعشق ويتخالع فاحضره وشهر به.. فان الخبر يشيع عن ابن الرضا بذلك فلا يفرق الناس بينه وبين أخيه.. أما الذين يعرفونه بشخصه فانهم سيتهمون أخاه بمثل أفعاله.

وجد المتوكل في هذه الفكرة سلاحاً جديداً يستخدمه ضد الامام علي الهادي فاصدر أمره إلى الوزير على الفور:

- اكتبوا بأشخاصه مكرماً.. وأن يستقبل رسمياً وبحفاوة وأن يخصص له من الآن قصر ويجهز بكل ما يحتاج إليه.

ولم ينس المتوكل أن يؤكد على شيء جوهري هو تخصيص جوارى مغنيات ويجهز المنزل ببعض دنان الخمر^(٢٢٦).

رفع المتوكل الكأس البلوري عالياً معلناً بدء الليلة الساهرة.. وانطلقت موسيقى رقيقة وانسابت صوت إحدى المطربات.. وانطلقت بعض القهقهات الخليعة..

وفيما كانت النوافذ المضيئة بنور القناديل تتدفق ضوءاً والأصوات السكرى تختلط بصوت الموسيقى، كانت الرياح الخريفية تجوس خلال الأزقة الغارقة في الظلام، فيما كانت اشباح تمرق خلال الحلكة الدامسة لا أحد يعرف من أين تأتي وإلى أين تتجه؟!

وهناك في حجرة صغيرة في منزل يقع في درب الحصا كان رجل في الثلاثين من عمره يتلو القرآن على ضوء قنديل.. وكان صوته الحزين يمضي مع الريح..

ان الذي يمرّ قرب المنزل في تلك الليلة لا بد وأنه سمع صوتاً مفعماً بحزن مقدس صوتاً منقوعاً بدموع الانسان المقهور:

- «الهي!

مسيء قد ورد..

وفقير قد قصد..

لا تخيب مسعاه..

وارحمه واغفر له خطاه»^(٢٢٧).

انه في الثلاثين من عمره ولكن الأيام والعذابات والآلام جعلت منه شيخاً في الستين.

- «الهي صل على محمد وآله محمد..

وارحمني إذا انقطع من الدنيا أثري.

وامحى من المخلوقين ذكري..

وصرت في المنسين كمن قد نسي..

الهي كبر سني..

ورق جلدي..

ودق عظمي..

ونال الدهر مني..

واقترب أجلي..

ونفدت أيامي..

وذهبت شهواتي..

وبقيت تبعاتي..

الهي!

ارحمني إذا تغيرت صورتي»^(٢٢٨).

روحه تهيم في سماوات بلا انتهاء.. تذوب في الوجود:

- «الهي تاهت أوهام المتوهمين.

وقصر طرف الطارفين..

وتلاشت أوصاف الواصفين..

واضمحلت أقاويل المبطلين عن الدرك عجيب شأنك.. أو البلوغ إلى علوك.

فانت في المكان الذي لا يتناهى.

ولم تقع عليك عيون بإشارة ولا عبارة..

هيهات.. ثم هيهات..

يا أولي!

يا وحداني..

يا فرداني..

شمخت العلو بعز..

وارتفعت من وراء كل نهاية بجبروت الفخر»^(٢٢٩).

وتنحدر دموع الخشوع.. دموع الايمان.. لكأن الروح تذوب في بوتقة الوجود فتصبح جزءاً من حركة هذا العالم المليء بالأسرار.

الفصل الثامن والعشرون

وصل موسى بن الامام الجواد سامراء، التي كانت تعيش احتفالات شعبية لا نظير لها فقد صادف عيد الاضحى احتفال النصارى بعيد «الشعانين» وعيد «الفطر» اليهودي.. كان الخليفة يتمتع نظره من فوق المأذنة الملوية ويتأمل سامراء العاصمة التي بناها أبوه.. لم تعد تشيع جنونه انه يفكر ببناء مدينة أخرى.. مدينة جديدة.. عاصمة جديدة تليق بمركزه وابهته..

وفي «قنطرة وصيف» حدث لقاء هام بين الأخوين بعد فراق دام أكثر من عشرة أعوام.. ومن خلال الاستقبال الرسمي الذي حظي به موسى من قبل موظفي الدولة والقادة العسكريين وحرص الجميع على تسمية أخيه بابن الرضا أدرك الامام أن المتوكل يريد من وراء ذلك تشويه سمعته بجر أخيه إلى بؤرة الرذيلة من أجل هذا حذر أخاه من الفخ الذي نصبه المتوكل:

- ان هذا الرجل قد جاء بك وأحضر لك ليهتكك، ويضع من قدرك، فلا تقر له أنك شربت نبذاً قط. واتق الله يا أخي ان ترتكب محظوراً.

قال موسى:

- انما دعاني لهذا فماذا أصنع؟! (٢٣٠)

- يا أخي ان طاعة الله أولى من طاعة المخلوقين..

يا أخي ان المتوكل يريد منك أن تشرب الخمر والنيذ حتى يشيع بين الناس أن ابن الرضا يشرب ويسكر!

وسكت موسى.. فرق كبير بين الأخوين.. منذ أكثر من ربع قرن وعندما كانا في المدينة المنورة وقد سافر أبوهما إلى بغداد.. طلب موسى من والده أن يأتي له بهدية من مصوغات بغداد، والتفت الوالد الذي لن يعود من سفره وسأل علياً الذي بلغ من العمر ست سنين وسأله عن الهدية التي يحب فقال:

«أريد سيفاً كأنه شعلة» (٢٣١)!!.. آه أن علياً لم يتغير ما يزال هذا السيف ذكرى والده الراحل يرافقه.. وانتبه موسى إلى كلمات أخيه الغاضبة:

- انك لن تلتقيه إلى الأبد!

كانت كلماته تشبه نبوءات الانبياء.

وضاعت الكلمات الصادقة.. لم تجد لها أذنًا واعية.. ومضى موسى إلى قصره الفخم وهو لا يشعر بأنه يضع قدمه في بيت العنكبوت بيت هو أوهن البيوت.. سوف يظل يطرق أبواب المتوكل التي لن تفتح له أبداً.. فالطاغية غارق في هواجسه وهو يخطط لبناء مدينته الجديدة..

ضربت الزلازل مصر والعراق وسوريا، ورجفت الأرض بأهلها، فقد زلزلت كثير من المدن بغداد واللاذقية والرقّة ورأس عين ودمشق وطرسوس وأدنة وسواحل الشام، واستحالت انطاكية إلى انقاض.. وهاج البحر، وهاجمت الامواج الغاضبة المدن الساحلية في البحر الابيض.. واختفى الجبل الاقرع في انطاكية.. كما ابتعلت الارض نهراً يمر قريباً من البحر.. وغارت «عين مشاش» في مكة (٢٣٢).

وامتدت الزلازل والهزات الارضية إلى ايران، وما زاد الاوضاع سوءاً قيام الروم بالهجوم على السواحل المصرية ومحاصرة «سمياط».. اما الطاغية فقد كان مشغولاً عن كل ذلك بلذائذه وشهواته وكان هاجسه الوحيد بناء «المتوكلية».

وكانت أول خطوة قام بها هو إصداره أوامر بتهديم قصرين في سامراء وهما: «المختار» و «البديع» ونقل مواد البناء فيهما إلى شمال سامراء على بعد أربعة أميال عربية (٢٣٣).

وقد تولّى المهندس النصراني دليل بن يعقوب كاتب «بغا» الإشراف على تخطيط وتنفيذ بناء القصر الجعفري وشق نهر يرفد المدينة بالمياه.

وبدأ العمل ببناء قصر فخم على ضفاف دجلة ثم يبدأ العمل بتنفيذ بناء المدينة بما في ذلك مسجدتها الجامع الكبير الذي سيكون على غرار المسجد في سامراء وستكون له مئذنة ملوية أيضاً (٢٣٤).

وفي ظروف بالغة القسوة بدأ العمل بتدفق آلاف العمال.. وسرعان ما نهض القصر الجعفري في الزاوية التي يتفرع منها نهر القاطول عن دجلة وقد بلغت تكاليف البناء لهذا القصر مليوني دينار (٢٣٥).

واستحال موظفي البلاط إلى ذئاب بشرية تتخطف أموال الأمة وكان المهندس النصراني ما انفك يملأ تلك الأفواه الشرهة بالرشاوي (٢٣٦) وبدأت الخزينة تصفر من الأموال مما دفع بالطاغية إلى البحث عن مصادر للمال وكان عليه أن يختار إحدى الأبقار التي سمت في بلاطه وتقديمها إلى الذبح..

وبدأ رجال البلاط يشمون رائحة الدم.. فتضاعفت حمى التآمر وبدأت وتيرة الدسائس بالتنامي!

وانفجر الصراع بين عبيد الله بن يحيى بن خاقان وزير الطاغية وبين نجاح بن سلمة المسؤول عن التواقيع الرسمية للبلاط، وكانت اسرة خاقان قد بلغت الذروة في سيطرتها على شؤون البلاط وقد أدى كثير من الاسباب إلى بدء تحالف دنس بين زوجة الخليفة «قيحة» التي نجحت في ايجاد قطيعة نهائية بين زوجها وابنه المنتصر المرشح الأول للخلافة فيما مضى وبين رئيس الوزراء الفتح بن خاقان.. لقد اصبح كل شيء جاهزاً وسوف يتم خلع ولي العهد في اللحظة المناسبة أو حتى اغتياله (٢٣٧).

كانت فكرة رئيس الوزراء مصادرة أموال بعض القادة الاتراك للحد من نفوذهم..

وكان اسم وصيف في صدر القائمة ولذا بدأت الدسائس تتحرك في هذا الاتجاه.

ولكن القدر دفع الأحداث باتجاه آخر..

كان «نجاح بن سلمة» يخطط لازاحة جميع خصومه والسيطرة على شؤون البلاط، وليس هناك من وسيلة أفضل من إغراء المتوكل بالقاء القبض على شخصيات متنفذة متخمة بالاموال وقد حان الوقت المناسب للانقضاض عليهم.. فلديه ادلة دامغة على خيانة بعض كبار الموظفين في البلاط وتواطئهم مع عبدالله بن يحيى ذلك الوزير الشره الذي عرض حكم الولايات الإسلامية لمن يدفع الأكثر من الرشاوي^(٢٣٨).

أعدّ «نجاح» تقريراً مشيراً حول خيانة كل من «الحسن بن مخلد»، مسؤول ديوان الضياع و «موسى بن عبد الملك» مسؤول ديوان الخراج وانهما قد اختلسا باستغلال منصبيهما أموالاً ضخمة.. وانه يستطيع أن يستخرج منهما ما قيمته ٤٠/٠٠٠/٠٠٠ درهم!

تمكن الوزير من الاطلاع على التقرير الخطير بعد أن وقع في يد المتوكل، فوضع رجاله في حالة استنفار، واستدعى «موسى» و«ابن مخلد» واطلعهما على ما يجري وفي لهجة تفوح برائحة الخطر قال الوزير:

- إذا دخل نجاح على المتوكل فأنه لن يخرج إلّا برأسيكما ومصادرة كل ما تملكان.

قال ابن مخلد:

- وماذا بوسعنا أن نفعل؟

- اكتبنا رقعة تقبلان فيها على دفع ٢/٠٠٠/٠٠٠ دينار!

أجابا على الفور:

- سنفعل ذلك متى شئت.

- اليوم..

وأردف الوزير وقد برقت عيناه بالشروع:

- نتغدى به قبل أن يتعشى بنا!

وفي المساء استدعى المتوكل «نجاح بن سلمة» لمناذمته وشرب الخمر معاً.
كان المتوكل قد أفرغ دناً بلورياً من الخمر، ولم يكن قد سمح بعد للمغنين والمغنيات بحضور المجلس..
قدم المتوكل كأساً يطفح بخمرة معتقة إلى نديمه وقال:
- يا نجاح بكر الي غداً سأسلمك الرجلين.. ولكن الفي ألف درهم لا تكفي.. هل
تستطيع أن تأخذ منهما أكثر من ذلك؟
واستحال نجاح إلى افعى وبرقت عيناه بالغدر:
- يا مولاي أعرف عشرين آخرين لو سلمتهم الي لاستخرجت لك منهم أموالاً كبيرة
تبني بها مدينتك..
وسكت لحظة ثم قال:
- فإنه يلزمك من الاموال في بنائها ما يعظم قدره ويجلّ ذكره قال الطاغية وقد استحال
إلى ذئب بشري:
- سمهم لي! (٢٣٩).
قال «نجاح»:
- سوف اسجل لك اسماءهم في رقعة.. واذكر الاموال التي يمكن أخذها منهم..
- اذكر لي بعضهم؟
- موسى بن عبد الملك، وعيسى بن فرخنشاه، نائب الحسين بن مخلد، وأبن مخلد،
وزيدان بن إبراهيم، نائب موسى بن عبد الملك.. وسكت لحظات ليرى انعكاس
كلماته على وجه المتوكل الذي كان يصغي بشراهة، تجرأ نجاح وأردف:
- وعبيد الله بن يحيى وأخوه عبدالله وزكريا وميمون بن ابراهيم، ومحمد بن موسى
المنجم وأخوه أحمد وعلي بن يحيى وجعفر المعلوم وغيرهم (٢٤٠).
هتف المتوكل وقد اسكرته الخمرة والأموال القادمة:

- خذل الله من خذلك بكر إلى غداً سوف اسلمهم جميعاً إليك.

كان الخليفة قد استكمل شرب سبعة أرتال من الخمرة وبدأ يتعلم في حديثه، ولذا تقدم موسى بن بغا وأشار إلى الندماء باخلاء المكان وفقاً لتعليمات الخليفة الذي يتوجب عليه في هذا الوقت الانصراف إلى مخدعه الوثير حيث تنتظره إحدى حسناوات القصر^(٢٤١).

الفصل التاسع والعشرون

في الصباح الباكر وفيما كانت رياح شباط^(٢٤٢) تجوس شوارع سامراء كان نجاح بن سلمة قد أعد رجاله الذين سيتولون المناصب الجديدة بعد اعتقال رجال القائمة السوداء.

وفي مدينة يحكمها الجواسيس تنتشر الاخبار والشائعات انتشار الروائح.. وقد تأكد لدى الجميع أن نجاحاً سوف يطيح بجميع الرؤوس الكبيرة.. وستكون له السطوة وحده وقد يصبح وزيراً كبيراً أو رئيساً للوزراء.. فالطاغية ليس له اصدقاء لأن الطغاة لا يعرفون معنى الصداقة!

والطاغية لا يملك من الانسانية سوى الشكل فقط أما داخله فغابة رهية يدوي في فضائها صراخ الحيوانات المتوحشة والشريرة.. وتلك هي الغرائز المجنونة عندما تتمرد على نظام العقل وحكمته.

وعندما يغيب الكرى ذلك الجزء العاقل الرقيق من النفس الذي يتولى التحكم في الجزء الآخر، ينطلق الجزء الحيواني المتوحش في النفس من عقالة مثقلاً بالطعام والشراب، فينفذ عن نفسه النوم، ويبحث عن مجال نشاطه، ومنتفس لشهواته، والنفس ها هنا لا تنجّل من شيء قط، كما لو كانت قد تخلّت عن كل حياء، فلا تتردد في ارتكاب أية جريمة»^(٢٤٣).

والطاغية مخلوق يخرج من أهاب الانسان ويندفع نحو اشباع رغبات مجنونة حيث تشتد هستيريا الهوى النفسي في ارضاء الرغبات المتطرفة، ويغدو الطاغية في سلوكه مخلوقاً يجمع بين صفات السكر والمجنون حيث يحلّ اللاشعور مكان الشعور الانساني النبيل.

وفي ذلك الصباح الباكر كان المتوكل قد تحفز في أعماقه الذئب البشري مع شهوة جامحة للافتراس.. أنه بحاجة إلى المال.. المال الكثير لبناء مدينته.

قبل أن يصل نجاح بن سلمة القصر ويجتمع بالمتوكل كان عبيد الله بن يحيى وزير البلاط قد دخل على الطاغية قائلاً باستخذاء:

- يا أمير المؤمنين! أراد نجاح ألا يدع كاتباً ولا قائداً ولا عاملاً إلا أوقع به.. فمن يقوم بالأعمال يا أمير المؤمنين؟!

نظر الطاغية إلى وزيره باحتقار ولعله قال في نفسه، أية أعمال أيها التافه؟!

أدرك الوزير أن المتوكل لن يصغي إلى مثل هذا الكلام فغير من لهجته قائلاً:

- ان الحسن وموسى يوافقان على دفع المال المطلوب.. وهذه رقعة بخطيهما.

- كم يدفعان؟

- مليوني دينار.

....

- انهما على استعداد أيضاً لدفع مبلغ آخر يقرب مما ضمنه لك نجاح.

- حسناً.. وهل يضمنان ذلك؟.

- سأفكر بالأمر.

وغادر الوزير المكان، وسرعان ما وصل نجاح ليجد أمامه في البهو الرجلين اللذين سيلقى القبض عليهما بعد لحظات.. لكنه فوجيء بالوزير يمنعه من الدخول على المتوكل قائلاً له باحترام متكلف:

- انتظر يا أبا الفضل.. تفضل هناك ريثما آخذ لك أذنًا بالدخول..

وعندما ولج نجاح إحدى الغرف قال الوزير للرجلين مرهباً أيهما:

- إذا اجتمع بالمتوكل فمعنى ذلك نهايتكما.

وقبل أن يتكلما استطرد الوزير بحذر:

- اكتبوا رقعة تضمنان للمتوكل دفع المال المطلوب..

- ومن أين نستطيع ذلك؟!

قال الوزير وهو يصّر على أسنانه وينظر إلى الغرفة التي ينتظر فيها نجاح:

- أنا أعرف كيف سنحصل عليه!

وفيما كان موسى وابن مخلد يهيئان رقعة جديدة ويوقعان عليها اتجه الذي يفوق الحرباء في تلونها.. قال لنجاح بلهجة فيها قدر من النصيحة:

- يا نجاح! أشير عليك بأمر لك فيه صلاح.

قال نجاح:

- ما هو؟

- اصلح علاقتك بهذين الرجلين..

- كيف؟ لقد اخبرت الخليفة بخيانتهم؟!

قال الوزير بخبث:

- وما الضرر من ذلك؟! اكتب رقعة واذكر انك كنت شارباً، وانك تكلمت بأشياء تحتاج إلى اعادة النظر فيها..

- ولكن هذا سيعود بالضرر علي!!

- لا تخف أبداً سوف اصلح لك الأمر.

....

- ماذا تنتظر اكتب! اكتب بسرعة قبل فوات الأوان والنخدع نجاح فكتب رقعة ذكر فيها أنه كان سكراناً وأنه كان يهذي الليلة الفائتة بأشياء خطيرة.

عندما أمسك الوزير بالرقعة ودخل على الطاغية كان قد حسم الموقف تماماً قال وهو يضرب ضربته القاتلة:

- يا أمير المؤمنين لقد تراجع نجاح عما قاله البارحة.. وهذه رقعته بخطه وتوقيعه.

ثم ناوله رقعة أخرى:

- وهذه رقعة موسى والحسن يتقبلان بما كتباً فتأخذ منهما ما ضمناه ثم تعطف عليهما
فتأخذ منهما قريباً مما ضمن لك نجاح عنهما.
صفق الخليفة مبتهجاً.. وهتف منتشياً:
- ادفعه اليهما..

طلعت البهجة على تصرفات المتوكل ولم يكن ليهمة «نجاح» ولم يشعر بأية وخزة
وجدانية للمصير الأسود الذي سوف يلاقه كاتبه على أيدي ذئاب التعذيب..
انه على استعداد على أن يرتكب أية جريمة دون أن تطرف له عين.. بل أنه على
استعداد أن يذبح ابنه المنتصر إذا شعر بأنه ينافسه أو يترفع عن سلوكياته.
لقد أصبح يمقت ابنه لسبب واحد هو أنه قد أصبح رجلاً ذو كرامة.. رجلاً شريفاً ذو
روح عالية وشخصية مستقلة.. ان ابناً بهذه الصفات محكوم بالموت من قبل الطاغية لأنه
ينافسه في السيادة أنه متأكد من أن ابنه لم يكن هكذا ولكنه تأثر بشخصية ابن الرضا.. آه
لشدماً يمقتة! انه المصدر الوحيد للخطر!

انه الوحيد الذي استعصى عليه اربابه واخضاعه؟

وهكذا سيق نجاح ذليلاً، وقد استسلم لمصيره الرهيب وتبادل موسى مع صاحبه
النظرات.. هذا الذي اراد اقتطاف رأسينا قد وقع في قبضتنا.. كما العنكبوت تقع في شراك
بيتها اسيرة!

وقبل الضحى كان قد تم القاء القبض على «أبي الفرج» ابنه أما ابنه الآخر فقد استطاع
الهرب، كما القي القبض على مساعديه: «اسحاق بن سعد» و«ابن البواب»، وصدورت
قصور الجميع وأملاكهم في سامراء وبغداد، وتعرض نجاح إلى تعذيب وحشي من قبل
موسى بن عبد الملك وصدر أمر من قبل المتوكل شخصياً بتغريم اسحاق بن سعد واحداً
وخمسين ألف دينار ادعى.. الخليفة ان سعداً هذا كان مساعداً لعمر بن فرج زمن الواصل
وأنه أخذ منه خمسين ديناراً رشوة حتى يستطيع استلام مرتبه (٢٤٤).

ولم يصمد نجاح تحت التعذيب، واعترف مع ابنه باختلاس أموال تصل إلى مئة وأربعين ألف دينار، واعترف اسحاق بخمسين ألف دينار.. ولقي نجاح حتفه تحت التعذيب الوحشي، كما القى القبض على ابنه الهارب، وتمّ ترحيل جميع أفراد أسرته من سامراء في ظروف سيئة وامتدت حملة المطاردة والاعتقالات لتشمل كل من له صلة بنجاح من قريب أو بعيد والقى بعضهم في السجون.

وكان الاستجواب والتحقيق والتعذيب قد تم في ديوان الخراج حيث يمارس موسى بن عبد الملك وظيفته الرسمية.

وفي صباح بارد توجه موسى بن عبد الملك إلى قصر المتوكل واطلاع البلاط على وفاة المتهم اثناء جلسات الاستجواب والتحقيق^(٢٤٥)!!

وتلقى الطاغية الخبر بأسف شديد لأنه لم يتم استحصال المبلغ المطلوب ولذا أكد على وزيره ان يستحصل المبلغ الذي ضمنه بأسرع وقت.

كما اصدر تعليماته بتعيين الوزير ابن يحيى مسؤولاً على ديوان التوقيع بدل نجاح^(٢٤٦).

وتلقى الناس الانباء العجيبة بذهول لأنها جاءت عكس التطورات السابقة.

وسئل «أبو العيناء» الذي كان يتردد في تلك الأيام على قصر الخليفة عن مصير نجاح فقال:

- وكزه موسى فقضى عليه^(٢٤٧).

وانتشر التعليق الساخر مع الاخبار والشائعات حتى وصل مجلس المتوكل في نفس اليوم قبل أن تبدأ حفلته المسائية.

واقترح أحدهم على الخليفة الذي ضحك للتعليق الساخر أن يضمّ أبا العيناء إلى شلة الندماء فقال:

- لولا أنه أعمى لنادمته^(٢٤٨)..

وفي تلك الليلة عبّ المتوكل عشرة أرطال من الخمر حتى ثمل وراح يهذي بأشياء كثيرة ولكن الوزير سمعه مراراً، يهتف:

- ردّوا علي كاتبني وإلاّ فهااتوا المال^(٢٤٩).

وفي الصباح وعندما وقعت عينا موسى بن عبد الملك على ابي العيّناء تهدّده بالعقاب الشديد... فقال الشاعر الساخر:

- يا موسى أتدريد أن تقتلني كما قتلت نفساً بالأمس؟!

وضحك الناس المجتمعين عند بوابة القصر فيما ألهب موسى ظهر حصانه بالسوط وقد توهجت عيناه بالشرّ.

الفصل الثلاثون

لاح هلال محرّم حزيناً، كقارب يبحر في سماء تنوء بغيوم نيسان الرمادية^(٢٥٠).

وفي هذا الشهر الذي يحرص فيه المؤمنون على زيارة كربلاء للتبرك بزيارة ريحانة النبي ﷺ، فإن الشرطة تكثف من مراقبتها في الأرض التي اصبحت زراعية منذ عقد من الزمن.

غير أن بعض الزائرين قد وضعوا علامات تساعد الذين يحجون لتلك البقعة الطاهرة حيث هوى الحسين شهيداً قريباً من شطآن الفرات.

وبالرغم من أن كثيراً من المؤمنين كانوا يحرصون على زيارة المكان ليلاً ولكن الشرطة كانت تلقي القبض على بعضهم وتزجّهم في سجن «المطبق» الرهيب.

وبرز في تلك الظروف الرهيبة أدلاء يعرفون طرق التسلل بعيداً عن عيون المفاوز المسلحة^(٢٥١).

وكانت العلامة الأكيدة في ذلك الوقت انبعث رائحة طيبة منعشة حيرت حتى العطارين^(٢٥٢).

وانشرت حكاية ذلك الاعرابي من بني أسد الذي استطاع اكتشاف البقعة الطاهرة بعد أن غفى أثرها فكان يأخذ قبضة من التراب فيشمّها وهكذا إلى أن انتهى إلى المكان الطاهر فأخذ بقعة وشمّها، فاذا هي تفوح عبيراً.. فبكى وغمغم قائلاً:

- بأبي أنت وأمي ما أطيبك؟ وأطيب تربتك.

ثم راح يندندن:

أرادوا ليخفوا قبره عن وليه وطيب تراب القبر دلّ على القبر^(٢٥٣)

وفيما كان الناس خاصة في الكوفة وبغداد وحتى سامراء يشدون الرحال إلى كربلاء سرّاً وعلانية... انتشرت في العاصمة اخبار عن نية الخليفة الانتقال إلى قصره الجعفري والاستعداد لإقامة احتفالات كبرى بهذه المناسبة.

لا أحد يدري لماذا انتخب الطاغية يوم «عاشوراء» موعداً^(٢٥٤) لتدشين قصره الجديد وتوزيع إقطاعات المدينة الجديدة التي تم تخطيطها نهائياً.

ومن أجل الاسراع في انجاز بناء المدينة في وقت قياسي فقد تقرّر تكليف اصحاب الاقطاعات من قصور ومنازل بمسؤولية تنفيذها بعد منحهم نفقات البناء^(٢٥٥) وهي نفس فكرة المعتصم في بناء سامراء قبل ستة عشرة عاماً^(٢٥٦).

لقد ابرز المتوكل كل عقده كطاغية في قصره الجديد فكان من الابهة والفن في العمارة والبناء ما يعتبر اعجوبة الزمن..

ولكن هل يدوم بناء نهض على الجماجم والدماء؟

ودخل الطاغية ماخورتته^(٢٥٧) وهو ظالم لنفسه..

النفوس الضعيفة تتخضع بالظواهر الخلابية... ولا شك أن قصر الجعفري الذي اشتق من اسم الخليفة كان من العلوّ الشاهق بحيث بدت منارة الملوية ضئيلة بالقياس إلى ارتفاعه الشاهق.

بدت الاستعدادات للاحتفال منذ الغروب، وكانت نسائم نيسان المنعشة وهي تهب من النوافذ المشرعة مفعمة برائحة الورود الربيعية..

كانت الدعوة عامة للجميع واعدت منصة في حدائق القصر وفتحت بوابات القصر من كل الجهات حتى البوابة المطلة على نهر دجلة.

كانت الحدائق تتلأأ بأضواء القناديل والشموع... وتدفق أهالي سامراء إلى القصر

الاعجوبة حتى أقفرت المدينة^(٢٥٨) ولم يبق في سامراء إلا الذين لا يرون في هذا القصر المشؤوم سوى الخرائب والدمار والمزيد من الضرائب والقهر والدسائس والمؤامرات والطغيان... والمزيد من الفساد والخلاعة والانحطاط.

والقى الطاغية نظرة تصفح فيها الحاضرين من عليّة القوم وأثار حنقه غياب ابن الرضا واعتبر ذلك اهانة لسيادته وتحدياً لسطوته وجبروته!

بدأ الاحتفال بقصيدة الشاعر البحري فراح يتميل وهو يشدو:

قد تم حسن الجعفري، ولم يكن	ليتم إلا بالخليفة جعفر
ملك تبوأ خير دار أنشئت	في خير مبدى للأنام ومحضر
في رأس مشرفه حصاها لؤلؤ	وترابها مسك يشاب العنبر
مخضرة والغيش ليس بساكب	ومضيئة والليل ليس بمقهر
ظهرت لمخترق الشمال وجاورت	ظلل الغمام الصائب المتغزر
فرفعت بنياناً كأن مناره	أعلام رضوى أو شواهد صبر
ازرى على همم الملوك وغض من	بنيان كسرى في الزمان وقيصر
عال على لحظ العيون كأنما	ينظرن منه إلى بياض المشتري
ببانيه باني المكرمات وربّه	رب الاخشاب والصفاء والمشعر
ملأت جوانبه الفضاء وعانقت	شرفاته قطع السحاب الممطر
وتسير دجلة تحته ففناؤه	من لجة غمر وروض أخضر ^(٢٥٩)

ثم تلا ذلك فقرات غنائية وبعدها أدى المهرجون بعض الملاهي المضحكة^(٢٦٠) وقام المشعوذون بحركات مدهشة أثارت ابتهاج المتوكل الذي وهب الجميع ٢/٠٠٠/٠٠٠ درهم جوائز وهدايا^(٢٦١).

وحزّ في نفس المنتصر الذي حضر الاحتفال هذا الاسراف والتبذير كما أثار غضبه أن والده كان يعامل أخاه التافه بطريقة يفهم منها الجميع انه الابن المدلل وربما الخليفة في المستقبل.. وسفحت مئات الدنان من الخمر.

ولم تكن والدته المتوكل سعيدة بالاحتفال بل أنها انسحبت من المكان المخصص لنسوة القصر... اما أم المنتصر فلم تسكن القصر بالمرّة وفضلت البقاء في الجوسق الخاقاني ولم تكن راضية بطبيعتها المتدنية عن تصرفات زوجها خاصة معاملته القاسية والمذلة لابنها^(٢٦٢).

وقال المتوكل لأبي العيّن:

- ما رأيك بالجعفري؟

قال الشاعر:

الناس ينون قصورهم في الدنيا وأنت بنيت الدنيا في قصرك؟

وفي اليوم التالي كان بلاط القصر يعجّ برواة الحديث وكأنهم يتبارون بنقل الحديث وحفظ الاسانيد الطويلة... يقف أحدهم فيجرّ إسناداً طويلاً عن ظهر قلب: حدثني فلان قال حدثني فلان... التفت عبيدالله بن يحيى وقد برقت عيناه بالنذالة وهمس بخبث:

- الآن يمكنك أن تسدد ضربة لابن الرضا.

التمعت عينا الطاغية:

- كيف؟!

- تحضره الآن وتسأله عن تفسير هذه الآية: (ويوم يعرض الظالم على يديه يقول يا ليتني اتخذت مع الرسول سبيلاً. يا ويلتي ليتني لم أتخذ فلاناً خليلاً)^(٢٦٣).

- ولماذا هذه الآية؟!

- لأنه يفسرها في الشيخين.

- حقاً؟!

- نعم يا سيدي.. احضره واسأله أمام أهل الحديث فإن فسرها هكذا كفأك هؤلاء أمره.. وأن فسرها بخلاف ذلك فهي فضيحة له بين أصحابه!

وتصور الطاغية أن الامام سيقع في الفخ المنسوب ويقضى عليه انتصاراً للسنة وسيكون مصيره كمصير عيسى بن جعفر بن عاصم الذي اعدم بتهمة شتم الخليفة الأول والثاني.

برقت عيناه وقال:

- ارسل وراءه فوراً!

وكان شيخ طويل اللحية ما يزال يلقلق بسند طويل لحديث مزور سخيف...

عندما وصل الامام كان البلاط يغص برجال الحديث واغلبهم على استعداد كامل لأن يشرب من دماء الشيعة والمعتزلة.

وهب المتوكل للقاء ابن الرضا فور ظهوره في البلاط.. القوام المربع والوجه الاسمر المهيّب.. وداهمه شعور بالضآلة لا يعرف مصدره... لماذا يتضاءل كلما التقى هذا الرجل العلوي الذي ظهر بعض الشيب في لحيته وهو في منتصف الثلاثين من عمره؟!

لقد مرّ أكثر من عشرة أعوام على احضاره إلى سامراء وفي كل مرة كان يقرّر تصفيته ولكنه يتراجع في اللحظة الأخيرة.. أمّا هذه المرة فسوف يجعله بين انياب المحدثين!!

عندما استقر بالامام الجلوس ينظر إلى جموع أهل الحديث تروي أحاديث لم يتفوه بها جدّه العظيم.. شعر بالحزن المرير لهؤلاء.. وكان أولى بهم أن يعرضوا الحديث النبوي على كتاب الله فأَن وافقه أخذوا به وأن خالفه طرحوه.

فالقرآن الكريم وهو المعيار في سلامة الحديث وإلا كان مفتعلاً في زمن بني أمية لارضاء الخلفاء والسلطين.

ورأى المتوكل الفرصة سانحة لتسديد ضربة لابن الرضا فقال:

- يا أبا الحسن ما تقول في تفسير قوله تعالى: (ويوم يعض الظالم على يديه يقول ياأللني اتخذت مع الرسول سبيلاً.. يا ويلتي ليتني لم اتخذ فلاناً خليلاً)؟!

نظر الامام بعينين تشعان حزناً إلى عبيدالله الذي شعر بان اشعة نفاذه تغوص في أعماقه وتفضح ما يموج فيها من دسائس ومؤامرات..

واصغى الحاضرون لما سيقوله الامام وفيهم قضات ومسؤولون في الدولة.. قال الامام بهدوء وهو ما يزال يحدّق في وجه عبيدالله الذي علته صفرة شديدة:

- هذان رجلان كنى الله عنهما، ومن عليهما بالستر، أفيحب أمير المؤمنين أن يكشف ما ستره الله؟!

قال المتوكل على مضر:

- كلا.. لا أحب.

وهيمن صمت مهيب على المكان، سرعان ما كسره رجل من أهل الحديث انبرى ليجتر سنداً طويلاً ثم يختمه بحديث من انتاج الوضاعين والأفاكين!

الفصل الحادي والثلاثون

تمت ترقية الضابط التركي «باغر» واصبح شخصية لها نفوذها في البلاط وأصبح من حقه أن ينتخب بعض رجال الحرس لحماية الخليفة من أية محاولة للاغتيال.

وبالرغم من أن نفوذ القائد التركي القديم «وصيف» ما يزال قوياً إلا أنه شعر بان هناك من يحاول الايقاع به، فالوزير بن يحيى لا يكف عن حبك الدسائس ضد كل من لا ينحني أمام «آل خاقان» الذين اصبحوا الحكام الحقيقيين، فهناك ما يشبه الحلف بين أفراد الاسرة وزوجة الخليفة التي ما انفكت تخطط للسيطرة على الخلافة من خلال ابنها المعتز.

ولكن وصيفاً لن يقف مكتوف الأيدي ويتعين عليه أولاً أن يكسب «بغا» أو ابنه بأية طريقة!!

أما القائد «بغا» العجوز فقد كان واثقاً من مركزه فهو زوج خالة الخليفة^(٢٦٤). فزوجته هي اخت «شجاع» فهو إذن خال الخليفة!

كما أن ابنه موسى الذي يلقب بـ «بغا الصغير» أو بغا الشرابي هو ابن خالة الخليفة والمسؤول الأول عن حفلات المتوكل وهو الذي يقوده عندما يشمل من الشراب إلى مخدعه.

ولذا اصبح في مأمن من دسائس الوزير، ومع ذلك، فان المتوكل لا يمكن الركون إليه والوثوق به أبداً إنه لم يعد يفكر إلا بمنافعه الشخصية حتى لو كان ثمنها هلاك العباد ودمار البلاد.

كما أن بغا الكبير ظل يحافظ على هيئته العسكرية من خلال قيادته العامة للجبهة الشمالية حيث الاشتباكات مع الروم تندلع بين فترة وأخرى في ظل ظروف متوترة دائماً ساعدت على تثبيت مركز الخليفة وتبرير استبداده وعندما تهدأ الأوضاع في الجبهات يعود إلى سامراء خاصة مع بدء المفاوضات لتبادل الأسرى والتي بدأت هذا العام بعد حلول شهر صفر (٢٦٥).

وفي كربلاء كان التوتر ينذر بوقوع انفجار خاصة مع حلول شهر شعبان حيث يحرص الناس على زيارة البقعة المباركة حيث يرقد الحسين رمز الاباء والثورة على الظلم وعلى كل «يزيد» جديد.

فوجئت الشرطة بأعداد غفيرة تتدفق، يشكل سكان الأرياف أغلبية ساحقة. واصبح من الصعب مواجهة كل هذا العدد خاصة وأنهم لم يأتوا مسلحين وانما جاءوا فقط لزيارة الحسين ابن بنت نبيهم وريحاته! حاول قائد الشرطة منعهم من الاقتراب وحذرهم من عواقب ذلك ولكنه لمح في عيونهم اصراراً لا يمكن زحزحته، وسمع بعضهم يهتف: - لو قتلنا عن آخرنا لما أمسك من بقي منا عن زيارته. ووجه القائد إلى سامراء رسالة سريعة يوضح فيها خطورة الوضع.. وجاء الجواب من الطاغية إلى القائد بالكف عنهم والمسير إلى الكوفة والانكفاء إلى المصّر (٢٦٦).

وكانت فكرة المتوكل تعزيز قواته العسكرية وضرب طوق كامل على المنطقة ومن ثم القيام بحرقها مرة أخرى وطمس جميع المعالم التي قد تدل على القبر. ولذا فقد رابطت قوات عسكرية قرب النجف واكتفت بمنع زيارة مرقد الامام علي بن أبي طالب (٢٦٧).

وفي هذه الظروف الخطيرة أعلن الامام الهادي عن بعض الافكار المناقضة لسياسة الحكم الفكرية.. فقد اجتمع في منزله جمع غفير من الناس وفيهم علماء كبار.. واتخذ

الاجتماع صبغة التحدي للطاغية الذي يريد للأمة أن تستحيل إلى قطع من النعاج لا يعرف غير الطاعة حتى لو ساقها إلى المسلخ!

وكان واضحاً تماماً أن الامام سوف يجيب على أي سؤال فكري دون تردد..

وكان السؤال الحساس والخطير حول امكانية رؤية الله سبحانه!! فجاء الجواب حاسماً:

- لا يجوز الرؤية ما لم يكن بين المرئي هواء ينفذه البصر فإذا انقطع الهواء، وعدم الضياء بين الرائي والمرئي لم تصح الرؤية.. وكان في ذلك الاشتباه لأن الرائي متى ساوى المرئي في السبب الموجب بينهما في الرؤية وجب الاشتباه، وكان في ذلك التشبيه لأن الاسباب لا بد من اتصالها بالمسببات» (٢٦٨).

ان الجهاز البصري انما يرى الاشياء من خلال الضوء والهواء وفي انعدامها تستحيل الرؤية.. والضوء والهواء من الممكنات المحدودة فكيف يمكن أن يكونا وسيلة لرؤية القوة التي ابدعتها وابدعت غيرهما.

كما ان الرؤية تستلزم المساواة بين الرائي والمرئي، ولذا صعب موسى النبي عندما أراد رؤية الله:

قال: رب أرني أنظر إليك؟

قال: لن تراني... ولكن انظر إلى الجبل فان استقر مكانه فسوف تراني.

فلما تجلّى ربّه للجبل جعله دكاً، وخرّ موسى صعقاً!

فلما أفاق قال: سبحانك.. تبت إليك وأنا أول المؤمنين» (٢٦٩).

وسأل آخر:

- هل ان الله جسم؟

وغمرت الامام حالة من غضب مقدس فقال:

- ليس منا من زعم ان الله عز وجل جسم، ونحن منه براء في الدنيا والآخرة..

يا بن أبي دلف ان الجسم مُحَدَّث والله محدثه ومجسّمه» (٢٧٠).

ان من يقول بتجسيم الله انما ينفي عنه الأزلية...

تساءل ابن أبي دلف:

- ولكن هشام بن الحكم^(٢٧١) كان يقول بالتجسيم؟!

- مالكم ولقول هشام.. سبحان من ليس كمثله شيء لا جسم ولا صورة^(٢٧٢).

وسأله آخر:

- هل يمكن وصفه سبحانه؟

- ان الخالق لا يوصف إلا بما وصف نفسه، وكيف يوصف الخالق الذي تعجز الحواس

أن تدركه والأوهام أن تناله، والخطرات أن تحدّه والابصار عن الاحاطة به؟!

جلّ عما يصفه الواصفون، وتعالى عما ينعتة الناعتون..

نأى في قربه وقرب في نأيه..

فهو في نأيه قريب.. وفي قربه بعيد.

كيف كيف.. فلا يقال له كيف؟

وأيّن الأيّن.. فلا يقال له أيّن؟

إذ هو منقطع الكيفية والأينية..

هو الواحد الأحد الصمد لم يلد ولم يولد ولم يكن له كفواً أحد^(٢٧٣).

وتساءل شيخ تبدو عليه سيماء الإيمان:

- ماهي حقيقة التوحيد؟

أجاب الذي أوتي الحكمة وفصل الخطاب:

- أن نعتقد أن الله لم يزل وحده لا شيء معه، ثم خلق الأشياء بديعاً، واختار لنفسه

الأسماء، ولم تنزل الأسماء والحروف معه قديمة...^(٢٧٤).

ومن خلال النافذة أرسل الأمام نظرات ملؤها الحزن والخشوع وهو يحدّق في الأفق

البعيد ويتمم بخشوع:

- الهي تاهت أو هام المتوهمين.

وقصر طرف الطارفين.

وتلاشت أوصاف الواصفين.

واضمحلت أقاويل المبطلين.

انت في المكان الذي لا يتناهى..

يا أولي.. يا وحداني.

يا فرداني..

ودمعت عيون البعض خشوعاً لله رب العالمين.

غير أن هناك بعض العيون الزجاجية كانت تراقب بقسوة كل ما يجري.. انها عيون الجواسيس الذين لا يفقهون شيئاً مما يسمعون فهم كالأنعام بل هم أضل سبيلاً.

الفصل الثاني والثلاثون

كانت فكرة المتوكل من وراء بناء مدينته الجديدة لا تنحصر فقط في اشباع رغبته المجنونة في بناء القصور فهناك أهداف أخرى أيضاً..

فالبناء يتطلب أموالاً كبيرة، والمطلوب من حكام الولايات توفير هذه المبالغ الخيالية.. وسوف يقود هذا إلى ارتفاع الضرائب، وارتفاع الضرائب سيقود إلى افقار الناس، الذين سيضطرون إلى العمل ليل نهار من أجل الحصول على رغيف الخبز.. وعندها لن يكون لديهم الوقت الكافي للتفكير في سياسة الحكم أو التأمر على الطاغية.

ثم أن المدينة الجديدة قد منحها نفس لقبه: «المتوكلية» وشاعت لدى الناس باسمه: «الجعفرية»، وسيسكنها عليّة القوم أو بعض الشخصيات التي قد تهدد مركزه فيسهل حيثئذ مراقبة الجميع ولن يكون بمقدورهم بعد اليوم الاتصال بالشعب... أما الجواسيس فستكون لهم مهمتهم القديمة: تدمير روح المواطنين وانعدام الثقة بينهم.

من أجل هذا خصص المتوكل قطعة من الأرض للإمام أبي الحسن الهادي ليبنى فيها منزله^(٢٧٥) وبهذا سوف يعزله عن الناس وتسهل مراقبته جيداً، ولذا اصدر أوامره بمنح الامام ثلاثين ألف درهم^(٢٧٦) لتشييد منزله في المتوكلية واخلاء منزله في سامراء بأسرع وقت... وسيكون الامام الهادي بعد نهوض منزله الفخم الجديد في نظر الكثيرين من الناس انساناً مثل الآخرين... انساناً ثرياً قد لا يختلف عن اصحاب النفوذ من العباسيين وربما حتى القادة العسكريين الاتراك!

ان الذين يعرفون المتوكل قبل أن يصبح خليفة، سوف يصعقون وهم يشاهدونه في صورته الجديدة طاغية كبير ثبت حكمه من خلال اساليب رهيبة جداً.. جواسيس كبار لا يعرفهم المرء فقد يكون الجاسوس خادماً صغيراً أو جارية حسناء، وربما كان شحاذاً متسولاً في سامراء!

كان المتوكل قبل أن يتسلم زمام الحكم شاباً مائعاً بشعره الطويل، الذي يشبه شعر المرأة^(٢٧٧) وكانت تلوح عليه ملامح المخشئين!!

فأين يكمن يا ترى سر كل هذا الإرهاب؟ وكيف تفتق هذا الانسان الوضع عن طاغية رهيب؟!

ان الاشباح التي يخشاها المرء في الظلام ليس لها وجود إلا في رؤوس الخائفين الذين يتصورون خشخشة الأشواك شياطين سوف تنقض عليهم..

وكذلك الطغاة انهم ليسوا مرعبين بذاتهم... ان صورهم المرعبة لا توجد إلا في اعماق النفوس الخائنة المتسلمة للذل من أجل الحياة..

من أجل هذا يحقد المتوكل على «الحسين» بعد أن استحال رمزاً يتألق مجده كلما ظهر «يزيد» جديد.

ومن أجل هذا اقدم الطاغية على تدمير قبة الحسين ومرقد الحسين وسوى القبر بالتراب... من أجل أن يحطم روح العزة والاباء في نفوس ابناء شعبه ورعاياه.

ولم لا يكون المتوكل مرعباً ومخالبه تنشب في كل مكان يريد.. وها هي الاخبار تصل عن اغتيال الشاعر المشرد دعبل الخزاعي في قرية نائية قريباً من «سوسة»^(٢٧٨).

لقد انتهت حياة الشاعر الذي يعد أول من وصف المتوكل بالذئب.

ها هو الآن يرقد في اعماق الثرى الذي يضم بين حناياه رفات الأنبياء.

لقد ظلّ يحمل معه صليبه عشرات السنين متشرداً في المدن الخائفة^(٢٧٩).

تدفق آلاف العمال إلى شمال سامراء للعمل في المدينة ليل نهار، وكان ١٢/٠٠٠ عامل ينهمكون في شق تفرع نهري شمال «المتوكلية» لتأمين مياه الشرب وملء الأحواض وامتداد النافورات بالمياه الكافية.. ولكن «المهندس دليل» قد بدأت تساوره الشكوك في نجاح المشروع بسبب صلابة الارض بعد أن باتت معاول العمال تعجز في تفثيت الصخور والحصى كلما أمعنوا في الحفر وقد تجاوزت نفقات الحفر أكثر من ١/٥٠٠/٠٠٠ دينار دون أن يبشر النهر بخير.

وكانت جدران القصور والمنازل في المدينة الجديدة قد بدأت ترتفع ابتداءً من القصر الجعفري الذي يربض في الشمال، وباتجاه الجنوب الشرقي حيث يوجد قصر «بركوارا»، قصر الامير المدلل «المعتز» وولي العهد المرشح للخلافة في الوقت الحاضر... بعد أن وصلت العلاقات بين المتوكل وابنه «المنتصر» إلى أرداد مستوى، وليس هناك ما يمنع وقوع الانفجار سوى «أم المتوكل» التي لا تخفي تضامنها مع حفيدها، ولكنها الآن قد شاخت كثيراً، وباتت تخطو خطواتها الأخيرة نحو الحفرة التي تكمن في طريق البشر، وفي مكان ما من الطريق!

وفي تموز سنة ٨٦٠م ربيع الثاني سنة ٢٤٦هـ توفيت «شجاع» ورتب لها تشيع من القصر الجعفري وحتى المسجد الجامع حيث ستوارى الثرى... ولأسباب غير معروفة لم يحضر الخليفة الصلاة فقام المنتصر بالصلاة على جثمان جدته التي دفنت عند المسجد الجامع^(٢٨٠).

وفي شعبان توترت الأجواء في بغداد والكوفة وفي كربلاء وحتى في سامراء..

وأصبحت «زيارة الحسين» في هذا الشهر المبارك وقبل حلول الشهر الكريم هاجس الكثيرين..

وكالمعتاد ضاعفت الحكومة قواتها العسكرية في الطرق المؤدية إلى الأرض المباركة حيث هوى الحسين شهيداً.

فرضت الحكومة هذه المرة غرامات مالية ثقيلة يدفعها الزائر لكي يمكنه التوجه إلى كربلاء، وكان بعض المؤمنين قد وضع علامات تحدد مكان القبر^(٢٨١).

وبالرغم من وحشية الإجراءات إلا أن سيل الزائرين لم ينقطع، ووقعت بعض الحوادث المؤلمة واعتقل كثير من الزوار سيقوا إلى سجن المطبق الرهيب في بغداد.

وبسبب كثرة الزوار وازدحامهم وارتفاع أصوات الذين سيكونون مظلومية سبط النبي ﷺ.. شعر الطاغية بالخطر فأرسل تعزيزات من الجيش.

وهناك قرأ انذار شديد اللهجة يهدد بالموت كل من يقترب من القبر^(٢٨٢).

كانت الغيوم تتحشد في السماء.. غيوم حزينة كابية تجسد بمرارة حزن الخريف وظل القمر قابلاً خلف السحب.. وفي نهاية الاسبوع الثالث من شعبان تدفقت الغيوم مطراً غزيراً.. لكان السماء تبكي، وأضحت السماء من شمال بغداد وحتى جنوبها عند كربلاء ملبدة بالسحب الداكنة.. واستمر المطر يهطل بشكل متواصل تحف زخاته وتشتد.. حتى أن أهل بغداد لم يروا هلال رمضان بسبب كثافة الغيوم فصاموا باستهلال المدن القريبة..

ولم تكف السماء عن البكاء إلا في منتصف شهر رمضان المبارك وظهر القمر ندياً تحيطه هالة من النور؛ وظهرت السماء زرقاء صافية بعد واحد وعشرين يوماً من المطر^(٢٨٣)، ولكن الأفق الغربي لم يزل يحتضن بعض تنف السحب الرمادية.. وفي بغداد نبت العشب فوق الأجاجير^(٢٨٤) ولكن ما أثار الدهشة ذلك الخريف أن السماء أمطرت دماً عبيطاً في «بلخ»^(٢٨٥)!!

وقبل أن يظهر هلال شوال أحيط أهالي سامراء بأن صلاة «عيد الفطر» سوف تقام في العاصمة الجديدة ولذا يتعين على الجميع الحضور مع طلوع الشمس وكانت رياح كانون الأول تبشر بشتاء قارس طويل.

لم يحضر الخليفة في الوقت المناسب وكانت الجموع الغفيرة التي قطعت أربعة أميال بين سامراء والمتوكلية قد ساورها حزن مكبوت بسبب جبروت لا ينفك الخليفة تجسده في تصرفاته..

وفيما كانت الجموع تنفض للعودة والابتهاج بالعيد السعيد كان المتوكل في طريقه إلى

أحياء المتوكلية.. وقد ظهرت بعض القصور والمنازل.. ولفت نظره منزل الامام الذي لم ترتفع أسسه إلا اشباراً معدودة... وانفجر بركان غيظ وحقد والتفت إلى وزيره الذي أصبح مركزه قوياً وراح يتهدد:

- إذا جئت مرة أخرى ورأيت البناء لم يرتفع فسأقتله.. وسأحرقه..

وراح المتوكل يتشظى غيظاً وهو يؤكد تهديداته بالقسم.

قال الوزير محاولاً اشباع رغبته إلى التملق:

- يا أمير المؤمنين.. لعله في ضائقة.

- ارسل إليه عشرين ألف درهم!

وفي الضحى من نفس اليوم كان احمد بن عبيدالله يحمل المبلغ في طريقه إلى سامراء وقال ابن الوزير:

- ان والدي أرسل اليك هذا المبلغ لإنفاقه على البناء، وأمرني أن ابغلك ما حدث.. ان الخليفة يهدد ويتوعد ويقول إذا ركب إلى البناء مرة أخرى ولم يره قد ارتفع فسوف يقتلك.

قال الامام بهدوء وقد تألقت عيناه بحزن سماوي.. لكأنه ينظر إلى المديات البعيدة:

- «إن ركب إلى البناء» (٢٨٦).

وعلق الوزير وهو يستمع إلى تقرير ابنه:

- إذن لن يركب الخليفة إلى البناء (٢٨٧) ..

تساءل الابن:

- كيف؟!

- انني يا بني أعرف هذا العلوي أنه يقول أشياء عجيبة... لكأنه ينظر إلى صفحات الغيب ويقرأها سطرًا سطرًا.

وفي منتصف شوال بدأت رياح كانون الثاني بالهبوب تبعثر أوراق الاشجار التي استعصى قلعتها على الخريف، وتصاعدت وتيرة الحفلات في قصر الجعفري حفلات تسفح

فيها القيم الأخلاقية أمام عردة غرائز مجنونة لا تعرف الشعب، ويمكن القول أن المتوكل الذي أدمن بشراهة الخمر قد أصبح في سكر دائم وبدا القصر الكبير بمساحته الواسعة وغرفه الكثيرة يستحيل إلى بيوت عناكب.. وقد استعرت حمى الدسائس.

واحس القائد التركي «وصيف» بأن مؤامرة خطيرة تستهدفه وأن الفتح بن خاقان ومعه أسرته المتنفذة والمسيطرة على شؤون القصر سوف توجه له ضربة قاضية، وأن زوجة الخليفة النعمة التي يسيل لعابها للمال تتطلع مع آل خاقان لنهب ثروته!!

عليه أن يبادر قبل فوات الأوان!!

وفي جنح الليالي المظلمة كانت رقاع مكتوبة بعناية فائقة ترمى في هذه الغرفة أو تلك أو تسقط بطريقة ذكية في طريق بعض موظفي القصر الكبار.

وقعت في يد القائد بغا عدة رقاع كلها تشير وتؤكد نوايا المتوكل بالحد من نفوذه ومصادرة بعض ممتلكاته بل وحتى قتله بصورة سرية^(٢٨٨) وتزامن ذلك مع وقوع رقاع أخرى في يد المتوكل ورئيس وزرائه تحذر من حركة عسكرية سيقودها بغا ضد الخليفة الذي زادت هواجسه فأمر بمراقبة «بغا» من بعيد.

كما تكثفت المراقبة لمنزل الامام في سامراء، وكان الجواسيس يضخمون من الحوادث الصغيرة بحيث يتحول لقاء صغير بين الناس والامام إلى تقرير خطير يحذر من احتمال جمع الإمام للرجال استعداداً للثورة!

أما المنتصر فقد أصبح هاجساً ثقيلاً لدى المتوكل، الذي كان يستغل المناسبة وغير المناسبة للحط من شأنه والتكيل به وإذلاله^(٢٨٩).

وبات الجميع يدركون أن الحكم قد أصبح بيد آل خاقان ومن ورائهم زوجة الخليفة ذات النفوذ المتفاقم.

وبدأت اجهزة البلاط تخطط بشكل جنوني لتعزيز مركز المعتز على حساب أخيه^(٢٩٠).

وقد دفع هذا الوضع «بغا» و«وصيف» إلى الائتلاف حول المنتصر ولو من بعيد والتضامن معه بشكل سري، والاستفادة منه باعتباره الوريث الشرعي للخلافة بعد أبيه.

الفصل الثالث والثلاثون

الرياح الشتائية تتحب وهي تقطع المسافات بين قصر الجعفري الريب وحتى سامراء، على امتداد الطريق العريضة... حيث تنهض منازل حديثة وقصور منيفة..

الرياح تجوس الأزقة الفارقة في الظلام، وقد غاب القمر في المحاق.. ومازاد الظلام رهبة الغيوم الكثيفة وهي تقطع السماء الكحلية بسرعة كسفن هزمت في معركة ضارية.

ومن خلال نوافذ القصر الجعفري المتوهجة بالأضواء يحدس المرء بذخ الليلة الساهرة التي أحيها الطاغية.. وكانت أصوات ناعمة وأخرى مخنثة متقطعة يمكن للمرء أن يسمعها لو أصاخ السمع قليلاً.

الطاغية الذي تمدد مسترخياً متكئاً على ساعده الأيسر يرتشف متلذذاً خمرة معتقة، وكانت الكؤوس تدور على الحاضرين وفي طليعتهم وزير البلاط عبيد الله بن يحيى، وبعض الندماء، ابن الحفصي، سلمك، عثث، سليمان الطبال، حشيشة، ابن القصار، صالح الدفاف، ومن المطربات، عريب، سراب، عرفان، نجلة، فريدة^(٢٩١)، فيما انفردت محظيته «محبوبة» بمكان مرموق^(٢٩٢) وقد بد أباعر التركي وهو قائم خلف السرير الملكي عملاقاً اسطورياً.

وانتشى المتوكل منفعلًا مع انغام الموسيقى وغناء المطربات... وفي صمت كان موسى بن بغا الكبير المعروف بـ «بغا الشرايبي» يراقب الخليفة إذ يتعين عليه انتهاء السهرة إذا ثمل الخليفة، أو إذا تجاوز في شربه سبعة أرطال من الخمر.

كؤوس الخمرة تدور، وتدور معها رؤوس غادرتها العقول.

الخمرة مياه آسنة تطفئ وهج العقل... ذلك القبس السماوي الذي يمنح الإنسان هويته. ليس هناك ما هو أخطر من طاغية يستحيل إلى عبد خانع.. عبد لشهواته وغرائزه المجنونة.. وعبد لمخاوفه وهواجسه.. انه يجد نفسه وحيداً في صحراء قاحلة.. ليس لديه اصدقاء.. لديه فقط أعوان قد يقومون باغتياله لأنهم اناس أوغاد بطبعهم..

أنه يشعر بالحاجة اليهم.. مضطراً إلى تملقهم.. من أجل هذا كان المتوكل مضطراً

لارضاء أسرة خاقان التي تفاقم نفوذها بشكل سرطاني..

إن كل ما يجري حوله يشعر به من خلال رئيس وزرائه الفتح بن خاقان أو وزير البلاط عبيدالله بن يحيى بن خاقان.. انه مضطر أيضاً لارضاء زوجته التي لا حدود لاطماعها ومضطر إلى أن يفعل كل شيء من أجل عرشه..

أنه يخشى غضب الشعب الذي ينوء تحت وطأة ضرائب تقصم الظهر.. انه مضطر لافقار الناس حتى لا يفكروا بشيء سوى الحصول على رغيف الخبز.. انه مضطر.. مضطر لأن يخضع لقوى عمياء تحيله إلى عبد.. نذل.. وغد.. ذئب.. طاغية.. يسعى إلى أن يجعل من أمته قطعاً ذليلاً من النعاج..

يلتهم لحومها.. يرتدي أصوافها ويتلذذ بشرب البانها ثم يرمي عظامها بعيداً!!
ولكن ما يثير رعبه وجود الأحرار ذوي الكرامة الذين يترفعون عن الخضوع..
التذل.. الخنوع..

أنه يجعلهم تحت رقابة خانقة.. فيقتلهم مع أول تقرير تنقله إليه كلابه المسعورة..
وربما انتابت الطاغية هواجس مرعبة وهو في حالة سكر فتقفز بعض مخاوفه الرهيبة فإذا به يصدر أمراً إلى جلاوزته الأوغاد بمداهمة رجل كريم في قلب الظلام.. وهذا ما حصل تلك الليلة الشتائية عندما استكمل المتوكل شرب ثلاثة أرطال من الخمر..

وفي منتصف الليل وفيما كانت الرياح الشتائية تهب من صوب الشمال شهد درب الحصا هجوم عصابات الليل.. وخليطاً من أشباه الرجال فيهم أتراك غلاظ وزنوج وأجلاف من قبائل الخزر.. فجاسوا خلال الحجرات..

كان الامام يرتدي ملحفه من الصوف مستقبلاً جهة الجنوب يتلو بحزن آيات من القرآن في حجرة خالية:

- «تبارك الذي جعل في السماء بروجاً..

وجعل فيها سراجاً..

وقمراً منيراً..

وهو الذي جعل الليل والنهار خلفه لمن أراد أن يذكر

أو أراد شكورا..

وعباد الرحمن الذين يمشون على الأرض هونا..

وإذا خاطبهم الجاهلون قالوا سلاما..

والذين يبيتون لربهم سجداً وقياماً^(٢٩٣).

واقترح الأوغاد الحجرة.. ليقطعوا ترائيل الآيات... ليوقفوا النهر السماوي الخالد..

لم يكن في الحجرة شيئاً ولا في غيرها سوى بعض الكتب..

رفع الامام رأسه ولم يد عليه أي رد فعل.. كانت السكينة تغمره ويشع من عينيه نور يعكس انسجام نفسه المتسامية وروحه الطاهرة..

ولقد كان منظر الأوغاد يحيطون به يحكي غربة الانسان المقهور... وعندما أراد الامام أن يرتدي بدلة الخروج قال أحدهم بغلظة:

- ان أمر الخليفة يقضي بمملك على نفس الهيئة التي وجدناك عليها..

واقترح الامام مخفوراً من سامراء وحتى القصر الجعفري الرابض في شمال «المتوكلية».

كانت رياح الشمال تلفح الوجوه.. وتزيد من استعار البرد وقد اختلط أنين الريح وسنايك الخيول، وعواء ذئاب بعيدة، لتؤلف معاً موسيقى تبعث الرهبة في القلوب، وقد زاد من رهبة الطريق الأفق المزدحم بغيوم كالحة، وقد ظهرت نجيمات تفعل المستحيل من أجل أن تنقل بصيص نور إلى الارض الغارقة في بحر الظلمات... فتحت بوابات القصر المواجهة لدجلة..

ويرسم القدر في تلك الليلة الموحشة لوحته الرهيبة.. إذ الرياح تولول خلال الدروب الغارقة الظلام فيتألق مشهد من مشاهد النبوات الغابرة.. عندما يقف ابراهيم وجهاً لوجه أمام النمرود، أو يواجه موسى فرعون ذا الاوتاد..

كان الطاغية على وشك أن يعب كاساً أخرى مترعة بسائل يطفئ شموع العقل..

عندما دخل الجلاوزة وهم يحفون برجل اسمر يرتدي ثياباً منسوجة من الصوف.. فبدا في وقفته المهيبة وإبائه ووجهه الاسمر؛ موسى الذي دخل على فرعون في قعر قصره.

قال جلواز بصوت فيه خنوع العبيد:

- لم نعر يا سيدي على أي شيء.. لا سلاح ولا أموال.. لقد فتشنا المنزل تفتشياً دقيقاً.

تأمل الطاغية الوجه الاسمر فداخله شعور غريب هو مزيج من التهيب والحنق مع قدر مدمر من الحقد.

أشار الطاغية إلى غريمه القديم ليجلس معه على السرير جلس الامام وقد غمره شعور بالحزن لمشهد دنان الخمر... وقد اصطف اسفل السرير حشد من المهرجين الذين يعبدون الطاغوت من دون الله..

ناول الطاغية الرجل الاسمر كأسه... فقال الذي ورث أخلاق النبوات:

- اعفني يا أمير المؤمنين.. انه لم يخامر لحمي ولا دمي أبداً.

قال الطاغية:

- إذن انشدني شعراً.

- إنني لقليل الرواية للشعر.

قال الطاغية بإصرار:

- لا بد من ذلك!

وهيمن صمت مهيب.. صمت يشبه السكون قبل هبوب العاصفة.. السكينة قبل هطول المطر.. صمت يجسد لحظات الحزن الأخيرة قبل انبجاس الدموع.. وجاء صوت الامام حزيناً معبراً، يكشف حقائق الحياة والانسان والتاريخ:

غُلِبَ الرجالِ فما أَغْنَتْهُمْ القُلُلُ

وأودعوا حضراً يابئس ما نزلوا

أين الاسرةُ والتيجانُ والحللُ؟

«باتوا على قُللِ الاجبالِ تحرسُهُم

واستنزلوا بعد عَزٍّ من معاقلهم

ناداهمُ صارخٌ من بعد ما قبروا

أين الوجوه التي كانت منعمةً من دونها تُضربُ الأستارُ والكللُ؟
 فافصحَ القبرُ عنهم حين ساء لهم تلك الوجوه عليها الدودُ يقتتلُ
 قد طامأ أكلوا دهرًا وما شربوا فأصبحوا بعد طول الأكلِ قد أكلوا
 وطامأ عمّروا دوراً لتحصنهم ففارقوا الدورَ والأهلينَ وارتحلوا
 وطامأ كنزوا الأموال وادّخروا فخلّفوها على الأعداء وانتقلوا
 أضحت منازلهم قفراً معطلةً وساكنوها إلى الاجداث قد رحلوا^(٢٩٤)

وصوب الامام نظرة تتجلى فيها رحمة الانبياء:

سل الخليفة إذ وافت منيته أين الحماءُ وأين الخيلُ والخولُ؟
 أين الرماةُ أما ثحمتُ بأسهمهم لما أتنك سهامُ الموتِ تنتقلُ؟
 أين الكماءُ أما حاموا أما اغتضبوا أين الجيوش التي ثحمتُ بها الدولُ؟
 هيهات ما نفَعوا شيئاً وما دفعوا عنك المنية إن وافى بها الأجلُ
 فكيف يرجو دوامَ العيش متصلاً من روحه بحبالِ الموتِ تتصلُ؟!

وعندما هدأت صواعق الكلمات توقع الحاضرون أن رأس هذا السيد الحصور سوف يتدحرج.. وأن باغر التركي سوف يستل سيفه الاسطوري.. ليهوي به على رأس يحيى بن زكريا، ليستقر عند قدمي «سالومي» الجديدة، زوجة الطاغية تلك المرأة الغامضة... ولكن ما حدث كان يشبه أمواجاً غاضبة تدمر المجد الزائف الذي بينه الطغاة فوق جماجم الابرياء..

ذلك أن الذين يتربعون فوق عروش المجد الدنيوي سوف ينحدرون إلى هاوية سحيقة.

سيلوي القدرُ سواعدهم المقتولة.. القدر.. المصير الحتم الغامض الموت.

ويستحيل العرش إلى شاهدة قبر بئس، حيث يرقد الإنسان بعد ضجيج السنين تحت التراب..

ويصبح القبر إلى ميدان تتصارع فيه الديدان... ويسأل الراقد الذي يمتصه التراب وينهشه الدود، ولكن السؤال يبقى دون جواب لم يعد هناك من فرق بين النور والظلمة..

أشرقت الشمس أم لم تشرق... لأن عالم القبور.. عالم صامت مقفر إلا من عظام الموتى..
عالم يلفه ليل طويل كليالي الأبد..

وبالرغم من السكون المهيب فأن القبر يكاد يهتف بالحقيقة.. حقيقة الحياة والانسان!!
آه ان جماجم الملوك عارية من التيجان.. والحدود المتوردة بالدماء هي الآن جزء من
التراب الذي يلف الجماجم النخرة.

كل شيء يستحيل إلى رماد ورفاة.. حتى الأغاني والزهور، وتستحيل القبور إلى عالم
صمت يرهف سمعه إلى الخطى التي تجوس الدروب خلال الحقول... فالعالم فوق التراب
يضع بالحياة.. والأشياء التي كانت في قبضة الموتى ذات يوم هي الآن في قبضة الآخرين..
القصور يسكنها الآخرون، والأموال في أيدي الآخرين.. انها حركة الاجيال تصاعد
من التراب، وتعود إليه ولو بعد حين.

تلك حكاية القرون.. القرون التي مضت.. فالانسان مهما ملأ الدنيا ضجيجاً له موعد
يوماً ما مع نومة في التراب.. انه يقترب شيئاً فشيئاً من حفرة التي تكمن له في الطريق..
طريق الحياة.. ولن ينفع الملك جنوده، ولن تجديه جيوشه ولن تحميه سيوف حرسه
الخاص..

وحده صوت الموت يبقى هادراً يدمر جدران الاجيال.. وفي كل لحظة من الحياة تنتظم
قافلة الموتى فيها ألف حسناء.. آلاف الرجال.. وربما آلاف الاطفال أيضاً..

آه من الموت.. الموت.. نهاية الحياة..

آه من السكون.. السكون خاتمة الضجيج..

آه من الظلام.. الظلام.. الظلام الدائم..

آه من أجل الأنفاس المضخمة بالعطر والشذى والعبير.. انها تستحيل إلى تراب..
تراب.. تراب..

... ما أشد ضعفك أيها الانسان.. ما أشد غفلتك.. الموت هناك.. في مكان ما يترصد
بك.. لا تحاصر النقاء في أعماقك.. لا تقهره.. لا تثقله بالسلاسل والأغلال.. لا تصغر

خدك لأخيك.. لا تحاول خنق أنفاس اخوتك.. لا تكن ذنباً.. فكّر في النهاية.. انظر إلى المدى البعيد.. البعيد انظر!! إلى هناك.. نعم هناك ألا ترى شيئاً؟!

ألا ترى قوافل الزمن الراحل؟!

كل شيء يتحرك باتجاه الموت.. الأعوام تذهب.. الحياة.. تنضب.. ويذوب الانسان.. يتعب.. يموت في الخريف كالشجر..

وكأوراق الشجر الصفراء تتبعثر أحلامه آماله والأعوام التي ملأها صخباً.. كل شيء في مهبّ العاصفة القادمة.. عاصفة الموت..

كما الزلزال يدمر صرحاً فرعونياً ويحيله إلى أنقاض وشظايا فعلت الكلمات القادمة من عالم الحقيقة المطلقة فعل الزلزال... لقد خمد عواء الذئاب، واختبأ الخنزير المتوحش في الأعماق في لحظة من لحظات الاصغاء البشري والخضوع... فوجيء الجميع وفي مشهد عجيب بالطاغية يكي.. وقد أشار بكفه أن ارفعوا مائدة الخمر!! وفي لهجة شابها تودّد همس المتوكل:

- عليك دين يا أبا الحسن؟

قال الرجل الاسمر:

- نعم.. أربعة آلاف دينار.

والتفت المتوكل إلى وزير البلاط وأمره بصرفها فوراً، كما أمر بمرافقة الامام إلى منزله مكرماً (٢٩٥).

الفصل الرابع والثلاثون

ليس هناك ما هو آلم من إنسان حرّ شريف أبي قدر له أن يحيا في زمن طاغية.. زمن يضجّ من عواء الذئاب.. إن إنساناً محاصراً كهذا سوف تتضاعف محتته إذا غمره شعور بالمسؤولية تجاه أمته وشعبه.. وهداية التائهين في دروب الحياة.. سوف يذوي مثل شمعة تحترق في ليل دامس كثيف الظلمات.. لكنه لو مات فسوف يموت واقفاً كما النخيل.

وتمرّ الأيام حزينة.. كل شيء يبدو كائياً... فاذا غطت الغيوم السماء فإن دموع الحزن

والحنين تنبجس ساخنة فيها حنين إلى أيام مضت وحنين إلى صفاء مفقود..

لقد مرت شهور وجاء خريف سنة ٢٤٧هـ ٨٦١م.. دمياط في مصر تتعرض إلى غارات الروم، ولم يكن الخليفة الذي أصبح دائم السكر ليكرث، أو يفكر بإرسال إمدادات للمدينة المنكوبة.

لقد أصبح الطاغية في الشهور الأخيرة أكثر جنوناً.. حفلات صاخبة وليالي حمراء، ولم يعد التكهن بتصرفات المتوكل، ولكن موظفي القصر الصغار باتوا يدركون أن هناك صراعاً سرياً مستعراً بين جناحين، جناح يقوده عبدالله بن يحيى وزير البلاط ومسؤول ديوان التوقيع.. ويتضامن معه الفتح بن خاقان ويسانده المتوكل شخصياً، وجناح آخر بقيادة القائد التركي «وصيف» الذي نظم جبهة قوية خاصة بعد أن كسب إلى جانبه القائد العسكري «بغا الكبير» وابنه بغا الشرابي، وبعض القادة الاتراك بما فيهم «واجن» و «باغر» ذلك الضابط التركي الطموح وقد أفاد «وصيف» من العلاقات المتوترة بين المتوكل والامير محمد المنتصر والتي راحت تتدهور من سيء إلى أسوأ..

مع اطلالة شعبان كان القصر الجعفري ينذر بوقوع انفجار ما فقد باتت الاجواء مشحونة بالخطر..

وكانت نوبات هستيرية ما انفكت تنتاب الطاغية واصبح من المتعذر ادخال البهجة إلى روحه المعذبة..

وكان السكر الدائم والهوس الجنسي الذي يخونه العجز في بعض الأحيان يدفع بالمتوكل إلى المزيد من الجنون.

وربما خامرت رئيس الوزراء، ووزير البلاط، وآل خاقان فكرة خلع المنتصر من ولاية العهد أو حتى اغتياله لتمهيد الطريق أمام المعتز.. فقد يموت المتوكل أو يتعرض لحادثة ما من يدري؟

وكان نفوذ زوجة المتوكل المتفاقم قد أسهم في تأجيج الصراع السري الرهيب والذي بات دخانه يحرق العيون؛ وكانت تقارير الجواسيس تزيد من استعار الصراع الذي بات ينذر بحريق كبير.

وفي ظروف بالغة القسوة وفي أرض تتحطم على صخورها المعاول ما يزال اثنا عشر ألف عامل ينهمكون في شق النهر.. يعملون من الصباح إلى المساء كالعبيد من أجل اشباع شهوة طاغية مجنون لا يفكر إلا بلذائذه المجنونة.. حتى بات المهندس النصراني دليل بن يعقوب يتمنى في أعماقه سقوط الطاغية قبل أن يكتشف فشل المشروع الذي أرهق ميزانية الدولة دون جدوى!

وفيما كانت رياح تشرين تكتسح خضرة البساتين وتملأ الحدائق بالأوراق الصفراء والبرتقالية.. وصلت القائد «وصيف» معلومات مؤكدة حول إعداد فرامين رسمية تقضي بمصادرة جميع ممتلكات «وصيف» وأراضيه الزراعية في اصفهان وشمال ايران إلى جانب تعليمات بتسجيل هذه الممتلكات باسم رئيس الوزراء الفتح بن خاقان.

ولم يبدد «وصيف» وقته بل راح يخطط لاغتيال الخليفة وبدأ يكشف من لقاءاته مع «بغا» و«باغر» ومع ولي العهد المغضوب عليه..

وقد فعلت الرسائل السرية الخالية من أي توقيع فعلها لدى بغا الشرابي حول وجود نوايا لدى الخليفة بإقصائه عن مركزه في البلاط..

وفي الجانب المقابل كان عبيدالله بن يحيى يخطط هو الآخر للقضاء على نفوذ القادة الأتراك، وكانت مخاوف الخليفة تنعكس داخل القصر في لقاءاته المتوترة بانه المنتصر فاصبح ديدنه توجيه الاهانات إليه ومحاوله الخط من شأنه... وفي الليالي الخريفية، يستحيل القصر إلى بؤر للمؤامرات، والمؤامرات المضادة والدسائس..

وبأت لدى البلاط الحاكم بزعامه الوزير قناعات ثابتة بضرورة اغتيال الأمير المنتصر والقضاء على القادة الاتراك..

وفي المقابل كان وصيف قد نجح في اقناعه اعضاء جبهته بضرورة اغتيال المتوكل وأن يتغدوا به قبل أن يتعشى بهم، وكانت الاجواء تزداد توتراً حتى اطلالة رمضان الكريم الذي لم ير أحد هلاله بسبب كثافة الغيوم.

ولم تتمكن الرياح رياح تشرين من ايقاف استعار حمى التآمر وفي الليالي حينما يشتد الظلام كان الناس يسمعون عواء ذئاب بعيدة... كما امتلأت السجون خاصة سجن

المطبق الرهيب بآلاف المعتقلين من شيعة أهل البيت والعلويين..

وكان العلويون يعيشون حالة معاشية يرثى لها، وقد اضطر الامام الهادي نفسه إلى العمل في الزراعة والاقتراض للانفاق على الفقراء والمعوزين الذين تتنامى اعدادهم بشكل مؤسف.

واصبح التشيع لأهل البيت وزيارة الامام علي عليه السلام والاقتراب من أرض كربلاء بقصد زيارة الامام الحسين جريمة تعاقب عليها الدولة بأشد العقوبات.

واصبحت حياة الطاغية الشخصية موضوعاً مبهماً يحير الشعب، وبات من المستحيل لقاءه، في زمن كثر فيه الظلم والعدوان واغتصاب الحقوق والحريات ووصل القهر حداً جعل بعض زعماء البيت الهاشمي يشعرون بالخطر.

ولذا فعندما أعلن عن البلاط أن الخليفة سيصلي آخر جمعة من رمضان بالناس في المسجد الجامع بسامراء. هبّ الكثيرون للسفر إلى سامراء لتقديم الشكاوى من حيف وظلم الولاة^(٢٩٦)، في زمن لم يبق فيه لسلطة القضاء وجود حقيقي.

كانت حياة الطاغية في رمضان سلسلة من الحفلات الماجنة والكواويس وكان المحيطون به يتفننون في ادخال الرضا إلى قلبه المترع بالجحيم..

وذات ليلة وفيما كان المؤمنون يناجون رب السموات المرصعة بالنجوم وكلمات الحب الالهي تدور في فضاء السحر.. كان الطاغية يتعذب تحت وطأة كابوس مخيف..

«كان يرتقى ظهر موظف أرمني في القصر.. يدور به في أروقة القصر وهو يقهقه عالياً.. فجأه كبر رأس الأرمني بشكل مخيف، وشعر هو بالرعب اصبغ الراس مرعباً ثم نطق بكلمات مخيفة:

«إلى كم تؤذينا...»^(٢٩٧).. وحاول هو الفرار.. ولكن رجلاه كانتا قد تسمرتا.. ثم هبّ من نومه ليجفف عرقه...»

وفي اليوم التالي.. استدعى الطاغية المنجم علي بن يحيى ليقراً له صفحات من المستقبل الغامض.. وتعرّث المنجم في قراءته وثم سكت قال الطاغية:

- مالك توقفت؟!

أجاب المنجم مرتبكاً..

- لا شيء.. لا شيء يا سيدي.

- اقرأ إذن..

استأنف المنجم القراءة متوجساً:

- ويقتل ملكاً في مجلس شراب.

أشار المتوكل بيده.

- يكفي..

ثم أستطرد مغمماً وقد اجتاحتته موجة من الحزن الغامض:

- ليت شعري من هذا الشقي المقتول؟! (٢٩٨)

وفي يوم الجمعة ٢٨ رمضان ٢٤٧هـ كان المتوكل يستعد لإمامة المصلين في سامراء حسب ما أعلن عن البلاط.. ولكن رئيس الوزراء ومعه ابن أخيه وزير البلاط قرراً استثمار هذه الفرصة لتسليط الاضواء على المعتز.. والايحاء للجميع بأن المنتصر قد انتهى سياسياً قال الوزير بلهجة فيها تملق وخبث:

- يا أمير المؤمنين إن الناس قد اجتمعوا وكثروا من أهل بيتك وبعض متظلم وبعض طالب حاجة.. وأمير المؤمنين يشكو ضيق الصدر ووعكة.. فإن رأى أمير المؤمنين أن يأمر ولي عهده بالصلاة ونكون معه جميعاً فليفعل.

استجاب الخليفة فوراً ولكنه تطلع إلى وزيره ساكتاً فقال رئيس الوزراء:

- يا سيدنا أنا نتمنى أن تأمر الأمير المعتز بالصلاة لتشرّفه بذلك فقد اجتمع أهل بيته والناس جميعاً!

هز المتوكل رأسه موافقاً وبدأت الاستعدادات لترتيب موكب مهيب يليق بخليفة المستقبل، وطبقاً لأوامر من البلاط يتعين على أهالي سامراء استقبال الأمير والاحتفاء به.

وكانت تصرفات الوزير ورئيس الوزراء اللذين رافقا الأمير في موكبهِ رسالة معبرة.. تصرخ بأن المنتصر قد انتهى إلى الأبد.

وقد أثارت هذه الخطوة من الطاغية غضب المنتصر الذي سجل احتجاجه بانزوائه في الجناح الخاص به في قصر الجعفري.

ان القادة الاتراك وفي طليعتهم وصيف وحدهم يعرفون مخزون الغضب المكبوت في اعماق الأمير.. ولولا ذلك الصبر المدهش وضبط النفس لقام المنتصر بمحاكمة تودي بحياته.

لقد حكم الطاغية بهذه الخطوة على نفسه بالموت.. لم يعد في وسع المنتصر السكوت بعد الآن.. ان الموت افضل بكثير من حياة الذل والخنوع.. سوف يثار لكرامته المهدورة ولحقوقه المصادرة..

وخلال يوم الجمعة ويوم السبت عمت الشائعات حول تدهور صحة الخليفة.. وقد ساعد على انتشار الشائعات حضور المعتز بدل والده، وتقييل رئيس الوزراء ووزير البلاط الأول يديه وقدميه^(٢٩٩) وما قام به نخبة من الحرس الخاص من مراسم تخص الخلفاء.

بدأت رياح كانون الأول بالهبوب وتبعثر أوراق تشرين الصفراء هنا وهناك.. فيما

بدت الأفاق غارقة في الظلام والمستقبل غامضاً يخفى وراء ستائر المجهول!

الفصل الخامس والثلاثون

من فوق المئذنة الملوية ارتفع آخر أذان في شهر رمضان وكان ذلك يوم السبت ليلة الأحد.. وكان بعض الصائمين فوق اسطح المنازل يتطلعون إلى الافق الغربي بالرغم من وجود بعض نطف الغيوم..

وظهر هلال شوال بابتسامته الجميلة الخجولة.. وهتف صائم مبتهجاً:

- هناك! انظروا هناك!

وبالكاد رؤي الهلال.. هلال عيد الفطر السعيد..

ومن بعيد بدا القصر الجعفري الرابض فوق ربوة في الشمال نسياً جاثماً يترصد بضحية ما!

كان المتوكل متوتر الأعصاب جداً، تشتعل في عينيه آلاف الحرائق المجنونة.. لقد تحدد موعد خطير.. سيشهد يوم الخميس القادم تساقط رؤوس كبيرة.. سوف يسقط رأس «وصيف» و«بغا» ورأس ابنه العنيد أيضاً.. ورؤوس أخرى..

وفيما كان الطاغية يهيم في أروقة القصر وقعت عيناه على الموظف الأرمني فصرخ بالحاجب زرافة:

- اطرّدوا ذلك الارمني من القصر!

فغر زرافه فاه من الدهشة.

- ولكنك يا سيدي كنت تحب خدمته.

وتوقف الطاغية لكأنه يحدث نفسه:

- أجل كنت احبّ خدمته ولكني رأيته في الحلم يتأفف مني!!

كان الرجل ينتظر مكافأة في ليلة العيد ولكنه وجد نفسه في الشارع المؤدي إلى سامراء وحيداً..

مع أول خيوط الشمس كان وزير البلاط يصدر أوامره لتنظيم موكب الخلافة حيث تقرر أن يصلّي الخليفة في المسجد الجامع بسامراء صلاة العيد... كان المتوكل قد بدا شاحب اللون^(٣٠٠) وكان من الواضح أنه قد امضى ليلة عصيبة لم يغمض له فيها جفن.. ولذا بدا أكثر صفرة باستثناء عينيه اللتين كانتا ترسلان بريقاً مخيفاً..

كانت رغبة الخليفة المجهّد البقاء في القصر.. ولكن الوزير قال محذراً من تزايد الشائعات:

- يا أمير المؤمنين قد كان الناس تطلّعون إلى رؤية أمير المؤمنين في يوم الجمعة فاجتمعوا واحتشدوا فلم يركب أمير المؤمنين.. ولا نأمن إن هو لم يركب أن يرجف الناس بعلته ويتكلّموا في أمره.. فإن رأى أمير المؤمنين أن يسرّ الأصدقاء ويكبت الأعداء بركوبه فعل..

اشتعل حقهه وتأجج في أعماقه الخاوية.. وصادر أمره بالتأهب وأن يُنظّم استقبال شعبي يمتد من القصر الجعفري إلى سامراء..

ولذا مع شروق الشمس كانت الجموع التي حشدت بالقوة تترقب خروج الخليفة من القصر.

وكانت قوات من الحرس والجيش تنتشر على جانبي الطريق العريضة وهي في حالة استعداد تام.

وخرج المتوكل بصحبة رئيس الوزراء على فرسيهما وخلفهما بعض الوزراء والحجاب وكبار موظفي القصر.

والقى الطاغية نظرة فيها كبرياء على الجموع، ولمح ابن الرضا على بغلته وقد بدا مهيباً غارقاً في طمأنينة وسكينة.. لم تكن تصدر عنه حركة واحدة تنم عن اكتراثه بالضجة التي ارتفعت احتفاءً برؤية الخليفة... وغازله موقف ابن الرضا وداهمه شعور رهيب بالحقارة..

ان هذا العلوي الأبي ينافسه في الجلال الذي يجب أن يكون له وحده.. التفت إلى ابن خاقان وقال بلهجة آمرة:

- قل لابن الرضا أن يترجل ويمشي قدّامي.

قال الفتح متوجساً:

- يا سيدي إن في ذلك شناعة عليك وسوء قالة!!

- يجب أن يترجل.. ان ذلك يحطّ من شأنه فيستهين به الناس.

قال ابن خاقان وهو يخشى ردود فعل خطيرة:

- إذن أصدر أمرك لجميع القادة والأشراف وذوي النفوذ بالترجل.. حتى لا يظن إنه هو المقصود وحده!

هز الطاغية رأسه موافقاً ولكنه قال:

- ليترجل الجميع باستثناء شخص واحد فقط:

- من هو؟

- أنت.

وترجل الجميع ليمشوا أمام الخليفة الذي راح ينظر إلى شخصيات الدولة تمشي قدّامه وشعر بالزهو.. إنه السيد الوحيد في هذه الأرض.. منظر الجنود المدججين بالسلاح المصطفين على جانبي الشارع الطويل الذي يمتد إلى أربعة أميال عربية^(٣٠١) يسكر الطاغية الذي يعاني عشرات العقد النفسية..

كان الامام يعاني من وعكة صحية ولم يكن بمقدوره أن يقطع آلاف الخطى مشياً على الاقدام في مثل ذلك الزحام الشديد.

شعر الهاشميون من بني العباس بأن المتوكل قد وجه اليهم طعنة نجلاء.. أنهم يعاملون كالبيد.. وتجراً بعضهم على ذكر الطاغية وتصرفاته الحمقاء..

كان الامام يتصبّب عرقاً وقد اجهده المشي بسبب شدة الزحام والغبار، فأتكا على أحد مواليه الذين كانوا يرافقونه.

وضحك أحدهم بمرارة قائلاً:

- لقد تذكرت شيئاً رأيته في عيد الاضحى.. رأيت قطعاً من الأغنام يساق للأضاحي.
ردّ آخر:

- الحمد لله اننا في عيد الفطر وليس في عيد الاضحى!!

وسيطر على المشهد هتافات الغوغاء بحياة خليفة المسلمين السيد المطاع والمملك الكبير.

الجماهير مفتونة بمنظر الطاغية يشق طريقه فوق فرس وسط آلاف الجنود الذين اصطفوا على امتداد أربعة أميال.. فيما كان كبار القادة وشخصيات البلاط تمشي أمامه.

ربّما غمغم الامام وهو يتأمل منظر هؤلاء المفتونين بالمظاهر البرّاقه والمجد الزائف قائلاً:
- «الغوغاء قتلة الانبياء»^(٣٠٢).

أن هؤلاء الناس الذين يزدادون خنوعاً وذلاً هم الذين يصنعون بذلهم وخنوعهم الطاغية الذي ينظر اليهم بازدراء، ويستخدمهم دائماً للقضاء على الأحرار.

كان الامام يقطع الطريق مجهداً حزناً للمصير البائس الذي وصلت إليه الأمة.. تتمم بأسى:

- لقد قطع رحمتي قطع الله أجله (٣٠٣) ..

أن هذا الطاغية هو في الحقيقة ابن عمه.. ولكنه انسان دموي استحال إلى ذئب بشري مجنون... يتصور أن الجميع يتأمر عليه ولذا يجب قمعهم والقضاء عليهم.. يجب أن يحولهم إلى عبيد أو يدسهم في التراب!

ان هذا الطاغية يربعه وجود إنسان حر حتى لو يقيم بأية حركة مسلحة ضده.. إن وجود إنسان شريف هو في نظر الطاغية عدوان على سيادته.

بلغ بالامام الاعياء... وكان ينقل خطاه على هون.. وكان الهاشميون الذين يرافقونه في المشي قد خالجهم شعور بالمرارة من ابن عمهم الذي جعل مقاليد الحكم بأيدي الغرباء بل وبأيدي النساء والمختشين الساقطين!!

قال رجل هاشمي تعدى الخمسين من السنين مبهور الأنفاس مخاطباً السيد العلوي المبارك:

- يا سيدنا ما في هذا العالم أحد يستجاب دعاؤه فينا فيكفينا الله؟!

قال أبو الحسن وقد أضاء وجوده تاريخ النبوات:

- في هذا العالم من قلامة ظفره أكرم على الله من ناقة ثمود... لما عقرت وضجّ الفصيل فقال الله: «تمتعوا في داركم ثلاثة أيام ذلك وعد غير مكذوب» (٣٠٤).

وصلت الحشود المتعبة سامراء في حالة يرثى لها وتبددت مع الغبار فرحة العيد.. وظهرت الشمس باهتة وراء السحب الرمادية التي ازدحمت في الأفق الشرقي.

كانت أبواب المسجد الجامع مشرعة وأذان صلاة العيد ينساب من فوق المئذنة الملوية.. ودلف الامام مع الجموع المتدفقة عبر الباب إلى المسجد ووقعت عينا زرافة الحاجب على الامام منهكاً يتصبب عرقاً بالرغم من برودة كانون فاتجه إليه وقاده إلى دهليز هناك، وأخذ منديلاً وراح يجفف عرق الامام.. وحاول أن يخفف عنه حالة الحزن التي تموج في الوجه الأسمر فقال:

- ابن عمك لم يقصدك بهذا دون غيرك.

نظر إليه الامام نظرة أودعها بصيرته النافذة ومعرفته بحقيقة ما يجري حتى داخل أسوار القصر الكبير.

- إليك عني!!

وتلا بخشوع آية إنذار قبل هبوب العاصفة: (تمتعوا في داركم ثلاثة أيام ذلك وعد غير مكذوب).

ونفض الامام مغادراً المكان.. فيما ظلّ الحاجب ساهماً للحظات يحاول فك رموز الكلمات الغامضة..

وقبيل الظهر عندما عاد زرافة إلى منزله؛ دار حوار بينه وبين معلّم لديه ميل شيعية وكان زرافة يحب في بعض المناسبات ممازحته قال زرافة:

- أتدري من رأيت في المسجد صباحاً؟

- !!؟

- رأيت إمامك.. لقد اجهده المشي فساعدته وحاولت أن أخفف عنه ما حصل.. فقال لي ما لم أفهم منه شيئاً!

- ما الذي قال؟

- تلا هذه الآية: (تمتعوا في داركم ثلاثة أيام ذلك وعد غير مكذوب).

مثلما يشتعل البرق في السماء المثقلة بالغيوم.. توهج مشهد من مشاهد التاريخ المندثر.. انه «صالح النبي» يخاطب قبيلة ثمود الوثنية.. يوم هاجم الشقي «قيدار» ناقة الله فذبها وراح يلثم وراء فصيلها المذعور فوق صخور الجبل.. فلم يرحم نظراته البريئة فذبحه من الوريد إلى الوريد..

- آه ان الامام ينذر بوقوع كارثة ما.. ربما يموت المتوكل أو يقتل..

صرخ زرافة مذعوراً:

- ماذا؟!

- أنني أنصحك بالاحتراز.. حاول أن تخزن أشياءك... الأيام القادمة حبلى بمحدث رهيب..
ان مجرد الحديث عن شؤون خطيرة في زمن يخنق الأنفاس يثير الهلع، ولذا صرخ
زرافة بالرغم من مركزه في البلاط:
- اخرج من البيت حالاً.. لا أريد رؤية وجهك مرة أخرى.

فوجيء المعلم بموقف زرافة، وأسف لما قال، ولكنه غادر البيت بهدوء وحزن، وكان
هاجس الذي سيحدث في الايام القادمة ما يزال يصنع التوتر في أعماقه.

الفصل السادس والثلاثون

كان «زرافة الحاجب» في طريقه إلى القصر الجعفري مساء يوم العيد.. ما يزال يتتبعه
هاجس الحادثة الرهيبة التي تحدث عنها المعلم..

في البوابة الجنوبية أدى الحرس التحية للقائد الذي ما يزال يسيطر عليه الوجوم..

وتبادل كلمات مقتضبة مع نائبه زرقان حول سير العمل قال زرقان:

- كل شيء على ما يرام.. ولكن الخليفة لن يعقد مجلسه هذا المساء.

- لماذا.. هل هناك سبب؟!

- لا شيء.. ربما ان حالته الصحية لا تساعد!

- ربما!

ومضى زرافة مع نائبه في الرواق الذي يؤدي إلى البلاط.

قال زرقان:

- هذا يوم عيد.. ولكنني لا أشعر بالفرحة لماذا؟

- ربما بسبب برودة الجو.. الخريف فصل حزين.. نحن في منتصف كانون.

قال زرقان:

- أراك واجماً.. هذا اليوم.. أنت معروف بمزاحك.

- لا شيء.. اشعر بالتعب قليلاً.. دعني استريح..

وتركه زرقان وحيداً ومضى.

استعاد زرافة كلمات المعلم وهو ينصحه بالاحتراز... قال في نفسه: «ما يضرني أن أحزم أمري.. الحذر في هذه الايام مطلوب على كل حال.. ربّما يحدث شيء من يدري^(٣٠٥)؟

كان أول شيء فعله زرافة أن أخذ أمواله ليوذعها عند بعض معارفه، ويتصرف بحكمة وحذر.

الله وحده الذي يراقب الأعماق.. ولا أحد يدري ما الذي جرى ويجري وراء الأبواب المغلقة.. اليوم هو ٣ شوال، وقد أصبح المتوكل نشطاً على غير عادته تملأ البهجة نفسه حتى فوجيء طبيبه الطيفوري بحالته الجديدة.. لقد فارقت حالة الكآبة التي لازمته خلال الأسابيع الأخيرة. قال المتوكل متسائلاً:

- كأني أجد مسّ الدم^(٣٠٦).

قال الطيفوري:

- يا أمير المؤمنين عزم الله لك على الخير.. افعل!

وأيد ابن الأبرش طبيب المتوكل الآخر ذلك.

وأجريت على الفور عملية فصاد للدم..

وعلى مائدة الطعام عندما انتصف النهار انتهى المتوكل خروفاً فجاءوا إليه بخروف سمين محشى.. وراح يتخطف اللحم المشوي بيده متلذذاً.. لم يكن هناك على المائدة الحافلة بكل ما لذ وطاب سوى رئيس الوزراء الفتح بن خاقان.. وعلى مقربة منها مائدة أخرى لبعض المغنين والمهرجين، وفيهم المغني ابن الحفصي وعثث وزنام.. ثم التحق بهم بنان الذي جاء برفقة الأمير المنتصر الذي ظل واقفاً ينظر إلى والده.. يراقبه بصمت وغضب مكبوت.. يستطيع أن يراه المرء متوهجاً في عينيه.

التفت المتوكل إلى ابن الحفصي ودعاه مع عثث إلى مائدته قائلاً:

- كل أنت وعثث هنا..

وكان المتوكل الذي شبع تماماً مبتهجاً جداً.. ولا أحد يعرف مصدر سعادته.. وعندما رأى مطربه لا يأكل قال:

- لماذا توقفت عن الأكل؟!

- لقد نفذ ما بيننا من الطعام

ورمى المتوكل اليهما لحماً ينضح سماً، وقام المطرب بحركة مضحكة وهو يتخطف اللحم، فضحك الطاغية سعيداً.

- كلوا بحياتي!

وحضرت بعد انتهاء تناول الطعام أربع فتيات جميلات يحملن على طبق بلوري هدية زوجة الخليفة.. كانت الهدية عبارة عن مطرف خز اخضر يهر العقول جماله^(٣٠٧)!!

شق المتوكل المطرف نصفين ونظر إلى ابنه المنتصر واقفاً فصاح:

- ردّوه.. لا أظن إني سألبسه.. ولا أريد أن يلبسه أحد بعدي..

وتقدم من ابنه الذي ظل واقفاً:

- لا بد وأنك تنتظر أن تصبح خليفة؟!

....

وتفجر حقد رهيب في أعماق الطاغية واجتمع في يده فهوى بها على وجه ابنه الذي تلقى الضربة بصبر عجيب!!

صرخ المتوكل بعصية:

- لقد سميتك المنتصر.. فسمالك الناس لحمك المنتصر.. ثم صرت الآن المستعجل..

قال المنتصر وهو يعض على نواجذه:

- يا أمير المؤمنين! لو أمرت بضرب عنقي كان أسهل علي مما تفعله بي!

- من قال أنني لا أقتلك.. سوف أقتلك..

ونهض الفتح لإقناع الخليفة بضبط نفسه قبل أن تنكشف الخطة الجهنمية التي سوف تنفذ غداً أو بعد غد..

وقبل رئيس الوزراء يد الطاغية إرضاءً لعقده ولكن المتوكل صاح:

- اشهدوا جميعاً اني قد خلعت المستعجل.

هتف المنتصر:

- يا أمير المؤمنين!!

وصعد المتوكل الموقف المتوتر عندما طلب من ابن خاقان قائلاً:

- برئت من الله ومن قرابتي من رسول الله إن لم تلطمه!

تقدم الفتح من المنتصر وقد برقت عيناه بالندالة وصفعه بوحشية على وجهه ثم على فقه وندت صيحات بعض الجواري اللاتي كن يراقبن ما حصل من وراء الستائر الشفافة.

كان ما حدث في الواقع قد دمر إلى الأبد هواجس التردد التي كانت تنتاب المنتصر في الإقدام على قتل أبيه.. لقد استحال هذا الأب إلى ذئب لا يتورع حتى عن أكل بني عمه وأولاده.

لم يسمح للمنتصر من مغادرة القصر حتى بعد أن بدأت الحفلة المسائية، وبالرغم مما حدث فإن المتوكل بدا مسروراً يستجيب لأبسط حركات اللهو التي يقوم بها مهرجيه، وكان يعتمد الاستغراق في الطرب.

واستدعي جميع الندماء الذين كانوا في غرفهم، وأفتقد أبو نوح^(٣٠٨) ولم يعثر له على أثر.. وكان هذا الغلام قد عثر على رسالة بدون توقيع كتبها امرأة تركية تحذر من محاولة لاغتيال الخليفة.. فقام بتسليمها إلى عبيد الله بن يحيى الذي اجتمع فوراً مع عمه رئيس الوزراء؛ ولكنهما اتفقا على اخفاء الأمر عن المتوكل لما رأوه من سروره وانشراحه.. ثم من يجسر على قتل المتوكل واسمه وحده يبعث الرعب؟!!

وكيف يمكن وجود أسرار خطيرة في وجود شبكة معقدة من الجواسيس... جواسيس لا يعرفهم أحد... باستطاعتهم التسلل حتى إلى غرف النوم؟! ولذا اكفى رئيس الوزراء بابتسامة ساخرة هائلاً من قلق ابن أخيه وزير البلاط والعقل المدبر لما سيحدث يوم الخميس القادم!

الفصل السابع والثلاثون

استحال البلاط في ساعات المساء الأولى إلى مأخورة^(٣٠٩) وكانت رائحة الخمر المعتقة تزكم الأنوف.

واستدعي المنتصر لحضور الاحتفال رغماً عنه، ووضعت أمامه مائدة الخمر ولكنه امتنع عن الشرب.. فأشار الخليفة إلى بعض جلاوزته بأن يسقوه الخمر بالقوة وفرغت كؤوس عديدة في جوفه.. وكان والده الثمل يشرب ويقهقه بهستيرية مخيفة إن أية إشارة تصدر الآن تكفي لتمزيق أي شخص إرباً إرباً..

حان موعد العشاء ووضعت المائدة بين يدي المتوكل.. الذي راح يلقم طعامه وهو سكران..

ونهض المنتصر ليغادر المكان ولكنه ألقى نظرة ذات معنى على «بغا الشرابي» الذي كان يقف قريباً من الستائر.. وكانت النظرة التي غفل عنها الجميع باستثناء «بغا الصغير» تكاد تصرخ: «الليلة».. الليلة يسقط الوثن البشري.

خارج البلاط التقى المنتصر الحاجب زرافة فأمسك بيده قائلاً:

- تعال معي!

قال زرافة متردداً:

- يا سيدي ان أمير المؤمنين لم يبق بعد!!

قال المنتصر:

- لقد عصفت برأسه كؤوس الخمر.. وسيخرج بغا والندماء..

وسكت لحظات وهما يمشيان في رواق طويل في القصر الكبير ثم قال بود:
- أحبيت أن تجعل أمر ولدك الي.. إن القائد «أوتامش» سألني أن أزوج ابنه من ابنتك
وابنك من ابنته.. ما رأيك؟
أجاب زرافة متسلماً:
- نحن عبيدك يا سيدي.. تأمرنا فنطيع!!
وراحا يمشيان إلى أن انعطفا في إحدى الغرف..
كان المتوكل ثملاً تماماً عندما جاء زرافة وأشار من بعيد إلى «بنان» وإلى «ابن
الحفصي» قال لبنان أن المنتصر يدعوك وقال لابن الحفصي:
- ان أمير المؤمنين سكران.. وقد رأيت القائد «تمرت» فسألني عنك وطلب مني أن
أدعوك إلى حجرته.. سوف أمضي إلى المنتصر أولاً ثم التحق بك في حجرة
«تمرت» فيما بعد.
وفي حجرة المنتصر وبحضور «أوتامش» وزرافة وبنان قال المنتصر:
- قد أملك ابن زرافة من ابنة أوتامش، وابن أوتامش من ابنة زرافة قال بنان:
- والشار يا سيدي.. أين الشار فهو يحسن الإملاك؟!
قال المنتصر:
- غداً إن شاء الله.. نحن في الهزيع الأخير من الليل!!
وأمر «أوتامش» بعض الخدم باحضار مائدة الطعام. وفي الأثناء وفيما كان زرافة
وأوتامش وبنان يتناولون الطعام، كانت أبواب القصر تغلق جميعاً.. وحركة غير طبيعية
تسود الاجواء.. كانت البوابة الكبرى المطلة على نهر دجلة قد ظلت مواربة فقط دون
اقفال، وثلاثة أبواب داخلية ظلت مفتوحة..
وفي جنح الظلام تسلك جنود أتراك ملثمون يتقدمهم الضابط التركي «باغر» ويليهِ
«بغلون» وثلاثة جنود آخرون..

وفي البلاط كان المتوكل قد ثمل تماماً.. نهض بغا الشرابي، وأمر الندماء بالانصراف إلى غرفهم..

قال الفتح متوجساً:

- ليس هذا وقت انصرافهم.. ان أمير المؤمنين ما يزال جالساً!!

قال بغا بلهجة واثقة:

- ان أمير المؤمنين أمرني إذا جاوز في الشرب سبعة أرتال أن لا أترك أحداً في المجلس..
وقد شرب أربعة عشر رطلاً!!

أشار الفتح إلى الندماء بالجلوس، ولكن بغا قال بفضافة:

- إن حرم أمير المؤمنين خلف الستارة، وقد سكر... فقوموا وأخرجوا!

ونهض الجميع لمغادرة المكان.. ولم يبق سوى الفتح وعثعت وأربعة من الخدم..

شفيع، فرج الصغير، مؤنس، ومارد، وجاء الطباخ بمائدة الطعام.. وراح المتوكل يأكل وهو سكران ويقول لمارد:

- كل معي!

وراح يشرب..

وكان أحد أبناء المتوكل^(٣١) قد نهض إلى المرحاض، فصادف المسلحين قادمين وقد
شهرروا سيوفهم في الظلام فصاح:

- ما هذا يا سفلة.

قال الطاغية وقد سمع الضجة:

- يا بغا! ما هذا؟!

قال بغا مطمئناً آياه:

- هؤلاء رجال النوبة للحراسة الليلية.

سمع باغر الحوار.. وانتابه شعور بأن الخطة قد فشلت ولذا لم يدخل البلاط واتجه مع مجموعته للقاء القائد وصيف قال باغر:

- يجب أن تكون معنا.. ربما نفشل في مهمتنا.

قال بحزم:

- سأرسل معكم أولادي..

- وفيهم صالح؟!

- نعم.. صالح وأخوته.

وفي الأثناء حضر «بغا» وعيناه تقدحان شرراً:

- يا سفلة أنتم مقتولون لا محال فموتوا كراماً.

وقال لوصيف:

- أين «واجن» ومجموعته؟!

- سيحضرون حالاً.. ستدخلون في الوقت المناسب.. لا تنسوا أن الوزير عبيدالله ما يزال في حجرته.. فحراسة الأبواب ومراقبة الوزير جزء من الخطة.

ارتدت المجموعة بقيادة باغر والتي أصبح عدد أفرادها ثمانية مسلحين إلى مجلس الخليفة..

كانت الضربة الأولى لبغلو حيث أهوى على كتف الخليفة فقطع إذنه واستل باغر سيفه^(٣١١) فسد له ضربة قاضية.. صاح الفتح:

- أيها الكلاب.

صرخ بغا وهو يبعجه بالسيف:

- ايها الجلفي.. اسكت..

والقى الفتح نفسه فوق الطاغية وراحت السيوف تقطعها إرباً إرباً.. واستحال الطاغية مع صاحبه جثتين هامدتين وسط بركة من الدماء.. وكان نصيب عثعث ضربة في رأسه..

وهرب الخدم أما الخادم الصغير فقد اختبأ تحت الستائر.

كما فرّ ابن المتوكل تاركاً أباه تتخطفه السيوف كنسور مجنونة..

استحال القصر إلى جحيم تستعر بالانتقام والقسوة وشهوة البطش من أجل السيطرة.

وانبعثت ضجة وصراخ، فخرج المنتصر وزرافة وتمرت لاستطلاع ما يجري ومن أقصى الرواق الطويل ظهر بغا الشرابي هتف المنتصر:

- ما هذه الضجة؟

أجاب «الشرابي» وهو يبشر بنجاح المؤامرة:

- خير.. يا أمير المؤمنين.

- وملك ما تقول؟!

قال «بغا» وهو يتظاهر بالحزن:

- أعظم الله أجرك في سيدنا أمير المؤمنين.. كان عبدالله فأجابه..

لم يعد هناك من مبرر لتستر.. اصدر المنتصر أوامر بغلاق أبواب القصر وغلق أبواب المجلس..

وشهرت السيوف بوجه زرافة:

- بايع أمير المؤمنين المنتصر!

فانحنى أجلاً للخليفة الجديد:

- السلام عليك يا أمير المؤمنين!

واستعاد زرافة النبوة العجيبة التي كشف عنها المعلم من كلمات ابن الرضا صباح

العيد!!

السماء ما تزال تنث المطر بصمت.. واشتعلت في الأفق البعيد بروق.. وكانت ترجيعه

الرعود تصل مكبوتة.

أحد الخدم الذين فرّوا من المجلس يتجه إلى حجرة عبيدالله الذي بدأ يشاء بعد ساعات طويلة قضاها في قراءة رسائل وتقارير الجواسيس!

هتف الخادم مبهوراً:

- يا سيدي ما يجلسك؟!

ذعر عبيدالله:

- ماذا حصل؟

- السيوف تملأ القصر.

طلب الوزير من مساعده أن يذهب على عجل لاستطلاع الحادث... وسرعان ما عاد ليقول مرعوباً:

- قتل المتوكل مع الفتحة!!

ونفض على عجل ومعه أحد مساعديه، فانطلق الثلاثة حذرين للخروج من القصر..

اتجهوا صوب البوابة الجنوبية ولكنها كانت مقفلة.. فاتجهوا نحو بوابة دجلة واستطاعوا كسر ثلاثة أقفال وانحدروا إلى المرسى حيث يوجد زورق فاستقلوه تحت المطر باتجاه قصر «بلكوارة» شمال سامراء..

الفصل الثامن والثلاثون

كان المنتصر ما يزال يرسل صيحاته كربان سفينة تشق عباب الأمواج العاتية بعد نجاح أخطر محاولة انقلابية في ذلك العصر... فأمامه مشوار طويل وعسير للسيطرة على الموقف..

وكانت الخطوات القادمة لا تقل خطورة عن تنفيذ عملية الاغتيال.. لقد أفلت وزير البلاط وفي هذا يكمن خطر كبير.. ولذا كانت فكرة المنتصر توجيه دعوات سرية وفورية على لسان المتوكل إلى بعض الشخصيات والقادة..

كُلف «وصيف» بإلقاء القبض على كل من المعتز والمؤيد قبل أن يجتمع بأحدهما الوزير أو يطلعهما أحد على الحادث.. وقد ساعد على ذلك وجود خطة سرية تقضي

باغتيال المنتصر والقضاء على بعض مسانديه من القادة الأتراك.. ولذا كان كثير من كبار موظفي القصر على علم تام بعملية إغتيال المنتصر ومن بينهم سعيد الصغير الذي كلف بتصفية الامام لدى أول اشارة..

كان سعيد الصغير في منزله يفكر بمهمته العسيرة.. بعد أن كلف باعتقال الامام الهادي^(٣١٢).. واغتياله ربما في نفس الليلة التي يتقرر فيها اغتيال المنتصر.. خطرت في باله فكرة أن يذهب إلى القبو.. لقد سمع الكثير عن هذا السيد العلوي!

عندما ولج السرداب.. كان الإمام يصلي «وراح ينظر إلى الرجل الذي يرتدي حلة بيضاء هي نفسها التي رآه فيها يوم العيد.. تفوح منه رائحة عطر ربيعي.

وراح سعيد يصغي إلى كلمات الانسان المقهور تجسد محنته عذابات أمة ترزح تحت نير الطغيان:

«اللهم: إني وهذا الطاغية عبدان من عبيدك، نواصينا بيدك..

تعلم مستقرنا ومستودعنا، وتعلم منقلبنا ومثوانا.. سرنا وعلايتنا، وتطلع على نيّاتنا، وتحيط بضمائرنا..

علمك بما نبديه كعلمك بما نخفيه، ومعرفتك بما نبطنه كمعرفتكم بما نظهره، ولا ينطوى عنك شيء من أمورنا، ولا يستتر دونك حال من أحوالنا، ولا لنا منك معقل يحصننا، ولا حرز يحرزنا، ولا هارب يفوتك منا، ولا يمتنع الظالم منك بسلطانه، ولا يجاهدك عنه جنوده، ولا يغالبك مغالب بمنعته، ولا يعازك متعزّز بكثرة..

أنت مدركه أينما سلك، وقادر عليه، أين لجأ..

فعاذ المظلوم بابابك، وتوكل المقهور منّا عليك، ورجوعه إليك، ويستغيث بك إذا خذله المغيـث، ويستصرخك إذا قعد عنه النصير، ويلوذ بك إذا أتته الأفية، ويطرق بابك إذا غلقت دونه الأبواب يشكوه إليك، وتعرف ما يصلحه قبل أن يدعوك له، فلك الحمد سميعاً بصيراً لطيفاً قديراً...».

«اللهم: انه قد كان في سابق علمك ومحكم قضائك، وجاري قدرك وماضي حكمك

ونافذ مشيئتكَ في خلقك أجمعين سعيدهم وشقيهم وبرهم وفاجرهم إن جعلت لفلان عليّ قدرة فظلمني بها وبغى عليّ لمكانها، وتعزز عليّ بسلطانه الذي خولته إياه، وتجبر عليّ بعلو حاله، الذي جعلته له، وغره املاؤك له، وأطغاه حلمك عنه فقصدني بمكروه عجزت عن الصبر عليه، وتعمدني بشر ضعفت عن احتماله ولم أقدر على الانتصار منه لضعفي والانتصاف منه لذلي، فوكّلته إليك، وتوكّلت في أمره عليك، وتوعدته بعقوبتك، وحذرتة سطوتك، وخوفته نقمته، فظنّ أن حلمك عنه من ضعف وحسب ان امهالك له من عجز ولم تنهه واحدة عن أخرى، ولا انزجر عن ثانية بأولى، ولكنّه تهادى في غيه وتتابع في ظلمه ولجّ في عدوانه، واستشرى في طغيانه جرأة عليك يا سيدي، وتعرضاً لسخطك الذي لا تردّه عن الظالمين، وقلة اكتراث بياسك الذي لا تحبسه عن الباغين..

فها أنا يا سيدي مستضعف في يديه مستضام تحت سلطانه، مستذلّ بعنانه، مغلوب.. مبغيّ عليّ، مغضوب وجل، خائف، مروّع، مقهور...

قد قلّ صبري، وضائق حيلتي وانغلقت عليّ المذاهب إلّا إليك، وانسدت عليّ الجهات إلّا جهتك، والتسبت عليّ المذاهب إلّا إليك، وانسدت عليّ الجهات إلّا جهتك، والتسبت عليّ أموري في دفع مكروهه عني، واثبتت عليّ الآراء في إزالة ظلمه، وخذلني من استنصرته من عبادك، وأسلمني من تعلّقت به من خلقك.. واستشرت نصيحتي فأشارت اليّ بالرغبة إليك، واسترشدت دليلي فلم يدلّني إلّا عليك..

فرجعت إليك يا مولاي صاغراً راغماً مسكيناً عالماً أنّه لا فرج لي إلّا عندك، ولا خلاص لي إلّا بك..

أنجز وعدك في نصرتي، وإجابة دعائي فإنّك قلت: وقولك الحق: الذي لا يرد ولا يبدل ﴿وَمَنْ عَاقَبَ بِمِثْلِ مَا عُوقِبَ بِهِ ثُمَّ بُغِيَ عَلَيْهِ لِيَنْصُرْهُ اللَّهُ﴾^(٣١٣) وقلت: جلّ جلالك وتقدّست أسماؤك ﴿ادْعُونِي أَسْتَجِبْ لَكُمْ﴾^(٣١٤) وأنا فاعل ما أمرتني به لا منّا عليك، وكيف أمنّ به وأنت عليه دلّلتني، فصلّ على محمد وآل محمد.. واستجب لي كما وعدتني يا من لا يخلف الميعاد.

وإنّي لأعلم يا سيدي إنّ لك يوماً تنتقم فيه من الظالم للمظلوم، وأتيقن أن لك وقتاً تأخذ فيه من الغاصب للمغضوب لأنّك لا يسبقك معاند، ولا يخرج عن قبضتك منابذ ولا تخاف

فوت فائت، ولكن جزعي وهلعي لا يبلغان بي الصبر على أناتك، وانتظار حلمك..
فقدرك عليّ يا سيدي ومولاي فوق كل قدرة، وسلطانك غالب على كل سلطان،
ومعاد كل أحد إليك وإن أمهلت، ورجوع كل ظالم إليك وإن أنظرته، وقد ضرني حلمك
من فلان وطول أناتك له، وإمهالك إياه، وكاد القنوط يستولي عليّ لولا الثقة بك، واليقين
بوعدك فإن كان في قضائك النافذ، وقدرتك الماضية ان ينيب أو يتوب عن ظلمي أو يكفّ
مكروهه عني، وينتقل عن عظيم ما ركب مني... اللهم فصل على محمد وآل محمد وأوقع
ذلك في قلبه الساعة، الساعة قبل إزالة نعمتك التي أنعمت بها عليّ وتكديره معروفك الذي
صنعتة عندي..

وإن كان في علمك به غير ذلك من مقامه على ظلمي فأسألك ياناصر المظلوم المبغي
عليه إجابة دعوتي.. فصل على محمد وآل محمد، وخذه من مأمنه أخذ عزيز مقتدر وافجأه
في غفلة مفاجأة ملك منتصر، واسلبه نعمته وسلطانه، وافضض عنه جموعه وأعوانه..
ومزق ملكه كل ممزق، وفرق أنصاره كل مفرق، وأعره من نعمتك التي لا يقابلها
بالشكر، وانزع عنه سربال عزك الذي لم يجزه بالاحسان..

واقصمه يا قاصم الجبابرة، وأهلكه يا مهلك القرون الخالية، وأبره يا مبيرة الأمم
الظالمة، واخذله يا خاذل الفئات الباغية، وأبر عمره، ابتر ملكه، وعف أثره، واقطع خبره،
واطف ناره، واظلم نهاره، وكور شمسّه وازهق نفسه، واشم شدته وجب سنامه، وارغم
انفه، وعجل حتفه، ولا تدع له جنبه الا هتكته، ولا دعامة الا فصمتها، ولا كلمة مجتمعة إلا
فرقتها، ولا قائمة علو إلا وضعتها، ولا ركناً إلا وهنته ولا سبباً الا قطعته، وأرنا أنصاره
وجنده وأحباءه وأرحامه أبايد بعد الإلفة، وشتّى بعد اجتماع الكلمة، ومقنعي الرؤوس
بعد الظهور على الأمة..

وأشف بزوال أمره القلوب المنقلبة الوجلة، والأفئدة اللهفة، والأمة المتحيرة، والبرية
الضائعة، وأزل بيواره الحدود المعطلة، والأحكام المهملة، والسنن الدائرة، والمعالن المغيرة،
والآيات المحرّفة، والمدارس المهجورة، والمحاريب المحفوة، والمساجد المهذومة، وأرح به
الأقدام المغبة، واشيع به الخماص الساغبة، واردد به اللهوات اللاغبة، والأكباد الظائمة،

واطرقة بليلة لا اخت لها، وساعة لا شفاء منها، ونكبة لا انتعاش معها، وبعثرة لا إقالة منها، وأبح حريمه، ونقص نعيمه..

وأره بطشتك الكبرى، ونقمتك المثلى، وقدرتك التي هي فوق كل قدرة، وسلطانك الذي هو أعز من سلطانه، واغلبه لي بقوتك القوية، ومحالك الشديد، وامنعني بمنعتك التي كل خلق فيها ذليل، وابتل به فقر لا تجبره، وبسوء لا تستره، وكله إلى نفسه فيما يريد إنك فعال لما تريد، وابرأه من حولك وقوتك، واحوجه إلى حوله وقوته، وأدل مكره بمكره، وأدفع مشيئته بمشيئتك، وأسقم جسده، وأيتم ولده، وانقص أجله، وخيب أمله، وأزل دولته، وأطل عولته، واجعل شغله في بدنه، ولا تفكه من حزنه، وصير كيده في ضلال وأمره إلى زوال، ونعمته إلى انتقال، وجده في سفال، وسلطانه في اضمحلال وعاقبته إلى شر مآل، وأتمه بغيبه إذا أمته، وأبقه لحزنه ان أبقيته، وقني شره وهمزه ولمزه وسطوته وعداوته، والمحمة تدمر بها عليه فانك أشد بأساً وأشد تنكيلاً، والحمد لله رب العالمين» (٣١٥).

واستجابت السماء.. ويمكرون ويمكر الله والله خير الماكرين.. وبدأت الاقدار تنسج خيوط حادثة مدوية سوف تحدث في الساعات القادمة... انها مشيئة الله.

سوف يسقط الوثن البشري ويتهشم إلى الأبد...

الفصل التاسع والثلاثون

السرداب الموحش الذي لم يبدد ظلمته القنديل، يستحيل إلى عش مفعم بالسكينة.. ان لروح الانسان الطاهر قدرة الاشعاع على ما حولها من الاشياء والنفوس.. هكذا وجد سعيد نفسه في حضرة الرجل المبارك.

التفت الامام إليه بعد أن شعر بوجوده قال له دون مقدمة:

- لا يكف عني جعفر حتى يقطع إرباً إرباً (٣١٦).

فوجيء سعيد بكلمات الامام.. لكانها تأتيه من عالم الغيب.. كسهام مخيفة..

أنه يذكر الخليفة باسمه.. ويتنبأ له بمصير رهيب.. تسمر في مكانه.. ولكن الامام أشار إليه بكف سمراء:

- اذهب وأعزب.

وفيما هو يخرج مرعوباً من القبو تناهت إليه طرقات متوالية حطمت سكينه الليل وإذا فارس ملثم يقوله له:

- احضر فقد جاءت رسل أمير المؤمنين إلى الأمير المنتصر وهو على الركوب.

وغاب الفارس في الظلام.

لم يبق مجال للشك في نفس سعيد وأدرك إن ساعة اغتيال المنتصر قد حانت..

قفز سعيد على صهوة جواده بعد أن تجهز بالسلاح، وانطلق إلى قصر «الحير»، القريب من «الجعفري» وكان المتوكل قد أجبر ابنه على السكن في هذا القصر تمهيداً لأغتياله!

كان «واجن» القائد التركي قد غادر «الحير» الذي استحال في وسط الظلام والمطر إلى خلية ملتهبة بالعمليات... ولحه سعيد بعد أن رأى حركة غير طبيعية فلحقه وهو في طريقه إلى القصر الجعفري.. كان قلبه يدق رعباً كطبل إفريقي مجنون! قال واجن مطمئناً:

- لا تخف يا سعيد! إن أمير المؤمنين قد شرق بقدر شربه بعد انصرافنا فمات.. رحمه الله..

كان سعيد في قلبه يميل إلى المنتصر ولذا لم يكن راضياً عن فكرة اغتياله.. ولكنه كان لا يجسر على الإفصاح عن ميوله في زمن يعاقب بالموت كل من لا يصفق للطاغية في كل ما يقول ويفعل!

عاد سعيد إلى قصر «الحير» فوجد كثيراً من القادة العسكريين وبعض الشخصيات وفي طليعتهم أحمد بن الخصيب وكتبه سعيد بن حميد وكان منهمكاً في إعداد «ميثاق البيعة» للمنتصر.

وبدا واضحاً أن أحمد بن الخصيب كان يمارس مهامه كرئيس للوزراء فما أن وصل سعيد الكبير الذي بايع المنتصر على الفور حتى أرسله ابن الخصيب إلى المؤيد لاحتضاره.. والتفت إلى سعيد الصغير قائلاً:

- اذهب انت إلى المعتز ولا ترجع إلّا به..

قال سعيد وهو يحاول التخلص من هذه المهمة العسيرة:

- ان الوضع هنا جدّ خطير.. وأمير المؤمنين يحتاج إلى حراسة.

قال الخصيب بالحاح ممجوج:

- ها هنا من الرجال ما يكفي!

قال سعيد بعناد!!

- لن أذهب حتى يجتمع من يكفي.

تدخل المنتصر لحسم الاختلاف:

- اتركه يا أحمد انه يعرف متى يذهب!

وانطلق سعيد يسابق الريح إلى قصر بلكوار في طريق ممهدة مرشوشة بالمطر ووجد بعض الجنود يتحدثون عن شائعات حول وفاة الخليفة.. قال أحد الحراس بغلظة وهو يخاطب سعيداً.

- من أنت؟!

قال سعيد:

- رسول الفتح بن خاقان.. ان معي رسالة هامة..

قال الحارس:

- يمكنك المرور.. ولكن لا أظن أن احداً سيفتح لك الباب في هذا الوقت!

راح سعيد يطرق الباب بعنف ولكن دون جدوى كانت لحظات مصيرية فقد يصل عبيدالله بن يحيى في أية لحظة وينكشف كل شيء... وعندها سوف يسحق كذباً.

وجاء صوت:

- من أنت؟

- سعيد الصغير رسول أمير المؤمنين المنتصر!

ومرّت اللحظات ثقيلة مرعبة!! انه الآن على حافة قبر مفتوح لا يدري من الذي

سيد حرجه فيه!!

فجأة فتحت الباب وظهر «بيدون» الخادم:

- ادخل!

وأغلق الباب بأحكام.. وشعر سعيد بدنو النهاية ولكنه قرر ألا يخسر نفسه على الأقل؟
هتف في أعماقه: «سيطير رأسي»!

تساءل «بيدون» وهو يقود سعيداً إلى بهو الاستقبال:

- ما الخبر؟

- شرق أمير المؤمنين وهو على مجلس الشراب بكأس شربه ومات من ساعته.. اجتمع
القادة وبايعوا المنتصر بالله.. وقد أرسلني إلى الأمير أبي عبدالله المعتز ليحضر
اليعة..

ترك الخادم سعيد في البهو وصعد إلى مخدع الأمير وما لبث أن عاد ليقول له:

- ادخل؟

وفي حالة منكسرة تظاهر بها سعيد دخل على الأمير المعتز الذي فاجأه بالسؤال قلقاً:

- ويلك يا سعيد ما الخبر؟!

- رحمه الله مات.. مات بكأس شرق بها..

وتباكى سعيد:

- أعظم الله لك الأجر يا سيدي.. انهض يا سيدي لتكون في أوائل من بايع لتعطف
قلب أخيك عليك.

- الآن؟!.. كلاً لن أذهب الآن.. في الصباح..

تدخل بيدون قائلاً:

- ان الأمر لا يستدعي النوم.. الذهاب الآن افضل.. وإلا لم يرسل وراءك أخوك.

قال المعتز بحيرة:

- أين عبيد الله بن يحيى؟!

وكاد قلب سعيد يقفز من بين ضلوعه ولكنه اجاب على الفور:

- أنه مشغول بأخذ البيعة من الناس!

وأضاف ليطيح بأخر خيوط الشك التي قد تساور المعتز.

- والفتح قد بايع أيضاً!

نهض المعتز على عجل ليرتدي ثيابه.. فيما وقف سعيد مع بيدون خارج القصر بانتظاره..

سلك سعيد بالأمير طريقاً بعيداً عن الشارع الرئيسي.. وألهب حصانه بالسوط قائلاً:

- المسافة إلى «الحير» من هنا أقصر..

كانت السماء قد كفت عن المطر منذ ساعة، وقد بدأت نسائم السحر بالهبوب..

في منتصف المسافة ظهر فارس يصيح بـ الخادم «بيدون» فتوقف له ويبدو أنه كان يتحدث بشيء خطير... ولكن بيدون الخادم نهره وهمز حصانه ليلحق بالأمير وسعيد وعلى بوابة قصر الحير عندما طرق سعيد الباب:

- من أنت؟

- سعيد الصغير والأمير المعتز.

وفتحت الباب لتغلق مرة أخرى بإحكام.

و شاء القدر أن يصل الوزير قصر «بكلوارا» مقر الأمير المعتز فيجده قد غادر القصر قبل لحظات فقط.. هتف الوزير بيأس:

- لقد قتلني، وقتل نفسه!!

والتفت إلى أحد الحرس.. هل يمكن اللحاق به؟

الهب الحارس ظهر حصانه بالسوط، فابتسم الوزير لهذه الحركة الجريئة وشعر بالأمل.. وفي قصر الحير تم توقيف الأميرين المعتز والمؤيد، في إحدى غرف القصر، ريثما يتم السيطرة على الموقف.

وقد كان لهذه الخطوة الذكية الأثر الأكبر في شلّ قدرة الوزير الذي تمكّن من حشد أكثر من عشرة آلاف فارس مسلح، وكانوا خليطاً من الأرمن والأعراب والصعاليك والغوغاء الذين جمعتهم الاطماع اضافة إلى بضعة آلاف من تشكيلات الجيش.

وعمت موجة من الحماس وارتفعت صيحات تطالب بالزحف نحو الشمال، والقضاء على المنتصر والقادة الأتراك الذين التفوا حوله، ولكن الوزير فند هذه الفكرة بقوله:

- لا يمكن فعل شيء ما دام المعتز في قبضتهم!

ومع أولى خيوط الشمس غادر المنتصر مع كوكبة من كبار القادة قصر الحير إلى قصر الجعفري، بعد أن تمت السيطرة على دواوين الدولة وقيادة الحرس الخاص، وأصدر المنتصر أوامره بدفن الطاغية مع رئيس الوزراء، فدفنا في قبر واحد بسبب استحالة الفصل بين الجسدين المقطعين واختلاط أحدهما مع الآخر!!

وصيغ بيان مختصر يفيد بأن الفتح بن خاقان قد قتل الخليفة وأن المنتصر قد نفذ بالقاتل حكم القصاص..

وفيما كان الخدم يقومون بتنظيف البلاط من آثار الليلة العاصفة حدثت حركة مضادة إذ تدفق الآلاف من الغوغاء الذين تحشدوا في الفجر إلى قصر الجعفري وراحوا يطلقون هتافات معادية..

وخرج اليهم الحاجب زرافة يشرهم بعهد جديد.. لقد اشرفت شمس الحرية وستهب نسائم العدالة.. وستفتح أبواب السجون. ولكن الغوغاء لهم آذان لا يسمعون بها.. أنهم نتاج تربية طاغية لقنهم الخنوع والانسحاق والطمع والاعتياش على فتات الموائد..

وجاء سيل من الشائم ما جعله يتراجع ويحيط الخليفة المنتصر علماً بما يجري داخل أسوار القصر!

وهب المنتصر لمعالجة الموقف بنفسه وهو يعرف كيف يواجه مثل هؤلاء الناس.. انهم مثل الكلاب المسعورة لن يفيدوا سوى الرجم..

وظهر المنتصر يحفه حرس من المغاربة بوجوههم السوداء المخيفة..

أطل المنتصر على الجموع بنظرات ملتبهة وصاح بحرسه:

- خذوهم!!

واندفع عشرات الحرس من الزنوج العمالقة من فوق المدرجات وحدثت الفوضى بين الجموع وداس بعضهم بعضاً حتى اخرجوا من الابواب الثلاثة ولم يبق داخل السور سوى أجساد الذين دهسوا واستحالوا في لحظات الفوضى إلى جثث هامة^(٣١٧) تبحلق عيونها في الفراغ.

الفصل الرابعون

خائفاً يتربق ذلك الرجل^(٣١٨) القادم من الحجاز ها هو يحوم حول القبة البيضاء في النجف حيث يرقد بطل الإسلام والسيوف المقاتل.. اليوم هو يوم الثلاثاء ٣ شوال ٢٤٧هـ.. ١٠ كانون الأول ٨٦١م كان الرجل الذي تعدى الاربعين من عمره يتلفت في البيداء متحاشياً الاقتراب من المفارز المسلحة التي اتخذت من الروابي مقرات للمراقبة واعتقال من تسول له نفسه زيارة المرقد الطاهر!

الرياح الباردة في ذلك الأصيل دفعت بالجنود الذين ملأوا هذه المهام القذرة إلى التماس الدفء داخل خيام تعبت بها رياح كانون..

وتمكن الرجل من زيارة ولي الله وابن عم رسول الله، وعلى الرغم منه انبجست من عينيه دموع تختصر تاريخ طويل من القهر والظلم والاضطهاد.. تاريخ مضمخ بالدماء منقوع بالدموع. مفعم بالحزن مخزون بالغضب المقدس.

وتساءل في نفسه ما الذي دهي الأمة فلا تستطيع أن تقول للظالم لا؟! ما الذي دهي الناس فلا يستطيعون البوح عما في انفسهم من الألم والعذاب؟!

ما الذي دهي هذه الأمة.. أحرارها في ظلمات السجون.. وعبيدها خائفون..

والمهرجون فيها اثرياء مترفون؟!

بدت الشمس في الأفق باهتة منطفئة وراء الغيوم.. وكان الرجل يقطع المسافات في طريقه إلى كربلاء.

الرياح تلمح المسافر الوحيد الذي اقترب من «الغاضرية»، وقد غاصت الشمس في المغيب فارتسم في الأفق الغربي لون ملتهب بحمرة متوقدة كجراح الانبياء.

ولمح رجلين يختبآن بين حشائش نبتت في غابة من النخيل وأدرك على الفور أنهما جاء للزيارة أيضاً..

وحتى يبدد مشاعر الخوف بادرهما بالتحية:

- سلام على زوار الحسين.

واشرقت ابتسامة من رجل تفوح منه رائحة العطر..

قال «الاشناني» بأسى:

- الثيران ما تزال تحرث أرض كربلاء منذ الصباح.

تساءل الرجل:

- وكيف يمكن التعرف على موضع القبر؟!

قال الذي تفوح منه روائح العطر:

- أنا أدلك عليه.. استطيع ذلك من شم الأرض أن رائحة زكية تنبعث من المكان.

- أي رائحة هذه؟!

قال العطار خاشعاً:

- انني أعمل في صنع العطور منذ عشرين سنة... والله ما شممت مثلها أبداً..

- رائحة الفردوس!!

- أنا لم أشم رائحة الجنة.. ولكنني أجزم أنها ليست من روائح أزهار الأرض!

- أريد أن أنظر إلى المكان من بعيد..

قال العطار:

- كن حذراً.. يوجد مسلحتين عن اليمين وعن الشمال.. فسر في الوسط. وأنظر من بعيد.. وإلا كان مصيرك في ظلمات «المطبق».. ولولا بعد العهد بالزيارة لم أخطر^(٣١٩) ومن بعيد راح «ابن رابية الطوري» ينظر إلى الثيران وهي تحرث الأرض.. وشاهد شيئاً عجيباً أن الثيران كانت تحيد عن بقعة محددة يميناً أو شمالاً فينهال عليها رجال غلاظ بالعصي ضرباً شديداً فلا ينفع ذلك فيها.

كان يرنو إلى تلك البقعة والتي غرقت في لجة من الدموع.. دموع صافية كاللؤلؤ.. طاهرة كقطرات الندى.. مخزونة بالغضب كالبراكين.. انها دمعة شيعي مقهور مطارد منذ أن جاء إلى هذه الدنيا، وخائفاً يترقب حتى لحظة الرحيل.. الرحيل من هذا العالم المليء بالشور.

وعندما عاد إلى صاحبيه قال:

- انصحكما بالعودة.. لقد رأيت رجالاً كالذئاب أو أشدّ قسوة.

قال الأشناني:

- انا ننتظر حلول الظلام.. سوف ينامون عند منتصف الليل.. لقد عاهدت ربي على أن أضع علامات حول القبر.

قال الرجل:

- لقد زرت من بعيد.. ويتوجب علي العودة إلى بغداد قبل منتصف الليل.

ودع الرجل صاحبيه وراح يسير بين النخيل إلى مرسى توجد فيه زوارق تنقل

المسافرين إلى الضفة الأخرى من الفرات.. وخلال الطريق راح يشدو بحزن:

قتل ابن بنت نبيها مظلوما

تالله إن كانت أمية قد أتت

هذا لعمرك قبره مهـدوما

فلقد أتاه بنو أبيه بمثلها

أسفوا على أن لا يكونوا شاركوا
في قتله فتتبعوه رميماً
عندما وصل بغداد كانت النجوم تسطح في سماء صافية ما خلا بعض نتف الغيوم في
الأفق الغربي ووجد نفسه يناجي ربه:
- الهي.. أما أن لهذا الليل البهيم أن ينجلي؟!
الهي ادخل الطمأنينة على القلوب الخائفة.
وأمر الطريق للحائرين.. واهد يا الهي الضائعين.
آمين..

فضل ابن رابية التوجه إلى خان «عاصم»^(٣٢٠) وقضاء ليلة في خان المسافرين قبل أن
يذهب إلى منزله في شرق بغداد في هذا الوقت المتأخر من الليل.
تناول عشاءه بصمت وفضل ألا يتبادل الحديث مع أي كان توجساً من آذان الجواسيس
الذين يصعب التعرف عليهم!

إن ذكر آل الرسول بخير قد يؤدي بالإنسان إلى التهلكة!
ما ان وضع الرجل المسافر رأسه على الوسادة حتى راح في اغفاءة عميقة... وفي النوم
يغمض الانسان المقهور عينيه ليفتحهما على عالم غامض زاخر بالرموز..
«كان يقطع الصحراء المليئة بكثبان الرمال.. ظامئاً يشد قطرة ماء ولم يكن في الأفق
سوى السراب.. كان يركض بين الكثبان كما لو كان يسعى بين الصفا والمروة.. وعندما
شعر باليأس نظر إلى السماء...»
وانتبه على صوت أذان الفجر ينبعث من منارة مسجد قريب وارتشف من ماء كوز
فوق رف جرعة ماء.

بغداد ما تزال غارقة في غبش الفجر وبدت الفوانيس في الأزقة محاطة بهالة من النور
صنعها الضباب الشفيف..

وفي ضوء القنديل ظل ابن رابية جالساً فوق سجاده يتلو القرآن بصوت رخيم..

ومع شروق الشمس عندما نزل إلى بهو الخان لتناول طعام الافطار.. شاهد همساً
وحركة غير طبيعية وانتابته الهواجس..

وتذكر بأسى مصير صاحب الخان الذي لقي مصرعه تحت سياط لا ترحم ورمي
بجثمانه في مياه دجلة^(٣٢١).

ولذا تناول أفطاره المؤلف من رغيف خبز وقدرًا من الزبدة وسدد ثمن المبيت وطعام
العشاء والافطار، وأسرع بلملمة أشياءه ومغادرة الخان..

كان الشارع الذي سلكه يؤدي إلى جسر الرصافة ماراً بسوق الرياحين ثم سوق
الوراقين.. والصاغة..

بغداد تستيقظ في كانون قبيل الضحى ولذا كانت الأسواق مقفرة ماعدا بعض الباعة
الذين ييكرّون عادة.

ومن فوق جسر الرصافة بدت النخيل على امتداد جبهة النهر، وظهرت بعض القصور
الفخمة التي كان يقطنها ذات يوم خلفاء سادوا ثم بادوا.. انها سنة الحياة.. كمياه النهر لا
تعرف التوقف.. لابقاء إلا لله.. كل من عليها فان ويبقى وجه ربك...

ووقع بصره على زحام الناس في ميدان رحب عند رقبة الجسر في جانب الرصافة..
لقد كان المشهد عجيباً خاصة في مثل هذا الصباح البارد الندي... إن شيئاً خطيراً قد
وقع ولا شك!! شيء دفع بهذا العدد من الناس إلى التجمهر في هذا المكان لسماع المزيد من
التفاصيل المثيرة!!

وسأل الرجل أول من صادفه..

- ما الخبر؟!

- يقولون سقط الطائر بقتل المتوكل!

- ماذا؟!

- لا أحد يدري ما الذي حصل؟!

تدخل آخر قائلًا:

- يقولون ان الرسالة التي حملها الحمام الزاجل خالية من التوقيع!!

- ولكن حمام الزاجل لا يطير إلا من قصور الخلفاء!!

وقبل أذان الظهر كان كل شيء قد بدا واضحاً كشمس ذلك اليوم.. لقد سقط المتوكل إلى الأبد!!

وكان مشهد الافراج عن السجناء في «المطبق» وغيره من السجون مؤثراً..

عشرات الابرياء ممن قضوا أياماً طويلة في الظلمات ينظرون إلى الشمس بفرح ويملاؤن صدورهم بنسيم الحرية!!

وعمت الفرحة بغداد.

وفي سامراء.. أفرج عن الامام المعتقل ليعود إلى منزله والابتسامة تشرق في وجهه واستقبلته أسرته بفرح وأمل..

فيما كانت نواقيس الكنائس تصاعد في الفضاء فتتعانق مع أذان حالم ينساب من فوق المنائر.

خاصة المنارة الملوّية التي بدت مغمورة في النور.

وفي كربلاء تدفق المئات من المؤمنين وفي طليعتهم جماعة من الطالبيين وكانت المناحة الكربلائية ذلك اليوم مزيجاً من دموع الحزن والفرح والشوق للقاء سيد الشهداء وأبي الأحرار في يوم الخلاص والحرية^(٣٢٢)

الفصل الحادي والاربعون

هلال شوال ما يزال مبتسماً فقد اشرق زمن الحرية، وانتهى إلى أمد ليل الطاغية الطويل..

الخليفة الجديد يتخذ قرارات تتم عن ارادة في أن يسود الخير والسلام ربوع البلاد..

ولكن لعنة غامضة ما تزال تطارد الشاب الذي أقدم على اغتيال والده في تلك الليلة

الخريفية من سنة ٨٦١م.

عمّت الفرحة أنحاء البلاد وكان أكثر الناس فرحاً العلويون الذين ابتهجوا بالسياسة الجديدة..

فقد ألغيت الإجراءات التعسفية كما أطلقت جميع أموالهم المجمدة وأفرج عن السجناء الذين اعتقلوا لثهم واهية، أو بسبب زيارة مرقد الإمام علي في النجف ونجّله سبط النبي ﷺ الإمام الحسين في كربلاء.

وخلال فترة وجيزة تم بناء مرقد الإمام الحسين الذي ظل طوال عقد من السنين أرضاً زراعية وتكرّبها وتجوسها ثيران الحراثة كل عام.

أحدث سقوط الطاغية دويّاً كبيراً هزّ المجتمع الإسلامي وكانت سامراء التي هي مركز الزلزال في طليعة المدن التي هزّها الحادث.

على أن الدفء الذي غمر الأرض بعد شتاء قارس لم يدم طويلاً فلقد أسفر المشهد الجديد عن وجود قوى تريد كسب المزيد من الثراء والنفوذ والسلطان.

فقد وجد «محمد المنتصر» نفسه محاصراً في قصره بسامراء..

كل ما استطاع فعله حتى الآن أنه أمر بإخلاء العاصمة الجديدة «المتوكلية» بل وهدم جميع منشآتها ونقل مواد البناء إلى سامراء فالمتوكلية مشروع فاشل ولد ميتاً لأن مشروع النهر الذي يعدّ شريان حياتها كان فاشلاً فتحققت نبوءة الرجل المبارك «علي بن محمد».

نحن، الآن في نهايات عام ٢٤٧هـ مطلع العام الميلادي الجديد ٨٦٢م.. وزعماء الحركة الانقلابية من ضباط الحرس والجيش الاتراك قد بلغوا ذروة نفوذهم ويريدون الآن تحقيق أكبر ما يمكن من التسلّط «وصيف» «بغا الشرايبي» «أوتامش» و «باغر»، وقد ظهرت شخصية انتهازية ظهور النباتات المتسلقة تلك هي شخصية رئيس الوزراء الجديد «أحمد بن الخصيب»، وقد بدا واضحاً أنه قد كسب ثقة الاتراك.

المشهد الآن داخل القصر.. خليفة شاب في الخامسة والعشرين من العمر، يمتاز برجاجة عقل وحسن تدبير انه يفكر بانقاذ الخلافة من براثن النفوذ التركي المتسلط..

واستعادة المجد العباسي..

أربعة ضباط اترك يضر كل منهم للآخر الكيد ويحاول افتراس صاحبه قبل أن يفترسه، فيما ظهر ابن الخصيب حرباء تتلون حسب الظروف وأفعى تنفث سمها وحقدتها في كل اتجاه.

أما بغا الكبير فقد كان يخطو خطواته الأخيرة نحو القبر بعد أن ذرف على التسعين.. لقد اكتفى بمساندة الاتراك وتأييد الحركة الانقلابية فقط.. ما دام ابنه بغا الصغير المعروف بالشرابي أحد قادتها ومنفذيها.

شعر المنتصر أنه ارتكب خطأ فادحاً بتعيينه أحمد بن الخصيب رئيساً للوزراء، خاصة بعد أن تناهت إليه حادثة مؤلة^(٣٢٣) أثارت استياء الناس.

كان المنتصر قد كسب شعبية ومحوبة بين الناس بسبب سياسته المعتدلة وتخفيفه من محنة العلويين ولكن ثمة أشياء كانت تلقي ظلالها على وجه المنتصر أنه في كل الاحوال قاتل أبيه، وقاتل الأب لكن يكون طيباً في نظر الناس مهما تفانى في طبيته! ان سياسة رئيس الوزراء ونفوذ الزعامات التركية قد اصبحت واقعاً مريعاً يحس بوطأته الشعب، وكان المنتصر يدرك ذلك جيداً، ولذا اجتاحتته مشاعر الندم المريرة منذ بدء العام الهجري الجديد الذي أطل مع ربيع سنة ٨٦٢هـ.

واضحى قصر «المحدث» بؤرة للمؤامرات والدسائس من جديد، وما أثار مخاوف الاتراك ان المنتصر قد اصبحت كثيراً يعاني من موجات حزن تتابته بين فترة وأخرى.

كان قمر محرم الحرام بداراً بهياً، ولم تفلح نسائم آذار المنعشة في أن تدخل البهجة على النفس المعذبة... «المنتصر» يعيش احزانه وحيداً تحاصره مشاعر الندم.. ما الذي فعله؟!.. ان كل شيء كان يحلم في تحقيقه يتحطم على صخرة التعسف التركي البغيض.. هؤلاء القتلة الذين مزقوا أبي إرباً إرباً فعلوا ذلك لكي تصبح الخلافة العوبة بأيديهم.. ها أنا اصبحت دمية في أيديهم.. واجتاحتته موجة من الغضب فغمغم ولكن بإصرار:

- سوف أمزقهم جميعاً.. قتلني الله ان لم اقتلهم وافرق جمعهم^(٣٢٤)!

لكنه يشعر باليأس.. اليأس من الاصلاح وكيف يمكنه مقاومة العاصفة المجنونة..

ان هؤلاء الاجلاف قد استعذبوا التسلط.. سيوفهم في أيديهم.. والخناجر؛ واسهل ما عندهم ذبح الانسان من الوريد إلى الوريد.. الذين يعرفون «المنتصر» يعرفون مأساة الذي اكتشف أنه لم يحصد سوى الريح..

في المساء امتطى المنتصر حصانه والهبة بالسياط فانطلق به نحو الافق البعيد وكأنه يريد الهرب لا يدري إلى أين؟! وعندما عاد إلى القصر كان يتصبب عرقاً^(٣٢٥) فألقى بنفسه في إيوان كانت تهب خلاله نسائم باردة.

القصر يكاد يكون مهجوراً ذلك المساء.. ولم يكن أحد يستطيع الاقتراب من المنتصر هيبة له.. انه يفضل أن يكون وحيداً مع احزانه وعذباته..

لم يغف المنتصر طويلاً حتى هبّ من نومه مرعوباً.. ييكي.. تطارده اشباح مخيفة.. ونهض من مكانه يدور في أروقة القصر وكأنه يبحث عن شيء وعندما وقعت عيناه على أحد موظفي القصر قال له بحزن:

- اين ذلك البساط^(٣٢٦)؟

وأدرك أيوب قصد الخليفة:

- عليه آثار دماء فاحشة.. وقد عزمت أن لا أفرشه من ليلة الحادثة.

قال المنتصر:

- لم لا تغسله وتطويه؟

- اخشى أن يشيع الخبر عندما نفرشه؟

قال المنتصر بمرارة:

- وهل تظن ان الحادثة بقيت سرّاً.. ان الأمر اشهر من ذلك..

الفصل الثاني والأربعون

تنفس العلويون الصعداء.. في الحجاز.. والعراق.. ولأول مرة ومنذ أكثر من ربع قرن زالت عنهم هواجس الخوف والتشرد، وذاقوا حلاوة الأمن والحرية.. وفي هذه الفترة

الوجيزة تحسنت اوضاعهم المعيشية، وشدّ بعضهم الرحال إلى العاصمة سامراء.. خاصة بعد إعادة «فدك» تلك الأرض الزراعية الخصبة وكانت «حكيمة» شقيقة الامام علي الهادي في طليعة الوافدين وقد جاءت مصطحبة معها ابن الامام الاكبر محمد الذي يكنى بأبي جعفر وله من العمر ثمانية عشر عاماً.

وتمكنت السيدة حكيمة من شراء بيت قريب من بيت شقيقها الحبيب.. وبدا للكثير منهم أن الزمن يتسم لأبناء علي بعد عبوس طويل.. ولكن إلى حين.

فلقد بدا واضحاً أن القادة الاتراك يسكون بقبضات فولاذية على مقاليد الحكم، وسكنت حمى النفوذ وشهوة الحكم نفوسهم.

فقد تستحيل همسة في البلاط إلى هاجس مخيف، وكان المنتصر يدرك سوء الاوضاع فاقدام على خطوة جريئة، عندما وصلته انباء مؤكدة عن تحركات عسكرية بقيادة الامبراطور تيفوئيل تستهدف اجتياح مدن مصر الساحلية..

ولذا استدعى وصيف قائلاً له:

- ان طاغية الروم يهدد حدودنا بغزو وشيك.. وليس هناك من يستطيع صدّه إلا أنا أو أنت فما رأيك.. فاماً أن تتوجه أنت أو أنا!!

قال وصيف:

- بل أنا!

وهكذا بدأت الاستعداد على قدم وساق في تجهيز حملة عسكرية لصد الغزو الرومي القادم.

وقد ورد في وثيقة الحملة إجراء اثار هواجس «وصيف» وهو ضرورة مرابطة وصيف في الجبهة الشمالية مدة أربع سنين وستكون عودته بتصريح من الخليفة نفسه^(٣٢٧).

وقد لقيت هذه الخطوة ترحيباً من قبل ابن الخصيب بسبب عداء شخصي مع وصيف^(٣٢٨).

ولكن حالة المنتصر النفسية فيما يبدو كانت تتدهور نحو الأسوأ.. واستحالت لياليه إلى كوايبس.

وكان دائم النظر إلى السجادة التي شهدت مصرع أبيه يتأمل في بقع الدماء التي لم تفلح المياه في ازالتها تماماً..

وما ضاعف فجيعة صور ونقوش بالفارسية أثارت اهتمامه وفي إحدى دوائر السجادة الفارسية فارس متوج تحيطه كتابة فارسية فسأل عن معناها..

قطب المترجم حاجيه واعتصم بالصمت.. ولكن المنتصر اصر على ترجمتها فقال المترجم: - الكتابة تقول: أنا شيرويه بن كسرى بن هرمز.. قتلت أبي فلم اتمتع بالملك إلا ستة اشهر.

واجتاحت المنتصر موجة من الحزن المرير، فجلس عند الصورة فيما غادر الجميع المكان..

أثارت هذه التصرفات هواجس الاثراك، فقد بنتقم المنتصر لأبيه وكان ابن الخصيب يزيد من مخاوفهم من وجود «المعتز» و «المؤيد» فهناك ميثاق رسمي يقضي بانتقال الخلافة إلى المعتز في حالة موت المنتصر!

وفي مطلع صفر عاد وصيف إلى سامراء بذريعة واهية وبدأ التخطيط لدفع المنتصر إلى خلع المعتز والمؤيد من ولاية العهد.

في البداية قاوم المنتصر هذه الضغوط ولكنه شعر أن رفضه لذلك سيؤدي إلى تفكير الاثراك باغتيال أخويه سيما وأن الظروف السياسية السائدة مواتية.

القي القبض على الاميرين «المعتز» و «المؤيد» ليلاً ونقلا إلى حجرة في القصر..

تساءل المعتز بعدما أغلقت عليهما الباب:

- لم تراه أحضرنا؟!

قال المؤيد الذي أدرك ما يجري:

- يا شقي للخلع.

- لا أظنه يفعل ذلك!

- يا شقي هو نعم.. ولكن هؤلاء الاتراك!

في الاثناء فتحت الباب ليدخل مبعوث رسمي من قبل البلاط ومعه كاتب لضبط
وتدوين ميثاق التنازل عن ولاية العهد.

بادر المؤيد للموافقة فوراً:

- السمع والطاعة.

ولكن المعتز قال:

- لن أفعل ذلك!

لكزه المؤيد قائلاً:

- انه القتل إذا لم تفعل!

قال المعتز مخاطباً:

- ابلغه بذلك.

اشار المبعوث الرسمي إلى جلاوزته، فانقضوا على المعتز وجره ليوضع في حجرة
أخرى..

سمع المؤيد بكاءً - يأتي من الحجرة التي أودع فيها أخوه فصاح بالشرطة:

- ماذا تفعلون يا كلاب؟! دعوني اكلمه.

وجاءت الموافقة على اللقاء، فدخل المؤيد على أخيه وربت على كتفه فكف عن
البكاء.. قال المؤيد:

- يا جاهل لماذا تقتل نفسك.. اتظنهم لا يفعلون ذلك وقد قتلوا اباك وهو هو...

- وماذا تريدني أفعل؟! اخلع نفسي وقد انتشر ذلك في الآفاق؟!

- الخلع أفضل من القتل.

سكت لحظات ثم استطرده قائلاً:

- إذا كان الله قد كتب لك أن تكون خليفة فستكون نصيبك.

استسلم المعتز.

تم ضبط محضر في تنازل الاميرين الذين أمرا بتسليم وثيقة التنازل إلى الخليفة في حضور القادة الاتراك.

قال المؤيد:

- نجدد ثيابنا؟

قال الموظف المسؤول:

- ولم لا.. ولكن هنا.. سوف نحضر ما تطلبان من ثياب!

تم اللقاء في جو متوتر نسبياً، سلم الاميران على الخليفة الذي رحب بأخويه..

تساءل المنتصر:

- هذا كتابكما؟!

سكت المعتز فقال المؤيد مستدركاً الوضع:

- نعم يا أمير المؤمنين.

والتفت إلى أخيه قائلاً:

تكلم:

غمغم المعتز:

- نعم يا أمير المؤمنين.. كتابي وتوقيعي:

قال المنتصر بشجاعة:

- اتظنان انني خلعتكما طمعاً في أعيش حتى يكبر ولدي؟!

لا والله.. ولكن هؤلاء..

وأشار إلى الاتراك مستأنفاً:

- الحو علي في خلعكما.. فخفضت أن لم أفعل أن يعترضكما بعضهم بحديدة فيأتي عليكما..

وأدرك الأخوان أن المنتصر لا يعرف الخداع ولذا بادرا إلى تقبيل يديه لكنه ضمهما إلى صدره بحب.

وقام رئيس الوزراء الذي كان يتسم بارتياح بتحرير^(٣٢٩) وثيقة التنازل لتعميمها على جميع ولايات الدولة الإسلامية المترامية الأطراف.

الفصل الثالث والأربعون

سيطرت حمى الهواجس على القصر حيث يقيم الخليفة الذي مضت على حكمه خمسة أشهر، وما زالت روحه المعذبة مثقلة بمشاعر الاثم.. وبدأت لقاءات الاتراك تتخذ طابع التوجس من اجراءات الخليفة الذي قد ينقض عليهم في لحظة ما..

ومن يرى القائدين «وصيف» و «بغا الشرابي» لابد وأن يدرك انهما ما يزالان يحكما بقبضة حديدية على مصير البلاد، كما أنه سيكتشف من لقاءاتهما المستمرة أنهما بدءا يتوجسان من «المنتصر» الذي لا يمكن السيطرة عليه.

وكان يثير خوفهما أنه لا يمكن اغتياله فلقد كان «مهيباً» شجاعاً، فطناً متحرزاً^(٣٣٠) ولذا بدأوا يفكرون بوسائل أخرى^(٣٣١).

الرواق الذي اتخذ المنتصر مجلساً له كان مقفراً فقد انطلق الخليفة المعذب ينهب ميدان الخيل بحصانه امعاناً في الفرار.. كان بغا ووصيف يتمشيان خلال أروقة القصر عندما صادفهما موظف في القصر يعمل كاتباً في ديوان جيش الشاكرية^(٣٣٢).

قال الموظف وكان يتقن الفارسية:

- ألم يجد الفراش بساطاً غير هذا ليفرشه تحت أمير المؤمنين؟

قال وصيف:

- لماذا؟!

- فيه صورة شيروية قاتل أبيه «أبرويز»

وتبادل القائدان نظرات ذات معنى، قال بغا بعدها:

- يجب أن يحرق حالاً!

لفّ البساط بسرعة وقبل أن يعود المنتصر ليحرق في حضرة القائدين، وكانا ينظران إلى وهج النار وإلى الذهب قد بدأ يسيل برآقاً تحت السنة النار والدخان (٣٣٣).

عاد «المنتصر» من رحلته اليومية منهكاً ولفّت نظره وهو يلج الرواق وجود بساط جديد..

فاستدعى الفراش قائلاً:

- أريد أن تفرش نفس البساط:

قال الفراش:

- ومن أين آتي به؟!

قال المنتصر:

- وماذا حصل له؟

- ان وصيفاً وبغا أمراني بإحراقه.

سكت المنتصر وانطوى على جراح لا تندمل.

وبداً واضحاً خلال تلك الفترة العاصفة ان بغا الشرايبي أو بغا الصغير هو الحاكم الحقيقي بالرغم من استبسال المنتصر في استعادة قدرة الحكم..

وكانت الأمور تجري وفقاً لأهواء القادة الاتراك الذين كانوا يلاحقون شخصيات العهد البائد..

وكان بعض الاشخاص يختفون في ظروف غامضة ولا يعرف أحد عن مصيرهم حتى «محبوبة» جارية المتوكل الأثرية لم تسلم من التصفيات فقد استدعيت للغناء فرفضت

فاجبرت على ذلك لكنها غنت بلحن حزين وذكرت ليلة اغتيال سيدها، فأصدر وصيف أمراً بسجنها.

وانقطعت اخبارها من ذلك الوقت (٣٣٤)!

وفي تلك المدينة التي نسى أهلها الله كان الامام الهادي ينظر إلى الأفق البعيد ويرى حمرة الشفق الملتهب.. ويرى سبجاً داكنة قادمة.. سوف تغمر الظلمات الأرض.. وقوافل البشر الحائرة وقد تاهت بها السبل.. وفيما كانت أصوات الغناء والموسيقى تتسرب من نوافذ القصور.. كانت تتمات الدعاء تتعالى من منزل في «درب الحصا» حيث يقطن الامام منذ خمسة عشر عاماً.

عاد كافور الخادم متعباً وقد دفعته نفحات الهواء البارد في تلك الليلة التي اشتد فيها هبوب الرياح الشمالية، إلى أن يدس نفسه في الفراش..

يتوجب عليه في هذا الوقت أن يأتي بسطل من الماء من السرداب واعداد الوضوء لسيده الذي يتهياً عادة في مثل هذا الوقت لأداء صلاة الليل..

لكن دفء الفراش وأمنه عقوبة السيد كانا يدفعانه إلى تناسي مهمته الأخيرة..

لم يكن قد أغمض عينيه عندما تاهت إليه خطى تتجه إلى حجرته..

قال الامام بلهجة فيها عتب.

- ألا تعرف رسمي؟.. أنني لا اتطهر إلا بماء بارد فلم سخنت لي ماء؟!

فوجيء كافور وقال بدهشة:

- ولكن يا سيدي لم آت بالماء أصلاً!!

نظر الامام عبر الباب المشرعة إلى السماء وقال:

- الحمد لله.. والله ما تركنا رخصة ولا رددنا منحة..

الحمد لله الذي جعلنا من أهل طاعته ووقفنا للعون على طاعته.

وامتلأت نفس كافور اجلاً لهذا الانسان الطاهر الذي عبدالله وحده فأكرمه الله بماء

دافىء تحمله الملائكة (٣٣٥)!

مضت ساعة من الليل وتناهدت طرقات متواليات على باب المنزل الغارق في سكونية الليل..

كان الطارق «يونس النقاش».. يرتجف ولكن ليس بسبب البرد افسح كافور الخادم ليدخل المنزل.. لا بد وأن الأمر جدّ خطير!

قال يونس وهو يرتجف:

- يا سيدي أوصيك بأهلي خيراً!

قال الامام:

- وما الخبر؟

- عزمت على الرحيل.

مبتسماً قال الامام:

- ولم يا يونس؟

- وجه بغا الصغير اليّ بفصّ ثمين لا تعرف له قيمة وطلب مني أن انقشه فانكسر نصفين.. والموعود غداً وهو من تعرف ياسيدي!! إما أُلّف سوط أو القتل.

قال الامام مهدّئاً:

- امض إلى منزلك إلى غد فما يكون إلّا خيراً.

- وماذا أقول لرسوله؟!

- اسمع ما يخبرك به، فلن يكون إلّا خيراً.

ابتسامة الامام وعينه اللتان تتألقان بنور شفاف بعثت الدفء في قلب الرجل الخائف الذي انقلب إلى أهله.. انه يعرف الامام يعرفه من سنين طويلة.. رجل مبارك كلما التقاه في الطريق.. يتفتح في قلبه الأمل في الحياة.. ما تزال الدنيا في خير.. وما يزال هناك قلب ينبض بحب الناس جميعاً.

وفي صباح اليوم التالي.

كان يونس منطلق الوجه قال لكافور وقد استفسره عما حصل:

- جاءني الرسول يقول: يا سيدي.. الجواري اختصمن، فهل يمكنك أن تجعله نصفين ونضاعف لك الأجرة؟

- وبماذا اجبته؟

- قلت له: أمهلني حتى أتأمل كيف أعمله^(٣٣٦).

وضحكا معاً، وكان ينبوع يتدفق حباً للإمام.

الفصل الرابع والاربعون

الجواسيس المبعوثون في القصر وخارجه وهم يعملون لحساب القائد «وصيف» كُونوا صورة مخيفة عن «المنتصر».. هناك خطط مبيتة للخليفة تستهدف تمزيق الاتراك في أول فرصة، وما زاد هذه المخاوف أن المنتصر ربّما تحدث ذلك علناً وربّما تفجّر غضبه المخزون في نظرة شرراء يلقيها كلما رأى قائداً تركيا مرموقاً^(٣٣٧).

ولذا كان الأتراك قد بدأوا يفكرون في اغتيال المنتصر والفتك به قبل أن يفتك بهم.. ولكن كيف؟!

سؤال صعب جوابه على الاتراك فالمنتصر من اليقظة والشجاعة ما يصعب فيه اغتياله ولكن هناك نقطة ضعف يمكن استغلالها ان المنتصر يعيش حالة مدمرة من الندم واليأس ولم يكن ينظر إلى المستقبل بأمل، لكن بركان الغضب الذي انفجر في تلك الليلة العاصفة خمد فجأة استحال إلى رماد تذروه الرياح.. أنه يعاني حالة مريرة من الندم وهذا ما جعل القادة الاتراك يتوجسون منه.. لكنه لم يفكر في تكوين حرس خاص وكانت سياسته المالية المتزنة وابتعاده عن مطاردة منائيه من رجال العهد البائد وعدم امتلاكه لشبكة من الجواسيس سوف يسهل من عملية اغتياله بطريقة ما!

صحيح أن الناس بدأوا يميلون إليه ويحبونه ولكن ما فائدة هذا الحب مادام الناس لا يملكون سلاحاً للدفاع عنه ولا يمكنهم حراسته أيضاً.. ان القوة الضاربة ما تزال في ايدي

الأتراك.. قوات الحرس والجيش ما تزال في قبضة القادة الأتراك.. وكلهم مقتنعون بضرورة التخلص من المنتصر.. باستثناء بغا الكبير فهو الوحيد الذي يعارض ذلك.. لأن الخليفة القوي يساعد في اقرار النظام ومنع الفوضى..

ولكن «وصيفاً» و «بغا الصغير» كانا يفكران بطريقة أخرى.. ان وجود خليفة ضعيف سوف يضمن للأتراك استمرار نفوذهم.. من أجل هذا كان يترقبان أول فرصة سانحة..

وما دام كل شيء يباع و يشتري، والذهب ما يزال يخطف العقول والابصار فلا

وجود لشيء مستحيل!

كان المنتصر قد عاد من رحلته اليومية مكدوداً تماماً وبدأ أنه قد أمعن في الفرار في الفيافي شرق سامراء وكعاداته عندما تجتاحه موجة من الحزن المرير أوى إلى عزله، والقى بنفسه على وسائل خضراء اللون مشوبه بنقوش حمراء.

كانت نسائم نيسان تدور خلال أروقة القصر وستائر حريرية شفافة تميل مع النسيم الربيعي المفعم برائحة الورد.. ومع ذلك فقد كان المنتصر يتصبب عرقاً لكانه يعاني من رؤيا تعذبه (٣٣٨).

شاء القدر أن يستيقظ المنتصر وهو يلتهب من الحمى مما استدعى الاتصال بـ «الطيفوري» الطبيب لاجراء فحوصاته.. اشتعلت في رؤوس الأتراك حمى التآمر..

استقبل القادة الأتراك الطبيب قبل أن يدخل على المنتصر وكانت نظراتهم تحرضه بشكل واضح، فأطرق برأسه ومضى.. أجرى الطيفوري بعض الفحوصات السريرية، ونصح المريض بإجراء عملية فصاد للدم، وتم الاتفاق على أن يجري ذلك بعد العشاء..

عندما عاد الطيفوري إلى المنزل وجد من ينتظر عودته، كان الرجل التركي الذي يرتدي حلة من الدياج الاصفر ساكناً.. واكتفى بان قدم ثلاثين الف دينار (٣٣٩).. انه اكبر مبلغ يراه الطبيب في حياته يستطيع أن يحيا بقية عمره في دعة من العيش.. يكفي أن يضع المريض بمشراط مسموم (٣٤٠).. لم يصمد الطبيب أمام بريق الذهب، وضجت نفسه بالسواوس فيما خفت صوت العقل الذي اغتاله بريق الدينار الذهبي..

تمت الجراحة وقد بذل الطيفوري جهد الابالسة في اخفاء مشاعره أمام نظرات المنتصر الثاقبة..

وعندما غادر القصر كان الطريق إلى منزله تغمره ظلمة كثيفة وشعر وهو في منتصف الطريق أن هناك من يطارد خطواته..

لم يشعر المنتصر بأي تحسن، وعندما تناول كمثرى^(٣٤١) شعر بألم شديد في معدته..
أمه تنظر إليه بحزن.. تبكي بصمت شباب ابنها.. لم يكن محظوظاً في الدنيا حتى أبيه كان يتأمر عليه.. وفي مثل هذا العالم المليء بالذئاب لا يعيش إلا من يكون ذئباً..
قال المنتصر بأسى:

- يا أماه ذهبت مني الدنيا والآخرة.. عاجلت أبي فعوجلتي^(٣٤٢)!

كفكفت الأم دمة ثكلى.

- لقد كنت بي باراً ومع الناس طيباً.. ومع نفسك صادقاً كل الناس يموتون وقليلون الذين يواجهون الموت بشجاعة.

أغمض المنتصر عينيه وغط في اغفاء عميقة فانسحبت امه بهدوء بعد أن طبعت على جبينه قبلة أودعتها كل أمومتها..

في اليوم التالي طلب رؤية ابنه الصغير «عبدالوهاب» فقبله وتمتم بكلمات خافته أن يحميه الله من شرور الذئاب البشرية التي تعوي في قصره..

وفي مساء يوم السبت الرابع من شوال سنة ٢٤٨هـ كان المنتصر يودع الحياة..

أطلّ الهلال متألقاً في سماء حزيران الصافية الشاب المسجى ينظر بعينين فيهما أمل وهو يودع الدنيا إلى عالم آخر.. وراح يغمغم بشعر نبع من قلبه الكسير:

فما فرحت نفسي بدنيا أخذتها ولكن إلى الرب الكريم أصير^(٣٤٣)
واغمض عينيه ليغفو بسلام..

وبدأت الاستعدادات لمواراته الثرى حسب المراسم العباسية في دفن الخلفاء سرّاً..

ولكن والدته أصرت على إعلان قبره ليكون أول خليفة عرف قبره^(٣٤٤).
وتم دفنه في الجوسق الخاقاني^(٣٤٥) حيث فتح عينيه على الدنيا فكان أول خليفة عباسي ولد في سامراء وتوفي فيها.

الفصل الخامس والأربعون

كشفت وفاة الخليفة المنتصر عن واقع الخلافة العباسية ومدى تغلغل الاتراك في أجهزة الحكم وسيطرتهم على البلاط العباسي الذي اضحى العوبة بين الضباط الاتراك.
لم يكن المنتصر قد دفن بعد حتى انفجر النزاع بين الاتراك الذين اجتمعوا في القصر الهاروني لاختيار الخليفة الجديد.

وفي يوم الأحد تم تحليف عشرات القادة الاتراك والزنوج وهم عماد الجيش والحرس بقبول الاتفاق الذي سيسفر عن اجتماع كل من بغا الكبير، بغا الصغير، ووصيف، أو تاشم، أحمد بن الخصيب، أما باقر الضابط التركي الذي قاد عملية اغتيال المتوكل فقد حرم من حضور الاجتماع فأجج ذلك في صدره مشاعر الحسد والحقد والكراهية خاصة لوصيف فانصرف إلى تعزيز نفوذه بين الاتراك، وتحريضهم على وصيف الذي لا يرى سوى مصالحه الخاصة والأنانية!

كانت فكرة بغا الكبير اختيار خليفة قوي يهابه جميع القادة لأن اختيار خليفة ضعيف سيؤدي تطاحن الاتراك فيما بينهم من أجل النفوذ والسيطرة والاستحواذ على مقاليد الحكم ولكن أحمد بن الخصيب اقنع الجميع بأن مبايعة أحد أبناء المتوكل يعني نهاية النفوذ التركي فقد يفكر أحدهم بالانتقام منهم ثاراً للخليفة المقتول..

وهكذا تم الاتفاق على اختيار أحمد بن محمد بن المعتصم.
فالمعتصم هو الذي أسس مجدهم وجعلهم سلاطين في هذه الدولة الكبرى، وهو ولي نعمتهم.

لم تكن للخليفة الجديد من ميزة سوى أنه العوبة بيد الاتراك، وفي مراسم عادية منح لقب «المستعين بالله» وحدثت حركة مضادة في سامراء يقودها بعض رجال العهد البائد

وترمي إلى فرض خلافة المعتز وتعرض موكب الخلافة إلى هجوم زمر من المرتزقة والغوغاء^(٣٤٦)، واستمرت الاشتباكات ثلاث ساعات وأعيد الخليفة إلى القصر الهاروني وخلال القلاقل سقط أحد قصور الخلافة في أيدي الناس فنهبت خزانة الدولة، وسطا الكثيرون على مشاجب السلاح وكسرت أبواب السجن الكبير.

ولكن الاتراك سيطروا على القلاقل باعلانهم عن توزيع المرتبات في مراسم البيعة العامة.

ولم تلبث قوات الجيش والحرس أن فرضت سيطرتها على الأوضاع.. ولكن الاجواء كان يسودها التوتر..

وظهر المستعين خليفة مغلوبا على أمره يحفه أحمد بن الخنصيص رئيس الوزراء ومجموعة من الضباط الاتراك في طليعتهم أوتامش، وصيف، وبغا الصغير في حين غيب باغر التركي الذي انطوى على احقاده وكراهيته للجميع منتظراً فرصة مواتية للانقضاض على خصومه واثقاً من تأييد قطاعات كبيرة من الجنود الاتراك بزعامه «باكيباك» القائد التركي الجريء.

قام الحكم الجديد بإجراءات احترازية منها القاء القبض على الاميرين المخلوعين المعتز والمؤيد فأودعا تحت الإقامة الجبرية في قصر الجوسق الخاقاني ووضعت عليهما حراسة مشددة، ثم ارغما على بيع جميع ممتلكاتهما من أرض زراعية وبساتين مقابل أثمان زهيدة.

أما أحمد بن الخنصيص فما انفك يحرّض على مضايقة الامام الهادي وتشديد المراقبة على منزله بل واجباره على التنازل عن داره وبيعها للدولة^(٣٤٧)!

وبعث أحمد بن الخنصيص في تلك الفترة رسالة إلى محمد بن فرج يطلب منه الحضور إلى سامراء والافادة من خدماته، كان محمد بن فرج قد اطلق سراحه، من السجن ولكنه لم يسترد ممتلكاته التي جمّدت في عهد المتوكل منذ سنة ٤٣٢هـ.

وكتب محمد بن فرج بدوره رسالة إلى الامام الهادي يستشير به بقبول اقتراح رئيس الوزراء فجاءه الجواب:

- «أخرج، فإن فيه فرجك ان شاء الله»^(٣٤٨).

وعندما وصل محمد بن فرج سامراء حاول استرداد أملاكه المحجورة وعندما صدر القرار بإعادتها إليه كان قد توفي^(٣٤٩).

وسقط بغا الكبير في فراش المرض وذهب إليه المستعين لعيادته، ثم توفي في اليوم التالي وتحققت مخاوفه من وجود خليفة ضعيف، فقد استحال القادة الاثراك إلى ذئاب شرسة يأكل بعضها بعضاً..

حضر احمد بن الخصيب إلى منزل الامام الهادي وهدده إذا لم يتنازل عن الدار وتسليمها إليه..

وكان ابن الخصيب لا يجرؤ على ذلك في عهد المنتصر وفي حياة بغا الكبير الذي عرف عنه احترامه للعلويين منذ الرؤيا التي رآها قبل أكثر من ربع قرن^(٣٥٠).

وفي العهد الجديد بدأ العلويون بالفرار مرة أخرى.. وبدأ فصل جديد من مسلسل التشرد المريع.. وفي غمرة الاحداث غادر «علي بن محمد» وكان موظفاً في بلاط المنتصر.. غادر سامراء مولياً شطره صوب البحرين فالاحساء بالبصرة.. وليشعل بعد خمسة أعوام ثورة الزنوج في منطقة الأهوار جنوبي العراق^(٣٥١).

بلغ من نفوذ ابن الخصيب حداً جعله متغطرساً في تصرفاته ووصلت به الوقاحة إلى أن يتهدد الامام ويطلب منه تسليم منزله إليه..

كان ابن الخصيب ووفقاً لتقارير الجواسيس على اطلاع على حجم الأموال التي ترد منزل الامام خاصة في عهد المنتصر، وكان يعرف جيداً أن الامام يقوم بصرف الحقوق على الفقراء والمساكين الذين تضاعفت اعدادهم بسبب الفوضى وغياب الاستقرار والنهب.

كما أن انتشار الفكر الامامي بدأ يهدد مركز الحكم في العاصمة بعد أن أصبح الامام الشخصية التي تحظى بالاجلال واحترام الناس جميعاً.

قام رئيس الوزراء بزيارة رسمية إلى منزل الامام، الذي خرج لاستقباله فقال ابن الخصيب:

- سر جعلت فداك!

فأجابه الامام بكلمات تزخر بالرموز:

- «أنت المتقدم» (٣٥٢).

وبعد أن استقر به الجلوس، وأجال نظره في المنزل، تأججت أعماقه الخاوية بالاحقاد والأطماع ولم يتمالك نفسه أن قال:

- لا بدّ من إخلائها وتسليمها اليّ!

نظر الامام إليه بسكينة ووقار.. ان هذا المخلوق النافه يرى قدرته في، منصبه الخطير مستنداً إلى قدرة الاتراك غافلاً عن قدرة الله المطلقة.. قال الامام وقد تجلت أنوار الايمان في عينيه:

- لأقعدن لك من الله مقعداً لا تبقى لك معه باقية.

وشاء القدر أن يسدّد ضربته بغتة لم تمرّ سوى أربعة أيام فقط حتى أقيّل من منصبه إذ رأى القائد أوتامش أن يفرض نفسه رئيساً للوزراء معتمداً على قابليات كاتبه «شجاع بن القاسم» (٣٥٣).

أما احمد بن الخصيب فقد صودرت جميع ممتلكاته وممتلكات أولاده ونفي إلى جزيرة كريت (٣٥٤).

واصبح أوتامش الحاكم الفعلي للبلاد فيما عين «شاهك» الخادم مسؤولاً عاماً لإدارة شؤون القصر بما في ذلك الخزانة العامة للبلاد.

اسفرت شخصية أوتامش عن ذئب أغبر (٣٥٥) يفتك بكل من يقف في طريقه فهو وراء تعيين «شاهك» الخادم في مناصبه الجديدة التي تمكنه من الاستحواذ على خزانة الدولة..

ودخلت على شبكة النهب والدة المستعين، أما الخليفة فقد انهمك في الاستمتاع بلذائذه الرخيصة تاركاً تدبير الأمور للوزير الذي تكفل تربية ابن الخليفة والاستحواذ على مخصصاته المالية الضخمة..

ولم يقف وصيف وبغا مكتوفي الأيدي، فقاما بتحريض بعض قطعات الجيش من المتضررين، فحوصر الجوسق الخاقاني حيث يقيم أوتامش وكاتبه.

في البداية حاول رئيس الوزراء الفرار من القصر ولكنه اخفق، فاستجار بالخليفة الذي رفض ذلك.. حوَّصر القصر ثلاثة أيام ثم اقتحم في يوم السبت وعثر عليه مختبئاً في قبو وتم اعدامه مع كاتبه وصودرت جميع ممتلكاته^(٣٥٦).

وفي يوم الخميس الثالث من جمادى الأولى سنة ٢٤٩هـ ١٤ حزيران ٨٦٣م تحركت قطعات عسكرية من الزنوج المغاربة ورابطت عند الجسر ثم تفرقت في اليوم التالي.

وفي ١٦ تموز من الذي يصادف يوم الجمعة ٢٥ جمادى الأولى اشتعلت البروق في سماء مثقلة بغيوم مشحونة وهطلت الامطار بغزارة طوال اليوم؛ ثم سكنت الطبيعة بعد اصفرار الشمس قبيل الغروب^(٣٥٧).

وفي غمرة الفوضى والفساد اشتعلت ثورة علوية كبرى بقيادة يحيى بن عمر من ذرية زيد الشهيد بشعارها المتألق «الرضا من آل محمد» وكانت الكوفة مخزن الثوار على مدار الزمن مركز الثورة، وسرعان ما امتد لهيبها إلى بغداد بعد أن تعاطف أهل السنة مع الثائر العلوي الذي بدأ اصلاحاته باطلاق السجناء في الكوفة.

واصبحت الثورة أملاً بالخلاص من ليل العباسيين الطويل..

ولكن غياب الخبرة العسكرية وفنون الحرب النظامية قد حسم الصراع لصالح العباسيين بالرغم من الانتصارات الباهرة التي أحرزها الثوار.

وكان دخول رأس يحيى على رمح طويل مدينة سامراء يوم حداد عام^(٣٥٨) فيما عم الاستياء مدينة بغداد، وكانت الكوفة تغلي غضباً.

الفصل السادس والأربعون

تصدعت الجبهة التركية واستشرت حمى الاطماع والتآمر واستحال الضباط الاتراك إلى ذئاب يتربص أحدها بالآخر.

وفي الخفاء كان هناك صراع مرير يجري بين مساعدي الاتراك من اليهود والنصارى للحصول على المزيد من الأسلاب وظهر باغر كذب أغبر لا يتورع عن الفتك بكل من يقف في طريقه، وشاء القدر أن تصطدم المصالح والمنافع الشخصية بين «بغا الشرابي» و

«باغر» وكانت نقطة الاصطدام في الكوفة. فقد دسّ وكيل باغر اليهودي على ابن مارما النصراني وتآمر عليه فزجّه في السجن، وفرّ ابن مارما فيما بعد متجهاً صوب سامراء، وكان دليل بن يعقوب يعمل كاتباً لبغا فاستغلّ نفوذ بغا في منع باغر من الانتقام من ابن مارما. وكان باغر ضابطاً يعمل تحت امره بغا، ولكن الأخير كان يخشى باغر؛ ويحاول ارضاءه.

وبدأت الحوادث بالانفجار عندما جاء باغر سكران ليدخل على بغا وهو في الحمام وهو يتهدد «دليل بن يعقوب» بالقتل، قال بغا مدارياً الضابط الشرس:
- لو أردت أن تقتل ابني فارس ما منعتك فكيف امنعك من قتل دليل؟!
- إذن دعني اقتله!
- ان شؤون الخلافة بيده.. دعني أولاً أعين شخصاً آخر يقوم بعمله.
قال باغر بلغة تركية وهو يصّر على أسنانه:
- لا بدّ من قتله!

سكت بغا ولم يعلق على ما قاله باغر الذي انصرف وهو يترنح سكراناً أو عز بغا إلى كاتبه دليل إلا يغادر منزله فقد يتعرض للاغتيال، كما قام بتعيين شخص آخر ليوهم باغر بعزل دليل عن مسؤولياته.. وحاول أن يصلح العلاقات بين باغر ودليل.. ولكن باغر ما انفك يتهدد دليل بالقتل.

قرر باغر أن يكون له مقرّ في البلاط ويكون ضابطاً ثابتاً في قصر الخلافة، ووافق المستعين على مضض خشية من أن يقوم باغر باغتياله..

وتصاعدت حمى التآمر عندما طلب المستعين من وصيف ترقية باغر ليكون المسؤول عن ادارة شؤون البلاط وأن يكون له دور «ايتاخ» في عهد المعتصم.

وشعر دليل بالخطر فحرّض بغا على التدخل لأن السماح بذلك يعني نهاية «بغا».

وعلى وجه السرعة قام بغا بزيارة مفاجئة للقصر، وندّد بموقف وصيف الذي أبدا استعداداً للوقوف إلى جانب بغا، واتفق القائدان سراً على اغتيال «باغر» في أول فرصة.

انتشرت شائعات حول نية القصر بترقية باغر إلى رتبة أمير، وستضاف إلى قواته قطعات أخرى من الجيش.

ولكن باغر شعر بان هناك من يتآمر ضده في الظلام فاجتمع سرّاً بأنصاره وكان بعضهم قد اشترك في عملية اغتيال المتوكل فعاهدوه على الوفاء له، واستقر رأيهم على القيام بحركة انقلابية تسقط فيها رؤوس كثيرة في طليعتها رأس الخليفة ورأس وصيف وبغا ثم تعيين خليفة آخر من أولاد المعتصم أو الواثق يحكمون باسمه!

وتسرّبت الأخبار إلى المستعين عن طريق زوجة باغر المطلقة والتي باحت بذلك إلى المستعين!

وشعر الخليفة الضعيف بالرعب فاجتمع بالقائدين وصيف وبغا الذي وصلته الانباء عن طريق آخر.

واسفر الاجتماع عن تعيين موعد لاغتيال «باغر» في قصر «بغا» بسبب تردد باغر على القصر كجزء من واجبه كضابط ما يزال يخدم تحت إمرة «بغا»!

وسقط باغر في الفخ فاعتقل وسجن في الحمام.

وطارت الأخبار المثيرة إلى جنوده الذين هبوا لنجدته وحدثت الفوضى في سامراء بسبب عنف التحرك في الكرخ وحركة الجنود المتذمرين إلى الجانب الايمن من النهر.

وقام الجنود باحتلال ونهب بعض قصور الخلافة وحوصر قصر الجوسق الخاقاني.

ولتحطيم هيبة الجنود المشاغبين أمر وصيف بقتل باغر.

وكان المستعين قد لجأ إلى قصر وصيف المطل على الشاطئ.

وتضعضت معنويات الجنود الذين رأوا بأعينهم رأس باغر الضابط العملاق، لكنهم اصرّوا على المrapطة مطلقين صيحات بالتركية تتهدد الجميع.

قرّر وصيف وبغا اصطحاب الخليفة والهروب إلى بغداد فاستقلّوا «حرّاقة» راسية في النهر وانحدروا إلى بغداد.

سيطر الجنود الثائرون على سامراء، ونهبت بعض القصور وقطعوا كافة الاتصالات مع بغداد.

وظهر «بايكباك» و«كلباتكين» و«ارنايجور» قادة للحركة العسكرية الجديدة.

وعندما اطل عام ٢٥١هـ كان الوضع ينذر بوقوع كارثة، خاصة عندما حاول المستعين تعبئة قوات من الزنوج المغاربة ضد الاتراك المتمردين؛ أدرك القادة الاتراك في سامراء أن مصيرهم سيكون مجهولاً، ولذا قرروا ارسال وفد برئاسة القائد «بايكباك» لتقديم اعتذار للخليفة واقناعه بالعودة إلى العاصمة وكادت المفاوضات تسفر عن نتيجة مرضية ولكن «بايكباك» تلقى صفعة بسبب تعديه اصول اللياقة في مخاطبة مقام الخليفة، فعاد إلى سامراء وهو يضرر الانتقام من الجميع.

دخلت الاوضاع مأزقاً خطيراً باقدام الاتراك على رفع الاقامة الجبرية عن المعتز واعلانه خليفة بدل المستعين الذي أعلنوا عن خلعه!

وفي هذه الفترة العصبية ظهر رجال عهد المتوكل لتعزيز موقع المعتز الذي يمثل امتداداً لسياسة أبيه، وبدأت في سامراء تعبئة جيش كبير للزحف على بغداد التي بدأت هي الأخرى تستعد للمقاومة باقامة خطوط دفاعية واستحكامات كلّفت الخزنة مبالغ طائلة.

قام المعتز بمصادرة ممتلكات اقباء المستعين لتعزيز ميزانية الحرب، ووقف اليهود إلى جانبه بزعامه «الديزج» الذي عين قائداً للشرطة!

كما عين أحمد بن اسرائيل رئيساً للوزراء لادارة شؤون البلاط والخلافة واصبحت فكرة الزحف لاحتلال بغداد وشيكة التنفيذ.

الفصل السابع والاربعون

لجأ المستعين إلى قصر محمد بن عبدالله بن طاهر حاكم بغداد وشرق ايران واصبحت دفة الأمور في يد الحاكم الذي كان يعيش شكلاً من التردد بين مناصرة الخليفة الهارب أو الوقوف إلى جانب المعتز ابن المتوكل الذي تربط اسرته معه صداقة قديمة..

وعملياً كان ابن طاهر يقود حركة الدفاع فاتخذ إلى جانب بناء خطوط بغداد الدفاعية

اجراءات لعرقلة الزحف القادم من الشمال.

تم تدمير جميع القناطر على كل الانهر المحيطة ببغداد وفتح الانهار لاغراق الأراضي التي تقع في تقدم الاتراك إذا ما راموا الزحف من جهة «الانبار».

أما بغداد فقد باتت محصنة بسورها الكبير الذي امتد من «الشماسية» شمال بغداد إلى «سوق الثلاثاء» إلى دجلة ومنها إلى «بساتين زبيدة»، كما استكمل حفر الخنادق على امتداد السور الطويل واصبحت المجانيق الصغيرة والكبيرة جاهزة لاطلاق حممها الملتهبة، اضافة إلى عشرات العوارض المجهزة بمسامير طويلة.

وكان المنجنيق الذي يدعى بـ «الغضبان» رابضاً أمام باب كبيرة معلقة.

كما عبأ ابن طاهر عياري بغداد وهم عشرات الألوف ورصد لهم مكافآت ومرتببات مغرية اضافة إلى استخدام مئات المرتزقة.

وهكذا سيطرت أجواء الحرب على الحياة في بغداد وبدأ ارتفاع الاسعار في المواد الغذائية.

وفي مطلع «صفر» ٢٥١هـ زحفت قوات الاتراك بقيادة أبو أحمد بن المتوكل العامة فيما كان «كلباتكين» القائد الميداني الذي يصمم وينفذ خطط المعارك القادمة.

وخلال الزحف دمرت القرى الواقعة في الطريق واستولى الاتراك على جميع المحاصيل الزراعية.

وفي السابع من «صفر» نقل الجواسيس نبأ وصول القوّات الزاحفة المنطقة المتاخمة للشماسية في أطراف بغداد.

كما أفادت تقارير أخرى عن وجود خطة لاحتراق الاسواق في جانبي بغداد، فتمّ كشطها جميعاً.

وفي يوم الثلاثاء ١٠ صفر قام ابن طاهر القائد العام لقوات الدفاع عن بغداد بحركة لاستعراض قوّاته أمام الاتراك لارهابهم مصطحباً معه مجموعة من الفقهاء والقضاة لا يفادهم إلى أبي احمد والتفاوض معه حول تفادي وقوع الحرب مقابل اعلان «المعتز» ولياً

للعهد ولم تجد هذه الخطوة شيئاً، فيما قام الاتراك المرابطون قرب الشماسية باستفزات لتفجير الوضع ولكن ابن طاهر اصر على عدم الرد.

وتقدم بعض الفرسان الاتراك صوب الباب ووجهوا زخة من السهام اکتفى قائد الحامية بالرد عليها بقذيفة منجنیق قتلت أحدهم فانسحب الباقون.

وفي نفس اليوم وصلت تعزيزات من عدة مئات من المرتزقة بغداد للاشتراك في حرب الدفاع.

وصعد الاتراك في اليوم التالي الموقف بتكثيف هجماتهم على باب الشماسية وبات واضحاً أن المعارك الرئيسية سوف تشتعل في هذه المنطقة فارسلت تعزيزات اضافة مؤلفة من الفرسان والمشاة.

وفي أول اشتباك عنيف سقط عشرات الجرحى والقتلى في صفوف الفريقين.

وقامت كتائب من الاتراك بمحاولة لاقتحام بغداد من باب خراسان في الجانب الشرقي فاخفقوا.

ولم يحدث في نهر دجلة أي اشتباك يذكر.

وفي «قطر بل» تقدم الزوج بقيادة ربله المغربي الذي كان يقود قوات من «الفراغنة» أيضاً واتخذت القوات المتقدمة مواقعها قريباً من الدفاعات، وحدث تراشق عنيف بالسهام.

وقامت القوات المدافعة بغارة ليلية جريئة فاكسحت المناطق المحتلة ورمى الجنود الفارون انفسهم في دجلة لعبور النهر إلى معسكر أبي أحمد في الجانب الشرقي، ولكن «التيارات» المشحونة بالمقاتلين قطعت عليهم الطريق فتم أسرهم فيما غرق الباقون.

وقد أدى هذا النصر الساحق إلى أن يغير الاتراك الزاحفون خططهم وعندما

وصلت انباء هذه الهزيمة إلى سامراء انتعشت آمال الناس وحدثت حركة شعبية مضادة لخلافة المعتز (٣٥٩).

وكان سير المعارك والاشتباكات يسير لغير صالح الاتراك. وفي غمرة الحرب الاهلية وتدهور الاوضاع الاقتصادية اندلعت سلسلة من الثورات العلوية، في «اردبيل» و«الري»

وثورة في مكة وفي الكوفة وفي قزوين وزنجان.

تبادل المتحاربون النصر والهزيمة وكانت أمطار آذار تخفف من حدة الاشتباكات التي حصدت عشرات الأرواح من السكان. وظهر عبيد الله بن يحيى وزير المتوكل في بغداد بشكل محير وليلعب دوراً في تمزيق جبهة بغداد بعد أن اقنع ابن طاهر بالتخلي عن المستعين مؤكداً له أن الأخير يتآمر عليه بل أنه طلب من وصيف وبغا اغتياله والقضاء عليه.

وقد كان لهذه الخطوة اضافة إلى تدهور الاوضاع الاقتصادية وغلاء الاسعار وتذمر السكان من الحصار أثراً كبيراً في تحرط ابن طاهر وضغطه على المستعين للتنازل عن الخلافة وقد حصل ذلك بعد انشقاق بغا ولجؤه إلى المعتز.

وفي شهر ذي الحجة ٢٥١هـ شتاء عام ٨٦٦م وقع المستعين وثيقة التنازل مقابل ضمان سلامته وأفراد أسرته وسلم حلة الخلافة ليغادر بغداد منفياً إلى مدينة واسط العراقية.

وأطل عام ٢٥٢هـ فيما كانت رياح كانون الباردة تلفح الوجوه وعود الثورات تدوي في كل الآفاق، وبدا تمثال الفارس حائراً لا يدري أين يشير برمح الطويل^{(٣٦٠)؟}

وتصاعدت في هذه الفترة المتفجرة وتيرة الاغتيالات، التي تحدث لأقل الشكوك.

وظهرت «قبيحة» أم المعتز كذبة مجنونة تريد الانتقام من الجميع ولم يكن المعتز الذي ناهز التاسعة عشرة من عمره سوى أداة طيعة في يدها وأيدي القادة الاتراك الذين أثروا ثراء فاحشاً في الحرب الاهلية.

ولعب الجواسيس دوراً في انتشار الرعب، وانعدام الثقة.

وكانت أم المعتز تدير شخصياً شبكة مرعبة من الجواسيس وفي ضوء التقارير الصحيحة والكاذبة تسقط الرؤوس ويموت الناس في ظروف غامضة.

كان المعتز قد زج بأخويه في السجن «المؤيد» و «طلحة» الذي قاد الزحف على بغداد وحصل على لقب «الموفق».

استدعى المعتز «بغا الشرابي» حول معلومات تفيد بعزم الاتراك على اطلاق سراح المؤيد من السجن.. ولكن بغا الشرابي نفى ذلك بشدة مؤكداً ان الاتراك يكونون احترامهم

فقط لقائد الحملة على بغداد!

في مدينة «بلد» توفي أحد أبناء الامام الهادي في ظروف غامضة، وكان «محمد» الذي يبلغ من العمر إحدى وعشرين سنة قد غادر سامراء مفضلاً العودة إلى المدينة المنورة^(٣٦١).

وقد هزّت الحادثة الأسرة الطاهرة، فلقد كان ذلك الشاب النبيل محطّ الآمال^(٣٦٢)؛ خاصة الذين عرفوه وعرفوا اخلاقه الكريمة.

وسرعان ما توفي المؤيد في سجنه ورتّب محضر رسمي في أن الوفاة كانت طبيعية! كانت «قبيحة» تصرّ على تصفية «المستعين» المخلوع، فصدرت أوامر شخصية من المعتز إلى «أحمد بن طولون» حاكم «واسط» باغتياله الذي رفض ذلك، لكنه وافق فيما بعد على ترحيله إلى سامراء.

وفي «سامراء» تم تسليمه إلى «سعيد الحجاب».

ولم يمهله سعيد وقتاً فأهوى عليه بالسيف ليتدحرج رأسه قرب النهر.

كان المعتز يلعب الشطرنج عندما جاءوا إليه برأس ابن عمه فلم يلتفت إليه وقال وهو يشير إلى رف.

ضعوه هناك حتى انتهي من «الدست»^(٣٦٣).

واكتفى بنظرة عابرة ثم أشار إلى حرسه بأخذه.

وصدر «عفو رسمي» عن وصيف وبغا بعد مساع قام بها اسماعيل ابن «قبيحة» وشقيق المعتز وضغوط الاتراك^(٣٦٤).

وتم تنصيب اسماعيل ولياً للعهد^(٣٦٥).

كما توفي «زرافة» أحد المؤيدين لحركة المنتصر بعد نجاحها^(٣٦٦).

وبدا واضحاً أن هناك حرباً خفية للسيطرة على البلاط.

وارتفعت حمى الاغتيال وسيطر جوّ المؤامرات على سامراء.

وفي غمرة هذه الاجواء كان منزل الامام يخضع لمراقبة خانقة ومع ذلك فقد تدفق

الناس إلى منزله لتقديم التعازي في ولده الشاب محمد.

كان المنزل يغص بعشرات المعزين، وقد بدا «أبو الحسن» حزيناً وهو جالس على كرسي يتقبل العزاء.. وجهه الاسمر تغمره هيبه النبوات وجاء ابنه الحسن فوقف عن يمين والده..

التفت إليه الوالد بحنو قائلاً:

- يا بني أحدث الله شكراً فقد أحدث فيك أمراً^(٣٦٧).

قال الحسن بخشوع:

- الحمد لله رب العالمين.. ويا له أسال تمام نعمه لنا منك.. وإنا لله وإنا إليه راجعون^(٣٦٨).

وكان أبو هاشم يصغي إلى همسات البعض يتحدثون عن توقعاتهم في ان الشاب سيكون هو الإمام بعد رحيل والده.

واشتعلت في ذهن أبي هاشم قصة قديمة عندما توفي «اسماعيل» في زمن والده «الصادق» وظن بعض الشيعة أنه الامام بعد والده فانكروا امامة موسى الكاظم بل وانكروا حتى وفاة «اسماعيل» فظهرت فرقة «الاسماعيلية» منذ ذلك الوقت.. آه ما اشبه قصة الحسن مع أخيه محمد، قال الامام الهادي كما لو أنه قرأ ما يموج في قلب صاحبه:

- نعم يا أبا هاشم هو كما حدثتك نفسك وإن كره المبطلون..

وسكت لحظات نظر خلالها إلى ابنه الحسن عن يمينه ثم قال:

- أبو محمد ابني الخلف من بعدي.. عنده ما يحتاج إليه ومعه آلة الامامة والحمد لله رب العالمين.

واعتصم بصمت الانبياء ثم تتم لكأنه ينظر إلى الزمن القادم:

- كيف لكم بالخلف بعد الخلف؟!

تساءل أبو هاشم:

- ولم جعلني الله فداك؟!

قال الامام مبشراً:

- لأنكم لا ترون شخصه ولا يحلّ لكم ذكر اسمه.

- فكيف نذكره؟!

- قولوا: الحجة من آل محمد^(٣٦٩)!

الفصل الثامن والاربعون

البلاط الآن في أخريات عام ٢٥٢هـ تسير قدرة غامضة مؤلفة من أم المعتز زوجة المتوكل والمرأة الأكثر ثراءً في سامراء يعاونها الوزير النصراني ابن اسرائيل و غلام المتوكل النصراني وكان الشخص الوحيد الذي يرافق المتوكل واستطاع الفرار عشية اغتيال الضباط الاتراك للخليفة، وها هو الآن يصبح من ابرز الشخصيات في بلاط المعتز!

وكانت سياسة المعتز تصفية أعداء والده المتوكل ايا كانت اتجاهاتهم ولذا قام بترقية الضباط المغاربة ليكونوا عماد حرسه الخاص ويفرض بذلك سطوته فكان لوليد المغربي حصّة الأسد واصبح قائدا عسكرياً مرموقاً في تلك الفترة العاصفة.

واجتاحت بغداد وسامراء حملة اعتقالات واسعة طالت عشرات العلويين أو ممن تشم فيهم رائحة الولاء لأهل البيت وكان في طليعة من اعتقل أبو هاشم الجعفري بأوامر شخصية من المعتز بذريعة ان البلاط يفكر في ارساله إلى «طبرستان» للتفاوض^(٣٧٠) مع الثائر العلوي «الحسن بن زيد» وتهدة القلاقل هناك فنقل مخفوراً إلى سامراء في تلك الفترة.

وبدت خزانة الدولة بسبب الفوضى عاجزة عن سدّ نفقات الاتراك والمغاربة الذين قدرت ميزانيتهم بـ ٢٠٠/٠٠٠/٠٠٠ دينار سنوياً وهو ما يساوي ايراد الدولة في عامين^(٣٧١)!

ولذا توقف صرف المرتبات إلى بعض القطعات العسكرية التي تضم المغاربة والاتراك المنضوين تحت قيادة بايكباك الذي كان مستاءً من عودة وصيف وبغا وتسئمتها مواقع قيادية كبيرة.

وفي ٢٦ شوال اندلعت حركة عسكرية سادتها مظاهر الشغب وكانت تطالب بدفع

مرتبات اربعة أشهر.

وقد استدعت الاوضاع ان يتوجه «بغا الشرايبي» و «وصيف» و «سيما» بأنفسهم للسيطرة على الموقف..

وعد بغا المشاغبين بأنه سوف يفتح الخليفة شخصياً وغادر المكان فوراً فيما أقدم «وصيف» على خطوة حمقاء إذ قذفهم بحفنة من التراب صائحاً:

- خذوا تراباً بدل المال!

وقد فجرّت هذه الخطوة الموقف إذ هاجم بعضهم وصيفاً وسدّد له ضربتين وطعنه آخر بسكين ولكن أحد القادة المرافقين له انقذه ونقل إلى منزل قريب.

وشعر المشاغبون بالخطر عندما تأخر بغا في العودة ولذا هاجموا المنزل وانهالوا بالطبرزينات على وصيف حتى الموت ثم احتزوا رأسه، واندفع الغوغاء إلى نهب قصوره في سامراء وفي تلك اللحظات المصيرية ظهر ابنه «صالح» فقاد حركة جريئة وسيطر على الاوضاع بنجاح مما اضطر «الخليفة» إلى منحه جميع امتيازات والده.

وفي ذي القعدة أقدم صالح على خطبة ابنة بغا بعد أن وجد القائدان نفسيهما بحاجة إلى ترتيب جبهتهما ضد الخليفة وأنصاره من المغاربة والأتراك بقيادة بايكباك.

وهكذا سيطر جوّ محموم من التآمر والقى الرعب ضلاله الرهيبة وانعدمت الثقة بين الناس.. وكانت رائحة الشائعات تزكم الانوف.. وفي ذلك الزمن الرديء سمع الامام الهادي يقول:

- «إذا كان زمان العدل فيه أغلب من الجور، فحرام أن يُظنّ بأحد سوء حتى يُعلم ذلك منه، وإذا كان زمان الجور أغلب فيه من العدل، فليس لأحد أن يظنّ بأحد خيراً ما لم يعلم ذلك منه..» (٣٧٢).

كان قد مضى شطر من الليل عندما كان «كافور» الخادم يحوس ازقة سامراء متجهماً صوب منزل بشر بن سليمان النخاس الذي اكتسب سمعة طيبة في تجارة الرقيق، فهو يتاجر بشراء العبيد والجواري ولكن وفق مبادئ اخلاقية دقيقة ولا يتورط في صفقات يمكن أن تكون مشبوهة..

لقد تدنست تجارة الرقيق وغلب عليها الحرام.. الثورات والقلقل الداخلية وبطش وقسوة الحاكمين وعدم تورعهم من بيع السبايا المسلمات^(٣٧٣) جعل من تجارة الرقيق سوقاً دنسة.. ومع ذلك فلا يعدم المرء أن يعثر بين النخاسين من يترفع عن ارتكاب الحرام ويتاجر بالمسلمات اللاتي غارت القوآت الحكومية على منازلهن في المناطق المتوترة هنا وهناك.

مضى شطر من الليل ورياح كانون تجوس سامراء الأبواب موصدة وعواء ذئاب بعيد يتناهى خلال الريح الباردة سرعان ما يضيع بين سنابك حصان يمرق على عجل..
عندما جاء بشر لم يكن ليدرك بعد ماذا يريد الامام منه، ولكنه خمن أن الأمر يتعلق بالرقيق على كل حال.

اتخذ بشر النخاس مجلسه قبال الامام وراح يتأمل بخشوع الوجه الأسمر والعينين اللتين تكادان تحتصران العالم!

آه ما أنبل هذا الانسان.. انه لا يعرف رجلاً يعامل عبيده وجواريه هذه المعاملة لكأنهم أولاده وبناته.. أي قلب ينطوي عليه صدر هذا الرجل المبارك؟!

ان من يراه لن يصدق أنه لم يبلغ الأربعين بعد! ولكن الشيب اشتعل في رأسه فهو يبدو في الستين!

أية أهوال أحالت هذا الشاب إلى شيخ وهو لم يناهز الأربعين سنة؟!.. انه يحدث أخته الجالسة وراء الستر بصوت فيه عذوبة النايبع..

ابتسم الامام لضيفه وقال بود:

- يا مبشر: انك من ولد الأنصار.. وهذه الموالاة لم تزل فيكم يرثها خلف عن سلف، وانتم ثقاتنا أهل البيت.. واني مزكّيك ومشرفك بفضيلة تسبق بها سائر الشيعة.. بسرّ اطلعك عليه.. وانفذك في ابتياع أمة!

ونشر الامام في ضوء القنديل قرطاساً وراح يسطر بلغة رومية وحروف رومية رسالة.. ولصق الامام الرسالة وختمها.. ثم أخرج «شتقة»^(٣٧٤) صفراء فيها ٢٢٠ ديناراً وسلّمها إلى بشر النخاس قائلاً:

- خذها وتوجه إلى بغداد إلى معبر الصراة.. وانتظر قدوم زوارق السبايا فإذا برزن الجواري فستحرق بهن طوائف المبتاعين من وكلاء قواد بني العباس وشراذم من فتيان العراق، فإذا رأيت ذلك، فأشرف من البعد على المسمى عمر بن يزيد النخاس عامة نهارك.. إلى أن تبرز إلى المبتاعين جارية رومية ترتدي حريرتين صفيقتين تمتنع من السفور ولمس المعترض، والانقياد لمن يحاول لمسها ويشغل نظره بتأمل مكاشفها من وراء الستر الرقيق..

في الصباح الباكر كان بشر يتجه صوب شارع الخليج حيث ترسو السفن القادمة من بغداد أو التي تنتظر مسافرين يتجهون إليها..

رائحة المياه الغرينية تملأ صدره، وكانت الشمس قد اشرقت فوق ذرى النخيل على امتداد جبهة النهر..

لقى الملاح نظرة فرما يأتي مسافر آخر ولكن المرسى كان خالياً إلا من بعض صيادي السمك وانساب السفينة الشراعية يحملها التيار المائي برفق تساعده نسائم الصباح التي تهب من الشمال.. في الضحى اجتازت السفينة معبر «الشماسية» ولاحت بعض جذوع النخيل المحترقة في الحرب الاهلية قبل اكثر من عام، وما تزال آثار الحرب واضحة في الضفاف.. بقايا السور الطويل الذي صمد بوجه الاتراك، وبعض الدور المهدامة.

رست السفينة قرب نهر الصراة، وغادرها بشر متجهاً نحو المعبر واتخذ مكانه في مكان تغمره شمس الضحى الدافئة..

على مقربة من المعبر ينهض سوق الرقيق، وقد تشكل وفق متطلبات هذه التجارة.. دكة ينادي عليها النخاس ومكان تعرض فيه الفتيات من وراء ستر شفاف.. أما إذا كان الرقيق غلماناً فيقفون قرب النخاس..

وصلت الزوارق وترجلت منها فتيات يرتدين اشكالاً مختلفة من الثياب.. وبدأ سوق الرقيق يضح بالحركة والحياة..

وبدأ أحد النخاسين باطلاق أول نداءات هذه التجارة البشرية:

- حسناء تجيد الطهي وشيئاً من الغناء وتحفظ أخباراً مليحة..

قال رجل تبدو عليه الخبرة:

- وكم عمرها؟

- عشرون سنة.

- لتبرز حتى نراها.

صاح النحاس:

- خيزران!

نهضت فتاة عليها ملامح سكان أرمينيا.

حضر رجال آخرون يرتدون بزات رسمية تدلّ على أنهم موظفون في الدولة أو وكلاء لبني العباس.. كما تحلق بعض الشبان يمتعون النظر في وجوه الفتيات الجميلات.

وقف بشر قرب دكة عمر بن يزيد النحاس.. يراقب عن كثب ما يجري.. كان النحاس قد باع جاريتين حتى الآن وينادي على الثالثة وكانت هناك فتاة رابعة تختبئ وراءها وعندما بيعت الثالثة بقيت فتاة في الرابعة أو الخامسة عشر من عمرها.. نادى النحاس بغلظة:

- عمرها أربعة عشر سنة رومية تحسن العريية كادت الفتاة تذوب حياءً وهي تحاول الاختباء تحت ثيابها الفضفاضة.

صاح شاب:

- لكننا لا نرى شيئاً!!

وعلق آخر:

- نعم دعنا نراها أولاً:

أزاح النحاس الستر جانباً وأراد أن يمسك بردنها لكنها جذبتة وصاحت وبلسان رومي.

وأراد أحدهم أن يجذب نقابها فانكفأت إلى الوراء وقد اشتعل غضب الكرامة في عينيها.

قال رجل:

- كيف تريدنا ابتياعها هكذا؟!

انهال النخاس عليها بسوط كالأفعى فصرخت الفتاة بألم وحزن.. آه ما أسوأ أن يباع
الانسان ويشري في السوق كالحيوان؟!

هتف رجل تبدو عليها سيماء الصلاح:

- انني اشتريها بثلاثمائة دينار.. فقد زادني العفاف فيها رغبة.

قالت الفتاة بلغة عربية فيها لهجة رومية:

- لو برزت في زي سليمان بن داود وعلى مثل سرير ملكه ما بدت لي فيك رغبة..
فأشفق على مالك.

صاح النخاس:

- وماذا أفعل أنا؟ ولابد من بيعك؟

قالت الفتاة:

- ولم العجلة؟ انني لن اختار الا من يسكن إليه قلبي واطمنن إلى وفائه وأمانته.

وأراد النخاس أن يصفعها ولكنه تراجع في اللحظة الأخيرة..

انفض الناس وانصرفوا إلى غيره.. وفي هذه اللحظة تقدم بشر وحيّا النخاس بأدب
قائلاً:

- ان معي كتاباً ملصقاً لبعض الاشراف، كتبه بلغة رومية وخط رومي، ووصف فيه
كرمه ووفاءه ونبله وسخاءه، فناولها لتأمل منه أخلاق صاحبه، فإن مالت إليه
ورضيت فأنا وكيله في ابتياعها منك..

هزّ النخاس رأسه موافقاً وتقدم بشر إلى الفتاة التي كانت ترتدي زياً رومانياً اضفت
عليه حشمة النصراري حياءً وستراً..

فضت الفتاة الرسالة المختومة وراحت تتأمل كلماتها وقد تألق وجهها بالفرح..

وامتلأت عينها بالدموع قالت بصوت تهدج بعاطفة نبيلة:

- بعني من صاحب هذا الكتاب!

التفت النحاس إلى بشر:

- لن أرضى بأقل من ثلاثمئة دينار.

هتف بشر:

- هذا ثمن باهض!!

- لقد سمعت بنفسك الرجل الذي دفع هذا المبلغ.

- هذا صحيح ولكن أنا أيضاً يا صاحبي اعمل في الرقيق.. ان ثمنها مرتفع.

- لن ابيعها بأقل من ثلاثمئة.

هتفت الفتاة:

- سوف أقتل نفسي إذا امتنعت!

وقال بشر:

- ان معي هذه «الشتقة» وهي لصاحب الكتاب.

- كم فيها:

- مئتان وعشرون ديناراً.

- هاتها.

- على بركة الله.

وسجل الرجلان وثيقة البيع، وانصرف بشر إلى حجرة كان يأوي إليها كلما قدم إلى بغداد.. وكانت الفتاة تتبعه كحمل وديع وقد غمرتها سكينه المؤمنين..

في الحجرة ورثما يحين موعد العودة إلى سامراء، أخرجت الفتاة الرسالة لتقرأها مرة أخرى.. ولثمتها ثم وضعتها على عينيها واستنشقت نفساً طويلاً لكنها تريد أن تملأ صدرها

بشذى الكلمات..

ولم يتحمل بشر أكثر مما يرى!! هل هو حقيقة أم حلم كل ما يراه؟!!

ربما يستطيع أن يدرك تصرفات الامام فهو رجل مبارك آتاه الله الحكمة وورث علوم جده محمد ﷺ ولن ينسى أبداً كيف تنبأ بهلاك المتوكل ذلك الطاغية الأرعن.. تنبأ بسقوطه في وقت كان الناس يرهبون حتى اسمه.. ولكن ما يراه لا يجد له تفسيراً فتاة رومية تقبل كتاباً لا تعرف صاحبه!! قال بشر وقد اتسعت عيناه دهشة:

- أتلثمين كتاباً لا تعرفين صاحبه!!!

لاذت الفتاة بالصمت، ثم قالت:

- أعرف أنك أمين، وأن من أرسلك قد استودعك سرّاً لم يطلعه على أحد.. أعزني سمعك وفرغ لي قلبك، لاستودعك سرّاً لم اطلعه على أحد..

أنا «مليكا» بنت بنت يشوعا بن قيصر وأمي من ولد الحواريين تنتسب إلى وصي المسيح شمعون.. وراحت الأميرة الرومية تروي قصتها وقد اشتعلت المشاهد المثيرة في ذكراتها الغضة^(٣٧٥).

الفصل التاسع والأربعون

في المركب الشراعي بدأت المناظر تنساب إلى الورا والنخيل على امتداد جبهة النهر بدا كرموش حورية، وبالرغم من بقايا آثار الحرب الاهلية، إلا أن دجلة في ذلك الاصيل بدا موحياً يتسم بأمل.. و«نرجس» تلك الفتاة الطاهرة ما برحت مأخوذة بشمس الاصيل التي أثارت في ذكراتها الغضة مشاهد لا تنسى..

مشاهد سوف تبقى متألفة مدى العمر.. مشاهد حيية إلى روحها.. كم تعذبت طوال الشهور الماضية؟ لقد قاست الكثير.. كانت الغيوم تعبر سماء دجلة.. غيوم بيضاء ناصعة ظهرت بعد تلك الليلة المطيرة.. ذكرتها الغيوم بحلة العرس.. آه كم هو مقيت الزواج من انسان تافه.. ذلك الأمير الذي لا يعرف من الحياة سوى ظاهرها البراق.. ان ذكراتها تشتعل بالمشاهد المثيرة:

«كان القصر المهيب يجمع بالحركة وباحة القصر تشهد بناء عجيب.. منصة عالية حيث يجثم عرش مرصع من الجواهر واعمدة من خشب يحسبها المرء رخاماً، ومدرج خشبي أنيق تنهض على جانبيه الصلبان..

ووصل الأمير المغرور ليرتقي المدرج إلى حيث العرش..

أما هي فقد كانت تعيش مشاعر الفجعة.. سوف تقضي العمر إلى جانب انسان تافه أحمق..

في البداية رفضت، ولكن هناك تقاليد تحكم القصر.. الأميرات للأمرأ اتجهت إلى الكنيسة توسلت بالعدراء.. بكت..

هل هناك من طريق للخلاص؟ ماذا بوسعها أن تفعل؟ هل تحدث معجزة تنقذها من هذا الجحيم..

عندما وجدت نفسها في الطريق إلى المنصة وقد احتف عشرات الاساقفة والأمراء والجنود كانت قد استسلمت لقدرها.. وفي تلك اللحظات حدثت المعجزة.. اهتزت الأرض وتساقطت الأعمدة الخشبية وانهار العرش ومعه الامير المذعور الذي فقد وعيه..

حدث كل شيء في لحظات.. وعندما سكنت الأرض ظهرت على وجوه الاساقفة ملامح تشاؤم وعطلوا مراسم عقد القران.. مثل طائر حبيس عادت «مليكا» إلى مخدعها ورمت بعيداً حلة العرس وارتدت ثوباً أكثر حشمة ووقاراً، ثوباً يشبه مسوح السيدة العذراء وانطلقت صوب الكنيسة لتسجد أمام الصليب وتمثال مريم.. شكرت من كل قلبها الرب وصلت بخشوع وبكت فرحاً.. ودعت الرب أن تكون زوجة لانسان طاهر.. انسان لم يتدنس قلبه بوساوس الأرض!

- يا الهي هل هو حلم ما أراه أم يقظة؟! في باحة القصر هوت المنصة والعرش نهض عرش من نور.. السيد المسيح جالس على العرش ويدخل رجل مهيب.. رجل يرتدي ثياباً عربية شعره يشبه تموجات بحيرة راقية.. سوافه تتلألأ.. وابتسامة تشرق وجهه المضيء.. وينهض السيد المسيح فيعانقه وادركت أنه «أحمد» الذي بشر به انجيل «برنابا»..

قال أحمد: يا روح الله جئتك خاطباً من وصيك شمعون فتاته مليكا لابني هذا!

وأوماً إلى فتى أسمر.. عيناه نجلان وتألقتان بالصفاء لكأنهما نافذتان تطلآن على عالم من نور..

شمعون يتسم، والحواريون..

عندما انتهت وجدت نفسها بين أيدي الراهبان وكان جبينها يلتهب من الحمى..

آه أنها لا تستطيع أن تبوح لأحد بما رآته.. عزفت روحها عن الطعام.. نحل جسمها.. وكانت روحها تشتد سطوعاً وعجز الطب عن فعل شيء..

وجاء جدّها فجلس عند الأميرة التي ما تزال تحبو كشمعة في نهايات ليل طويل قال لها بخنّ: هل تشتهين شيئاً قالت الفتاة: يا جدّي أرى أبواب الفرج علي مغلقة.. فلو كشفت العذاب عن أسرى المسلمين.. وفككت عنهم الأغلال.. لرجوت أن يهب المسيح وأمه لي الشفاء.

قال الجدّ، وقد تمثلت في ذكراته محنة الأسرى يوم أعدم منهم اثنا عشر ألف أسير بأوامر من تيدورا:

- أعدك بذلك يا عزيزتي!

شاعت البهجة في قلب مليكا.. وتماسكت لتتناول قدراً يسيراً من الطعام..

مرت ثلاث ليال ومليكا اعماقها تضطرم تحت تأثير الرؤيا.. ما تزال صورة الفتى العربي الاسمر تتألق في ذكراتها.. لكأنها رآته حقيقة لا في عالم الخيال.. والاحلام.

قيل الغروب وقد غابت الشمس خلف ذرى الاشجار ظهرت العذراء مريم.. لم تكن وحدها كانت معها سيّدة وجهها يزهو نوراً على رأسها اكليل من اثني عشر كوكباً، وقد اشرفت فوق رأسها شمس بهية وقمر منير^(٣٧٦) تحفها حوريات الجنة قالت مريم: هذه سيّدة نساء العالمين.. فاطيما.. أم زوجك.. مليكا تهبّ ترمي بنفسها في احضان السيّدة الكريمة.. آه أنه لا يزورني.

قالت السيّدة: لأنك لم تدخلني دينه..

- وماذا أفعل يا سيّدة النساء؟

تشهدين بأن الله واحد لا له إلا هو وتصدقين رسالة أحمد الذي بشر به المسيح.

عندما استيقظت من النوم كان اسم أحمد على شفثيها..

جففت حبات عرق انبجست فوق جبينها الملتهب.. ما تزال مليكا محموعة.. تستغرقها
الرؤيا العجيبة لقد تعلمت العربية منذ صباها.. منذ أن شهدت مذبحه الأسرى المسلمين
الذين رفضوا اعتناق النصرانية واختاروا الموت^(٣٧٧).

لقد اتقنت العربية لكنها لم تتحدث بها إلى أحد.. الرؤيا العجيبة.. تحير ذهنها.. تجعل
قلبها فارغاً، والوجه الأسمر.. ذلك الفتى العربي من أين جاء؟! وهل ستلتقيه في عالم
الحقيقة؟ أم سيقى كل شيء رهن الخيال؟!

السفينة تشق أمواج دجلة صوب الشمال، وتيار الذكريات المشتعلة كبروق سماوية ما
يزال يستغرق وعي مليكا التي اختارت اسماً جديداً تختبئ وراءه قصتها العجيبة..

في كل ليلة كانت ترى ذلك الفتى الأسمر صدقت أنها زوجته وكانت روحها الظامئة
تشتاق إلى رؤيته..

عيناه الواسعتان تحتصران العالم..

عندما سمعت ذات يوم أن القصر يفكر بارسال جيش ومهاجمة ديار الإسلام تحفزت
كل خلية في كيانها، أن روحها تضطرم.. سوف تلتحق بالجيش بحجة التمريض وتنضم إلى
الوصائف اللائي يقمن بهذه الخدمة..

لم تضع وقتها.. لكنها مستسلمة لقدر عجيب.. شيء لا يمكن وقوعه إلا في عالم
الخيال أو عالم آخر مجهول!

تكررت في زي الخدم.. وغادرت القصر لتختفي إلى الأبد.. سوف يبحثون عنها.. في
كل مكان دون جدوى سوف يبقى سرها مكنوناً وقد تستحيل إلى قديسة في المستقبل!

قدرها أن ترافق طلائع الجيش الرومي^(٣٧٨) ثم يفعل الله بعد ذلك ما يشاء..

وعلى الحدود وقعت اشتباكات محدودة هزمت فيها طلائع الروم ووقعت مليكا في أسر
المسلمين فكانت في سهم شيخ مسلم سألها عن اسمها فقالت على الفور:

- نرجس.

قال الشيخ:

- اسم الجواري.

وعندما وصلت بغداد طالعتها عن بعد تمثال الفارس الذي يتربع فوق قبة قصر الذهب في قلب بغداد.. بيده رمح طويل يشير به إلى جهة الشرق..

مليكا في بغداد جارية في سوق الرقيق.. سرها مكنون كلؤلؤة في صدفة في اعماق بحيرة تغفو بسلام.. حكايتها حكاية عجيبة أغرب من الاساطير..

كم انتابها الهواجس طوال الأيام الماضية كيف تستلم للرؤيا وهل يسلم المرء نفسه للأحلام؟ ولكن تلك الرؤيا ليست اضغاث أحلام.. إنها اكثر اشراقاً من كثير من الوقائع لقد استغرقت شعورها وسيطرت على مشاعرها.

ووجدت نفسها تسير نحو قدر ينتظرها في مكان ما وفي لحظة ما.. ولكن عندما وقعت عيناها على الرسالة المكتوبة بلغتها أدركت أن القدر قد اختارها، ورسم مصيرها وما عليها سوى التسليم..

وعادت مليكا إلى نفسها عندما اقتربت السفينة من مشارف «سامراء» من بعيد طالعتها ذلك البناء الحلزوني وحدثت في نفسها أنه منارة مسجد كبير.

رست السفينة مرسى «الخليج» وانتقل المسافرون إلى الشاطئ حيث المدرجات التي تؤدي إلى شارع الخليج..

الفصل الخمسون

التوتر يسود سامراء، وقد بدا واضحاً أن الطغمة التي كانت متنفذة في زمن المتوكل قد عادت إلى الحكم كأشرس ما تكون كما أن تعيين ابن أبي الشوارب رئيساً لسلطة القضاء^(٣٧٩) قد جاء ليعكس سياسة الدولة ازاء العلويين فابن أبي الشوارب معروف بولائه الاموي!

وفي هذه الفترة تم القاء القبض على كثير من العلويين كما اخمدت ثوراتهم بقسوة ووحشية ورحل كثير من زعاماتهم إلى سامراء لوضعهم تحت رقابة مشددة أو توقيفهم^(٣٨٠) وكان منزل الامام الهادي يخضع هو الآخر للرقابة حتى أن بعض وكلائه يتظاهرون بحرف وأعمال تغطية لدورهم في تعزيز الاتصال بين الامام وقواعده الشعبية^(٣٨١).

وكان لكثرة الاضطرابات والقلق في أنحاء الدولة وفساد الطغمة الحاكمة ونهبها لأموال الأمة قد جعل من سامراء على فوهة بركان سرعان ما يثور ويحيل كل شيء إلى خرائب وحمامات دم..

وكان الصراع بين القادة الاتراك على أشده، وبدا بغا الشرابي يحاول المستحيل لاقناع المعتز بالرحيل إلى بغداد لكن دون جدوى^(٣٨٢) فانصرف إلى التنسيق مع صالح بن وصيف للقيام بحركة عسكرية والاطاحة بالمعتز^(٣٨٣) والقضاء على قوات الحرس من المغاربة.

وقبيل الغروب وصل بشر النخاس «درب الحصا» حيث يوجد منزل الامام وكانت الجارية الرومية تتبعه وعيناها تشرقان بالأمل.

احتفى الامام الهادي بالفتاة التي وصلت على قدر.. كان المنزل تغمره سكينه الغروب الحسن قد أوى إلى السرداب كعادته يعبد الله، وجعفر^(٣٨٤) لم يعد إلى المنزل بعد.. التفت الامام إلى كافور قائلاً:

- أدع لي اختي حكيمة.

كانت حكيمة قد تحدثت مع شقيقها حول زواج الحسن الذي جاوز العشرين ولم يتخذ زوجة له، ولاسباب مستورة بحجب الغيب في المديات البعيدة فضل الامام الهادي أن يقرن ابنه بفتاة تتحمل هموم المصير.. تنجب له الصبي الموعود الذي بشرت به الرسالات ويحقق أحلام الانبياء يعيد للحياة الانسانية كرامتها وللأرض خضرتها والربيع..

وصبي كهذا ينبغي أن تكون والدته سيّدة لا يعرفها أحد قادمة من صقع بعيد.. فيها خصال من «يوكابد» أم موسى ومن مريم ابنة عمران.. لأن الوليد سيحمل غضب موسى، ومعجزات المسيح عيسى بن مريم..

من أجل هذا اختار القدر الالهي «مليكا» لتشد الرحال وتخوض الاهوال لتصل على

قدر منزلاً في درب الحصار.. هاهي جالسة في حضرة الرجل الذي بلغ الأربعين من عمره وقد اشتعل رأسه شيباً.. لشدماً يشبه فتى الاحلام^(٣٨٥).

وصلت حكيمة متلهفة لرؤية الفتاة وعندما سمعت شقيقها يقول مشيراً إليها:
- هاهي!

حتى هبت لاعتناقها آه أنها فتاة كاملة..

انحنى مليكاً وقبلت يد السيدة المباركة..

وطوال الوقت كانت حكيمة لا تنفك تنظر إلى الفتاة.. ذات الوجه المضيء وقد تورّد الحياء فوق وجنتيها..

قال الامام مخاطباً الفتاة:

- كيف أراك الله عزّ الإسلام وذلّ النصرانية؟^(٣٨٦)

قالت الفتاة بأدب:

- كيف أصف لك يا بن رسول الله ما أنت أعلم به مني.

قال الامام وهو يغمرها بخنانه:

- أريد أن اكرمك.. فأیما احبّ اليك: عشرة آلاف درهم؟ أم بشرى لك بشرف الأبد؟

- بل البشرى يا سيدي!

قال الامام وهو يبشر بميلاد الطفل الموعود:

- فابشري بولد يملك الدنيا شرقاً وغرباً.. ويملا الأرض قسطاً وعدلاً كما ملئت ظلماً وجوراً.

قالت الفتاة وقد غمرتها روح مهيمنة:

- ممن؟

- قال الامام بلغة رومية:

- ممن خطبك رسول الله له.

توهجت في أعماقها مشاهد ذلك اليوم عندما انهارت الصلبان والاعمدة.. ويوم رأت المسيح يعانق النبي العربي.. وليلة رأت مريم ومعها سيدة متسرلة بالشمس والقمر، وعلى رأسها اكليل مرصع بكواكب درية..

لاذت بالصمت وبدت في جلستها الهادئة حورية قادمة من جنة ما..

قال الامام مخاطباً اخته:

- يا بنت رسول الله خذيها إلى منزلك.. وعلميها الفرائض والسنن.

كانت الغيوم تحجب الشمس ولكنها ما تزال تبعث بدفئها ونورها الشفاف يغمر الأرض..

ونفضت حكيمة مصطحبة معها الفتاة الكريمة التي ستدعى بعدة اسماء.. فهي «ريحانة» و«سوسن» و«نرجس» وحديثة.. اما اسمها الحقيقي «مليكا» فسيبقى مستوراً مع جذورها وسرها المكنون..

إنها في الظاهر جارية لا فرق بينها وبين «ماريا» و«نسيم»^(٣٨٧) ولكنها في الحقيقة «سيدة الاماء»^(٣٨٨).

وانتقلت مليكا إلى منزل امرأة صالحة هي ابنة إمام واخت إمام وعمّة إمام وسيقدّر لها ذات يوم أن تشهد ميلاد المعجزة.

وتدور الأيام.. وسامراء غارقة في المؤامرات وقد استيقظ الشيطان.. ذرّ قرنيه وراح يعربد في كل مكان..

وفيما كانت الاشياء تهتز بعنف تحت سنابك خيل الاتراك كانت هناك نقطة مغمورة بالسلام..

في منزل هادئ بدرب الحصا..

هناك انسان ينظر إلى الافق البعيدة إلى قوافل قادمة من المستقبل.. من أجل هذا راح يبشر بإطلالة الفجر الخالد.. سيولد الطفل.. سيولد الفارس الأخضر سيولد الذي ينقذ

الانسانية المعذبة..

سيولد بشارة الرسائل القديمة.. ومن يصلي خلفه عيسى بن مريم.. سيولد الذي يصارع التنين^(٣٨٩)..

سيولد بشارة الرسول والكوكب الدرّي^(٣٩٠).. والذي بشرّ بميلاده علي صوت العدالة والانسانية وحفيد علي الهادي الذي بدأ يخطط لبزوغ الأمل الاخير والشمس المستورة وراء حجب الغيوم..

الفصل الحادي والخمسون

مضت أربعة فصول وأطل عام ٢٥٤هـ وأطل معه عام ميلادي جديد بعد ليلة خريفية طويلة^(٣٩١)..

رياح كانون الثاني تجمد السواقي وتحيل بساتين الرمان وعرائش الكروم إلى أعواد يابسة..

كل شيء ينذر بوقوع حوادث مثيرة.. كان المعتز ومن ورائه والدته يقود حملة رهيبة لتصفية جميع خصومه ومناوئيه وارتفعت حمى التآمر.. قام أولاً بأبعاد أخيه طلحة قائد الحملة على بغداد.. ثم غير منفاه من البصرة إلى بغداد.. وقد يعيده إلى سامراء ليضعه تحت مراقبة صارمة..

بايكباك ما يزال في مخبئه في مكان ما في كرخ سامراء.. المعتز يحاول الاجتماع به لتوجيه ضربة إلى بغا الشرابي وصالح بن وصيف بعد أن ثبت أنهما يتآمران للاطاحة به وانتخاب خليفة آخر يخضع لنفوذهما..

افادت تقارير الجواسيس بان صالح بن وصيف وبغا الشرابي مشغولين بحفلة زفاف ابنة الشرابي إلى صالح^(٣٩٢)..

انتهاز المعتز الفرصة، وعبر إلى الكرخ مع أركان حكومته وفصائل من قوات الحرس الخاص..

ووصلت الانباء بغا الشرايبي فغادر سامراء مع خمسمئة من جنوده إلى تل عكبراء ونصبت له خيمة على شاطئ دجلة فيما ظل جنوده في العراء تلفحهم رياح شتائية قارسة البرد.

وفي الاثناء كان المعتز قد وصل قصر الجوسق مع قطعات عسكرية بقيادة بايكباك لحراسة القصر الخليفة من هجوم محتمل..

لم تكن الأمور تسير في صالح بغا الشرايبي الذي تناهت إليه شكوى جنوده من البرد وانفراده في خيمة يتدفأ بها.. وما لبث أن جاء «ساتكين» الضابط التركي ينقل إليه شكوى الجنود من وجودهم في العراء بلا طائل.. فكر بغا في التسلل واللجوء إلى منزل صالح بن وصيف فقال:

- دعني الليلة.. يجب أن افكر في الأمر..

وعندما انتصف الليل.. تسلل بغا دون سلاح مصطحباً خادميه فاستقل زورقاً انخر به إلى المدينة..

و شاء القدر أن يكتشف حرس الجسر، الزورق الذي اقترب من الشاطئ..

وهناك تم توقيفه فاضطر إلى الاعلان عن هويته فقال قائد الدورية وهو زنجي:

- ان لدينا أوامر بمنع التجول في هذه الساعة من الليل.

قال بغا:

- اما أن تذهب إلى منزل صالح بن وصيف.. أو تذهب إلى منزلي.

ووعده بمكافأة.. ولكن و«ليد المغربي» اصدر أمراً بتوقيفه وغادر المكان على وجه السرعة متجهاً إلى القصر.. وسرعان ما اجتمع بالخليفة الذي كان ينام بسلاحه تحسباً من هجوم الاتراك.

هتف المعتز وهو يسمع الخبر المثير:

- ويلك جئني برأسه!

وفي بستان على الشاطيء تم قتل بغا الشرايبي، وصلب رأسه فوق الجسر، واحرقت جثته.. وطورد ابناؤه في بغداد وزج باصدقائه في سجن المطبق وفي زرنانات «قصر الذهب» وصودرت جميع أموالهم، واحتفل البلاط بهذه المناسبة ومنح القاتل جائزة كبرى^(٣٩٣) وبدأ ان المعتز سوف ييسط سيطرته على الوضع في البلاد لولا القلاقل في ايران فتورة «الحسن بن زيد» ما تزال يستمر أوراها في غابات ايران، ثم ظهر «يعقوب الصفار» في اقليم «سجستان»^(٣٩٤) ليزحف باتجاه كرمان^(٣٩٥).

وكانت هواجس المعتز تتضاعف ازاء العلويين، ففي مصر ثورة كبيرة يقودها ابراهيم بن محمد بن يحيى المعروف بابن الصوفي.. وفي شمال ايران ثورة اخطر من تلك، وانعكست هواجسه على سياسته تجاه العلويين في بغداد والكوفة وسامراء.. في بغداد احتجز كثيرون وسجن بعضهم ورحل آخرون إلى سامراء ليلقوا في زرنانات خاصة في قصور الخلافة، وفي الكوفة كانت السياسة اشد بطشاً واشد تنكياً اتخذت شكل الحصار الاقتصادي وافقار العلويين حتى الموت، أو الاغتيال^(٣٩٦).

وكان المعتز يبحث عن ذريعة لتصفية الامام الهادي الذي اضطر إلى ملازمة منزله، وامتناعه عن لقاء الناس، وكان يقضي معظم وقته في السرداب حيث تترق السكينة في جنبات ذلك المكان الهادي تحت الأرض؛ مفضلاً الاتصال بالناس عبر وكلائه خاصة عثمان بن سعيد العمري الذي حظي بثقة مطلقة، واشتهر بتجارة الزيت إمعاناً في تغطية دوره البالغ الحساسية^(٣٩٧) وقد حاز من الثقة ما جعل تصريحاته تمثل مواقف الامام وتصريحاته.

وتأزمت الأوضاع بشكل ينذر بالخطر بعد الهجوم الوحشي الذي تعرضت له مدينة «قم»^(٣٩٨) ومقتل عشرات الأبرياء من سكانها بحجة تأييدهم لثورة الحسن بن زيد الطالب...

وفي ذلك الجو المشحون بالخطر قام بعض صنائع الحكم بدس السم بطريقة ما إلى الامام^(٣٩٩).. ولزم الامام الفراش بعد أن ظهرت عليه أعراض مرض ما.. وتدهورت صحة الامام بشكل مفاجئ في جمادى الآخرة ٢٥٤هـ حزيران سنة ٨٦٨م.

وزاره الطبيب ابن طيفور فنصح به باجتناب شرب الماء ولكن الامام فند رأيه قائلاً:

- وما بأس بالماء، وهو يدير الطعام في المعدة، ويسكن الغضب ويزيد في اللبّ ويطفىئ المرار^(٤٠٠).

وعاده في مرضه ابو دعامه اسماعيل بن علي أحد قضاة العامة.

وعندما نهض لينصرف خاطبه الامام بود:

- يا أبا دعامه قد وجب عليّ حقك.. ألا احديثك بحديث تسرّ به؟

قال الرجل بأدب جم:

- ما أحوجني إلى ذلك يا بن رسول الله!

قال الامام وهو يضيء في قلبه قنديلاً من الكلمات المقدسة:

- حدثني أبي محمد بن علي، قال: حدثني أبي علي بن موسى قال: حدثني أبي موسى

بن جعفر قال: حدثني أبي جعفر بن محمد قال: حدثني أبي علي بن الحسين قال:

حدثني أبي علي بن أبي طالب قال: قال لي رسول الله ﷺ: يا علي اكتب! فقلت:

ما اكتب؟ قال: اكتب: «بسم الله الرحمن الرحيم.. الايمان ما وقر في القلوب

وصدقته الأعمال، والإسلام ما جرى على اللسان وحلت به المناكحة».

واهتز وجدان الرجل لجمال الحديث وسلسلة سنده المضيئة فقال:

- يا بن رسول الله والله ما أدري أيهما احسن؟ الحديث أم الاسناد؟

قال الامام وهو يكشف عن سر الكنز الذي لا ينفد:

- إنها لصحيفة بخط علي بن أبي طالب، واملاء رسول الله ﷺ تتوارثها صاغر عن

كاب^(٤٠١)..

كان الحسن لا يكاد يفارق والده الذي تحسنت صحته قليلاً فطلب من ابنه أن يتفقد

عمته حكيمة ويقوم بزيارتها وينفذ الابن أمر والده، فكان على موعد مع القدر..

على مدى شهور كانت «مليكا» التي اصبح اسمها نرجس وفي بعض الاحيان كانت

تنادى بـ «سوسن» تمضي حياة طيبة في ظلال امرأة صالحة تعلمها شريعة الله وثقافة الإسلام

الطاهرة.. فكانت تنمو كما تنمو اللآلي المتألقة في احضان أصداف دافئة.

الفصل الثاني والخمسون

عندما وقعت عيناه عليها في منزل عمته تسمّر في مكانه، ينظر إليها، وهي أيضاً توهجت في ذاكرتها احلام مضيئة عن النبي العربي الاسمر بوجهه البهي.. ها هي تراه واقفاً أمامها ينظر إليها فتطرق حياءً فيما كان قلبها يخفق بحب طاهر نبيل.

قالت العمّة المباركة^(٤٠٢) لابن أخيها:

- لعلك هويتها!

قال الحسن عن نظرتة الهوى الهابط:

- لا يا عمّة.. ولكنّي اتعجّب.

قالت العمّة:

- ولم العجب؟!

قال الفتى الأسمر:

- لأن هذه الفتاة سوف تنجب ولداً كريماً على الله عز وجل.. يملأ الله به الأرض عدلاً وقسطاً كما ملئت ظلماً وجوراً.

قالت العمّة وهي تعرف أن ابن أخيها سيكون سيّداً:

- أفأرسلها اليك يا سيدي؟

قال الحسن بعد أن أطرق تأدباً:

- حتى يأذن لي أبي!

ابتهج قلب حكيمة فرحاً سوف تزف لابن أخيها فتاة طاهرة نبيلة وسيكون هذا الزواج المبارك سبباً في ظهور أمل الانسانية.. والانسان الذي سينقذ المعذبين والمقهورين والذي سيغسل الأرض من كل الشرور فيعمّ الخير والمحبة والسلام..

ما إن دخلت حكيمة على أخيها حتى بادرها قائلاً:

- يا حكيمة ابعتي نرجس إلى ابني أبي محمد.

قالت الاخت بسعادة:

- يا سيدي من أجل هذا قصدتك.. اردت أن استأذنك في ذلك:

قال الامام وقد تألقت عيناه فرحاً:

- يا مباركة.. ان الله تبارك وتعالى اراد أن يشركك في الأجر ويجعل لك في الخير نصيباً.

لم تضع حكيمة لحظة من الوقت إذ سرعان ما عادت أدراجها وقلبها يبتهج سعادة..
لقد أرادها الله أن تكون ممن يحقق أهداف السماء في مسيرة الجهاد الطويل..

وقامت حكيمة بتزيين العروس في حجرة انتخبته لتكون عشاً دافئاً لأسرة طاهرة..
اسرة سيكون لها مجد رفيع، وبدت نرجس بحلة العرس البيضاء حورية هبطت من العالم
العلوي لتقترن بفتى علوي هو فتى أحلامها الوردية..

كان فضاء المنزل يفوح بالعبير، ونسائم ندية تهب من شطآن دجلة وسماء حزيران
تزخر بالنجوم.. وقامت العمة لتقدم إلى ابن أخيها عروسه الطاهرة.. لتحقيق مشيئة الذي
يجمع القلوب الطاهرة..

ومرت أيام كان القمر يتضاءل فيها ليذوب في المحاق عندما انتكست صحة الامام
الهادي.. وخلال تلك المدة لم ينفك يعلن لكل من يزوره من اصحابه ومحبيه إمامة ابنه
الحسن ويشهرهم بان المهدي قد أطل زمانه.. انه الخلف بعد الخلف.. الذي لن يراه أحد إلا
من وفق الله.. وخلال ذلك سوف يتيه اتباعه كأغنام غاب راعيها.. ولكن الله لن يتركهم في
حيرتهم اذ ينهض رجال عميقو الايمان ينقذون «ضعاف عباد الله من شباك ابليس» (٤٠٣).

عاشت «مليكا» أسعد أيام حياتها في ظلال فتى كريم تضيء وجهه أنوار النبوات كان
يخاطبها بأسماء جميلة.. نرجس.. سوسن حديثة.. صقيل.. ريحانة.. اسماء ورود الربيع..
هل كان يبشر فصل جديد فصل الدفء والنور والربيع؟ من يدري هل كان يطلب منها أن
تكون ربيعاً للبرعم الطاهر الذي سيظهر من أكام الزمن؟ أه يا مليكا يا من جئت على قدر
لتلتي فتى ساقه القدر أيضاً إلى هذه البقعة من دنيا الله.. مدينة غارقة في الظلمات فاخترها
الله لتشهد ميلاد الكوكب الدرّي (٤٠٤).

وينتقل الحسن مع زوجته إلى منزل والده^(٤٠٥) الذي ابتهج برؤية وارثه مع تلك الفتاة التي انتخبها السماء لتلد الصبي المنتظر إنها سيّدة عظيمة جدرة بحمل الأمانة «وستحيط بها المخاطر»^(٤٠٦)..

وانتشر خبر تدهور حالة الامام الصحية في سامراء وبغداد والكوفة..

وبدأ العائدون يأتون من كل حذب وصوب، وخلال تلك المدة زارته شخصيات رفيعة مسؤولة في الدولة..

سأت حالة الامام الصحية وكان السم ينتشر في عروق الامام وبات جسده خائراً تماماً، وسادت حالة من الوجوم والترقب مدينة سامراء..

وأطل يوم الاثنين ٢٥ جمادى الآخرة حزيان وكان البلاط يتربّع أخبار الامام.. خاصة عصابة الأربعة «قبيحة» أم الخليفة، رئيس الوزراء ابن اسرائيل ووزير البلاط النصراني أبو نوح والوزير الحسن بن مخلّد الذي اعتنق الإسلام لسبب ما..

أما المعتز الذي بلغ من العمر ثلاثة وعشرين سنة فقد كان منصرفاً إلى لذائذه ويحاول المحافظة على عرشه بأي ثمن..

وضعت قوات الحرس على أهبة الاستعداد تحسباً للطوارئ واستدعي من بغداد طلحة بن المتوكل..

كان «درب الحصا» في ذلك الضحى غارقاً في حزن مريع، وباب منزل الامام مشرعاً، وقد تجمع عشرات الناس قرب الباب بعد أن ضاق المنزل بهم..

كان الخبر قد تسرّب إلى بعض اصدقاء الامام، ثم سرعان ما انتشر وقد تلقى أهالي المدينة الخبر بأسى ووجوم وبكى بعضهم.. بكى السلام الراحل.. والرجل المبارك الذي حلّ بين ظهرانيهم منذ عشرين سنة.. قضاه في خدمة الإسلام ومساعدة المنكوبين ونشر العلم الالهي..

كمنارة مسجد مضيء كان الامام.. روحانياً شفافاً في زمن تكاثفت فيه المادّة والطين.. زاهداً في زمن استعرت فيه حمى الحرص.. تغمره السكينة في قلب العاصفة.. عاصفة الشر..

أحبه الناس جميعاً الشيعي والسني.. المسلم والنصراني..

المنزل يغصّ بالجماهير وكان الشيعة أكثر الناس فجيعة.. الدموع تجري بصمت كسماء مثقلة بمطر خريف.. وهو اجس الحيرة تملأ القلوب عن الامام الذي سينهض بالأمانة.. والخوف يمنع الجميع عن السؤال، فهناك عيون زجاجية ميثوثة.. عيون جواسيس منحوتة من الصخر.. انوفهم كأنوف الكلاب.. وقلوبهم كتل من رصاص..

جثمان الامام مسجى وابنه الحسن يصلي، ومناحة في حجرة مجاورة ارتدت سامراء ثوب الحزن والحداد، فقد تعطلت الأسواق والمحال التجارية لقد رحل الرجل المبارك.

حضرت شخصيات رفيعة المستوى للمشاركة في العزاء وموكب التشيع وفي طليعتهم قائد الزحف على بغداد أبان الحرب الاهلية طلحة بن المتوكل الذي يعد من ابرز السياسيين العباسيين والذي أحضر من بغداد ليمثل الخليفة في تقديم التعازي..

استحال المنزل إلى سوق بسبب ضجة الاحاديث المتبادلة.. ومرّ وقت قصير عندما ظهر خادم بيده رقعة مطوية فنأدى على خادم آخر:

- يا رياش خذ هذه الرقعة وامض بها إلى دار أمير المؤمنين، وقل هذه رقعة الحسن بن علي..

وتطلّع الناس إلى الباب الذي اغلق تَوّاً.. وبعد لحظات فتح الباب ليظهر كافور الخادم ثم ظهر شاب في العشرين من عمره هيئته تنم عن فجيعة.. كان حاسراً مكشوف الرأس يرتدي رداءً ناصع البياض قد شق جزء منه تعبيراً عن المصاب الجلل وفقر البعض أفواههم.. انه يشبه الامام الراحل تماماً.. بل أنه هو.. لقد كان صورة طبق الاصل لعلي الهادي!!

اتجه الشاب إلى طلحة بن المتوكل الذي عرف باسم «الموفق».. ونهض الجميع وهباً «الموفق» لمعانقة الحسن الذي هتف قائلاً:

- مرحباً بابن العم^(٤٠٧)..

واتخذ أبو محمد الحسن مجلسه بين بابي الرواق.. وساد الصمت المنزل وكان الجميع مأخوذين بالوجه الاسمر الذي لا يخطئ في ملاحه وجه الأب الراحل^(٤٠٨).. ولم يعد يُسمع

أحد ينبس ببنت شفة إلا السعلة والعطسة^(٤٠٩).. وكان جعفر^(٤١٠) ينظر إلى أخيه نظرة فيها حسد وخرج النعش الطاهر للتشييع والصلاة عليه في المسجد الجامع..

وفيما كان النعش يخترق الرواق كحمامة شهيدة، ظهرت فتاة تهتف بفجيرة:

.. ماذا لقينا من يوم لاثنين.. قديماً وحديثاً^(٤١١)؟!

وشعر الامام بالأسى فقال لمن حوله:

.. ألا يوجد من يردّ هذه الجاهلة؟

وبادر بعضهم فردّ الفتاة إلى حجرة النساء، فيما غادر النعش المنزل تحمله أكف وسواعد وقلوب المؤمنين..

ضاق شارع «أبي أحمد» وهو أطول شوارع سامراء وأعرضها بالجماهير..

شمس حزيان تغمر باشعتها الموكب الطويل، وفقدت قوّات الشرطة السيطرة على الموقف بعد أن اندفعت الجماهير وكل يريد أن يمسّ بيده النعش الطاهر قبل أن يوارى الثرى.

اليوم هو يوم ٢٥ جمادى الآخرة من سنة ٢٥٤، وقد بلغ الازدحام في الشارع الطويل أوجه فتقرّر الصلاة على الجثمان في الشارع حتى يسع كثرة الناس، وشعر «الموفق» بالخطر فقد يتحوّل هذا الموكب الجرار إلى حركة مضادة للحكم القائم فأسرع في إنهاء مراسم الصلاة وحمل النعش مرة أخرى ليدفن في منزله حسبما ورد في الوصية..

انتهت مراسم الصلاة التي أجريت بسرعة وأثارت إستياء الناس الذين لم يجدوا الوقت الكافي في إجراء مراسم التشييع كما ينبغي.. وكان واضحاً أن هناك توجساً مما قد يؤدي إليه هذا التجمع الذي لم تشهده سامراء منذ تأسيسها وحتى الآن..

بلغ من شدة الزحام أن ضغط الناس الامام الحسن ودفعته الأمواج البشرية إلى جانب الطريق.. فصادف دكة مرشوشة بالمياه فاستأذن البقال في أن يجلس. وحياً البقال الامام بأدب وكان بعض الذين يمرّون يستوقفهم الوجه الاسمر لفتى تتألق في عينيه أنوار النبوات.. وتحلق بعض الناس حوله ينظرون إلى شاب قد ذرّف على العشرين وقد اشتعل الشيب في

ذقته أية فجیعة هدّت هذا الفتى؟ وأیة هموم یحملها وینوء یحملها؟! قلیلون جداً یدركون
محنة هذا الانسان الذي نهض بالامامة..

لم تمرّ سوى دقائق حتی جاء شاب بهي الوجه یقود بغلة شهباء فعرض علی الامام
الركوب.

وفي ظهيرة ذلك اليوم ووري الثرى رجل عاش في سامراء عشرين سنة امضاها عملاً
وجهاداً ومقاومة.. فكان مثلاً في كل شؤون الحياة.

عاش في زمن مرير.. زمن عاصف الاحداث لكنه حافظ علی استقامته وظل هو هو
ثابتاً كالجبل قوياً كالاعصار هادئاً كحمائم السلام طاهراً كقطرات الندى متألقاً كقمر بهي..

وعمّ الحزن مساحات شاسعة من الوطن الإسلامي المسلمون جميعاً بمختلف مذاهبهم
افتقدوه.. وفجعت شيعته برحيله حتی النصارى حزنوا من أجله لقد كان رجل مباركاً
عاش للناس جميعاً فحزنوا علیه جميعاً.

وبرحيله انتهى فصل تاريخي لیبدأ فصل جدید.. وتدور رحى الأيام..

ما وراء السطور

ملحقات وضمائم

ملحق رقم (١)

رسالة الامام الهادي في: «الجبر والتفويض»

«من علي بن محمد..»

سلام علیکم، وعلى من اتبع الهدى، ورحمة الله وبركاته.

فإنه وردَ عليّ کتابکم، وفهمتُ ما ذکرتم من اختلافکم في دينکم، وخوضکم في
القدر، ومقالة من یقول منکم بالجبر، ومن یقول التفويض، وتفرقکم في ذلك، وتقاطعکم،
وما ظهر من العداوة بینکم، ثم سألتُموني عنه، وبیانه لکم، وفهمت ذلك كله!

إعلموا - رحمکم الله - أننا نظرنا في الآثار، وكثرة ما جاءت به الأخبار، فوجدناها - عند
جميع من یتحلل الإسلام ممن یعقل عن الله (عز وجل) - لا تخلو من معینين:

إما حق فيتبع.

وإما باطل فيجتنب.

وقد اجتمعت الأمة قاطبة، لا اختلاف بينهم: أن القرآن حق لا ريب فيه عند جميع أهل الفرق، وفي حال اجتماعهم مقرون بتصديق الكتاب وتحقيقه، مصيرون، مهتدون، وذلك بقول رسول الله ﷺ: «لا تجتمع أمتي على ضلالة».

فأخبر أن جميع ما اجتمعت عليه الأمة كلها حق.

وهذا إذا لم يخالف بعضها [الأمة] بعضاً.

والقرآن حق، لا اختلاف بينهم في تنزيله وتصديقه، فإذا شهد القرآن بتصديق خبر وتحقيقه، وأنكر الخبر طائفة من الأمة الكتاب، فإن [هي] جحدت وأنكرت لزوماً الخروج من الملة [الإسلام].

فأول خبر - يُعرف تحقيقه من الكتاب وتصديقه، والتماس شهادته - خبر ورد عن رسول الله ﷺ ووجد بموافقة الكتاب وتصديقه، بحيث لا تخالفه أقاويلهم؛ حيث قال: «إني مخلف فيكم الثقلين: كتاب الله وعترتي - أهل بيتي - لن تضلوا ما إن تمسكتم بهما، وإنهما لن يفترقا حتى يردا علي الحوض».

فلما وجدنا شواهد هذا الحديث في كتاب الله نصاً مثل قوله (جل وعز): ﴿إِنَّمَا وَلِيُّكُمُ اللَّهُ وَرَسُولُهُ وَالَّذِينَ آمَنُوا الَّذِينَ يُقِيمُونَ الصَّلَاةَ وَيُؤْتُونَ الزَّكَاةَ وَهُمْ مُرَاكِعُونَ * وَمَنْ يَتَوَلَّ اللَّهَ وَرَسُولَهُ وَالَّذِينَ آمَنُوا فَإِنَّ حِزْبَ اللَّهِ هُمُ الْغَالِبُونَ﴾ (٤١٢) وروى العامة في ذلك أخباراً لأمر المؤمنين عليه السلام أنه تصدق بخاتمته وهو راع، فشكر الله ذلك له، وأنزل الآية فيه.

فوجدنا رسول الله ﷺ قد أتى بقوله: «من كنت مولاه فعلي مولاه» وبقوله: «أنت مني بمنزلة هارون من موسى إلا أنه لا نبي بعدي» ووجدناه يقول: «علي يقضي ديني، وينجز موعدي، وهو خيلفتي عليكم من بعدي».

فالخبر الأول الذي استنبطت منه هذه الأخبار خبر صحيح، مجمع عليه، لا اختلاف فيه عندهم، وهو أيضاً موافق للكتاب.

فلما شهد الكتاب بتصديق الخبر، وهذه الشواهد الآخر لزم على الأمة الإقرار بها، ضرورة إذ كانت هذه الأخبار شواهدا من القرآن ناطقة، ووافقت القرآن، والقرآن وافقها. ثم وردت حقائق الأخبار من رسول الله ﷺ عن الصادقين عليه السلام ونقلها قوم ثقات معروفون، فصار الإقتداء بهذه الأخبار فرضاً واجباً على كل مؤمن ومؤمنة، لا يتعداه إلا أهل العناد.

وذلك: إن أقوال آل رسول الله ﷺ متصلة بقول الله، وذلك مثل قوله - في محكم كتابه: - ﴿إِنَّ الَّذِينَ يُؤْذُونَ اللَّهَ وَرَسُولَهُ لَعَنَهُمُ اللَّهُ فِي الدُّنْيَا وَالْآخِرَةِ وَأَعَدَّ لَهُمْ عَذَابًا مُهِينًا﴾ (٤١٣).

ووجدنا نظير هذه الآية قول رسول الله ﷺ: «من آذى علياً فقد آذاني ومن آذاني فقد آذى الله، ومن آذى الله يوشك أن ينتقم منه».

وكذلك قوله ﷺ: «من أحب علياً فقد أحبني، ومن أحبني فقد أحب الله» ومثل قوله ﷺ - في بني وليعة - «لأبعثن إليهم رجلاً كنفسي، يحب الله ورسوله، ويحبه الله ورسوله، قم يا علي، فسر إليهم».

وقوله ﷺ - يوم خيبر: - «لأبعثن إليهم غداً رجلاً يحب الله ورسوله ويحبه الله ورسوله، كراماً غير فرار، لا يرجع حتى يفتح الله عليه».

فقضى رسول الله ﷺ بالفتح قبل التوجيه، فاستشرف لكلامه أصحاب رسول الله ﷺ فلما كان من الغد دعا علياً عليه السلام فبعثه إليهم، فاصطفاه بهذه المنقبة، وسماه كراماً غير فرار، فسماه الله محباً لله ولرسوله، فأخبر أن الله ورسوله يحبانه.

وإنما قدمنا هذا الشرح والبيان دليلاً على ما أردنا، وقوة لما نحن مبینوه من أمر الجبر والتفويض، والمنزلة بين المنزلتين، وبالله العون والقوة، وعليه نتوكل في جميع أمورنا.

فإننا بدأنا من ذلك بقول الصادق عليه السلام: «لا جبر ولا تفويض، ولكن منزلة بين المنزلتين، وهي صحة الخلقة، وتخلية السرب» (٤١٤) والمهلة في الوقت، والزاد مثل الراحلة، والسبب المهيج للفاعل على فعله».

فهذه خمسة أشياء جمع بها الصادق عليه السلام جوامع الفضل، فإذا نقص العبد منها خلة

كان العمل عنه مطروحاً بحسبه.

فأخبر الصادق عليه السلام بأصل ما يجب على الناس من طلب معرفته، ونطق الكتاب بتصديقه، فشهد بذلك محكمات آيات رسوله - لأن الرسول صلى الله عليه وآله لا يعدو شيء من قوله وأقاولهم حدود القرآن، فإذا وردت حقائق الأخبار والتُمست شواهدا من التنزيل، فوجد لها موافقاً، وعليها دليلاً كان الإقتداء بها فرضاً، لا يتعداه إلا أهل العناد كما ذكرنا في أول الكتاب.

ولما التمسنا تحقيق ما قاله الصادق عليه السلام من المنزلة بين المنزلتين وإنكاره الجبر والتفويض، وجدنا الكتاب قد شهد وصدق مقالته في هذا.

وخبر عنه أيضاً موافق لهذا: إن الصادق عليه السلام سئل: هل أجبر الله العباد على المعاصي؟ فقال الصادق عليه السلام: «هو أعدل من ذلك».

ف قيل له: فهل فوّض إليهم؟ فقال عليه السلام: «هو أعزّ وأقهر لهم من ذلك».

وروي عنه أنه قال: «الناس في القدر على ثلاثة أوجه:

رجل يزعم أن الأمر مفوّض إليه فقد وهن الله في سلطانه، فهو هالك.

ورجل يزعم أن الله (جلّ وعزّ) أجبر العباد على المعاصي، وكلفهم ما لا يطيقون، فقد ظلم الله في حكمه، فهو هالك.

ورجل يزعم أن الله كلف العباد ما يطيقون، ولم يكلفهم ما لا يطيقون، فإذا أحسن حمد الله، وإذا أساء استغفر الله، فهذا مسلم بالغ».

فأخبر عليه السلام أن من تقلّد الجبر والتفويض، ودان بهما فهو على خلاف الحق، فقد شرحت الجبر الذي من دان به يلزمه الخطأ، وأن يتقلّد التفويض يلزمه الباطل، فصارت المنزلة بين المنزلتين بينهما.

ثم قال عليه السلام: وأضرب لكل باب من هذه الأبواب مثلاً يقرب المعنى للطالب، ويسهل له البحث عن شرحه، تشهد به محكمات آيات الكتاب، وتحقق تصديقه عند ذوي الألباب، وبالله التوفيق والعصمة.

فأما الجبر الذي يلزم من دان به الخطأ فهو قول من زعم أن الله (جلّ وعزّ) أجبر العباد على المعاصي وعاقبهم عليها.

ومن قال بهذا القول فقد ظلم الله في حكمه، وكذّبه وردّ عليه قوله: ﴿وَلَا يَظْلِمُ مَرَاتٍ أَحَدًا﴾ وقوله: ﴿ذَلِكَ بِمَا قَدَّمْتِ يَدَاكَ وَأَنَّ اللَّهَ لَا يُسِيطِرُ ظَلَامًا لِلْعَبِيدِ﴾ وقوله: ﴿إِنَّ اللَّهَ لَا يَظْلِمُ النَّاسَ شَيْئًا وَلَكِنَّ النَّاسَ أَنْفُسُهُمْ يَظْلِمُونَ﴾ مع آي كثيرة في ذكر هذا.

فمن زعم أنه مجبر على المعاصي فقد أحال بذنبه على الله، وقد ظلمه في عقوبته ومن ظلم الله فقد كذب كتابه، ومن كذب كتابه فقد لزمه الكفر بإجماع الأمة.

ومثل ذلك: مثل رجل ملك عبداً مملوكاً بملك نفسه، ولا يملك عرضاً من عرض الدنيا، ويعلم مولاه ذلك منه، فأمره - على علم منه - بالمصير إلى السوق لحاجة يأتيه بها، ولم يملكه ثمن ما يأتيه به من حاجته، وعلم المالك أن على الحاجة رقيقاً لا يطمع أحداً أخذها منه إلا بما يرضى به من الثمن، وقد وصف مالك هذا العبد نفسه بالعدل والنصفة، وإظهار الحكمة، ونفي الجور، وأوعد عبده إن لم يأتيه بحاجته أن يعاقبه (على علم منه بالرقب الذي على حاجته أنه سيمنعه) وعلم أن المملوك لا يملك ثمنها، ولم يملكه ذلك.

فلما صار العبد إلى السوق، وجاء ليأخذ حاجته التي بعته المولى لها، وجد عليها مانعاً يمنع منه إلا بشراء وليس يملك العبد ثمنها فأنصرف إلى مولاه خائباً بغير قضاء حاجته، فاغتاظ مولاه من ذلك، وعاقبه عليه.

أليس يجب - في عدله وحكمه - أن لا يعاقبه وهو يعلم أن عبده لا يملك عرضاً من عروض الدنيا، ولم يملكه ثمن حاجته؟

فإن عاقبه، عاقبه ظالماً متعدداً عليه، مبطلاً لما وصف من عدله وحكمته، ونصفته، وإن لم يعاقبه كذب نفسه - في وعيده إيّاه، حين وعده - بالكذب والظلم والالذين ينفيان العدل والحكمة، تعالى عما يقولون علواً كبيراً.

فمن دان بالجبر، أو بما يدعو إلى الجبر فقد ظلم الله ونسبه إلى الجور والعدوان إذ أوجب على من أجبره العقوبة، ومن زعم أن الله أجبر العباد فقد أوجب - على قياس قوله -

ان الله يدفع عنهم العقوبة، ومن زعم أن الله يدفع. عن أهل المعاصي - العذاب فقد كذب الله في وعيده حيث يقول: ﴿بَلَى مَنْ كَسَبَ سَيِّئَةً وَأَحَاطَتْ بِهِ خَطِيئَتُهُ فَأُولَٰئِكَ أَصْحَابُ النَّارِ هُمْ فِيهَا خَالِدُونَ﴾.

وقوله: ﴿إِنَّ الَّذِينَ يَأْكُلُونَ أَمْوَالِ الْيَتَامَىٰ ظُلْمًا إِنَّمَا يَأْكُلُونَ فِي بُطُونِهِمْ نَارًا وَسَيَصْلَوْنَ سَعِيرًا﴾ وقوله: ﴿إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا بِآيَاتِنَا سَوْفَ نُصْلِيهِمْ نَارًا كُلَّمَا نَضِجَتْ جُلُودُهُمْ بَدَّلْنَاهُمْ جُلُودًا غَيْرَهَا لِيَذُوقُوا الْعَذَابَ إِنَّ اللَّهَ كَانَ عَزِيزًا حَكِيمًا﴾. مع أي كثير في هذا الفن ممن كذب وعيد الله، ويلزمه - في تكذيبه آية من كتاب الله - الكفر.

وهو ممن قال الله: ﴿أَفَتُؤْمِنُونَ بِبَعْضِ الْكِتَابِ وَتَكْفُرُونَ بِبَعْضٍ فَمَا جَزَاءُ مَنْ يَفْعَلُ ذَٰلِكَ مِنْكُمْ إِلَّا خِزْيٌ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَيَوْمَ الْقِيَامَةِ يُرَدُّونَ إِلَىٰ أَشَدِّ الْعَذَابِ وَمَا اللَّهُ بِغَافِلٍ عَمَّا تَعْمَلُونَ﴾.

بل نقول: إن الله (جل وعز) يجازي العباد على أعمالهم، ويعاقبهم على أفعالهم بالإستطاعة التي ملكهم إياها، فأمرهم ونهاهم بذلك، ونطق كتابه: ﴿مَنْ جَاءَ بِالْحَسَنَةِ فَلَهُ عَشْرُ أَمْثَلِهَا وَمَنْ جَاءَ بِالسَّيِّئَةِ فَلَا يُخْزَىٰ لَهَا مِثْلُهَا وَهُوَ لَا يُظْلَمُونَ﴾ وقال (جل ذكره): ﴿يَوْمَ تُجَدِّدُ كُلُّ نَفْسٍ مَّا عَمِلَتْ مِنْ خَيْرٍ مُّخَضَّرًا وَمَا عَمِلَتْ مِنْ سُوءٍ تَوَدُّ لَوْ أَنَّ بَيْنَهَا وَبَيْنَهُ أَمَدًا بَعِيدًا وَيُحَذِّرُكُمُ اللَّهُ نَفْسَهُ﴾ وقال: ﴿الْيَوْمَ تُجْزَىٰ كُلُّ نَفْسٍ بِمَا كَسَبَتْ لَا ظُلْمَ الْيَوْمَ﴾.

فهذه آيات محكمات تنفي الجبر ومن دان به، ومثلها في القرآن كثير اختصرنا ذلك لثلا يطول الكتاب، وبالله التوفيق.

وإلى هذا ذهب الأئمة المهتدية من عتره الرسول ﷺ فإنهم قالوا:

لو فوّض [الله] إليهم على جهة الإهمال لكان لازماً له رضى ما اختاروه، واستوجبوا منه الثواب، ولم يكن عليهم فيما جنّوه العقاب، إذا كان الإهمال واقعاً.

وتنصرف هذه المقالة على معنيين:

١- إما أن يكون العباد تظاهروا عليه، فألزموه قبول اختيارهم بأرائهم ضرورة كره ذلك أم أحب، فقد لزمه الوهن.

٢- أو يكون - جلّ وعزّ - عَجَزَ عن تَعَبْدِهِم بالأمر والنهي على إرادته، كرهوا أو أَحَبُّوا، ففَوَّضَ أمره ونهيه إليهم، وأجراهما على محبتهم، إذ عَجَزَ عن تَعَبْدِهِم بإرادته، فجعل الاختيار إليهم في الكفر والإيمان.

ومثّل ذلك: مثّل رجل مَلَكَ عبداً ابتاعه ليخدمه، ويعرف له فضل ولايته، ويقف عنده أمره ونهيه، وادّعى مالك العبد أنه قاهر عزيز حكيم، فأمر عبده ونهاه، ووَعَدَه على اتّباع أمره عظيم الثواب، وأوعده على معصيته أليم العقاب.

فخالفَ العبد إرادة مالِكه، ولم يقف عند أمره ونهيه، فأَيَّ أمرٍ أمره أو أي نهْيٍ نهاه عنه لم يأتِه على إرادة المولى، بل كان العبد يتبع إرادة نفسه، واتّباع هواه، ولا يطيق المولى أن يردّه إلى اتّباع أمره ونهيه، والوقوف على إرادته.

ففَوَّضَ اختيار أمره ونهيه إليه، ورضي منه بكل ما فعّله على إرادة العبد لا على إرادة المالك.

وبعّثه في بعض حوائجه، وسَمَّى له الحاجة، فخالف على مولاه، وقصد لإرادة نفسه، واتّبع هواه، فلما رجع [العبد] إلى مولاه نظر إلى ما أتاه به فإذا هو على خلاف ما أمر به، فقال له: لِمَ أَتَيْتَنِي بخلاف ما أَمَرْتُكَ؟

فقال العبد: أَتَكَلَّتُ على تفويضك الأمر إليّ، فَاتَّبَعْتُ هواي وإرادتي لأن المفوَّض إليه غير محظور عليه فاستحال التفويض.

أو ليس يجب على هذا السبب إمّا أن يكون المالك للعبد قادراً، يأمر عبده باتّباع أمره ونهيه على إرادته، لا على إرادة العبد، ويملكه من الطاقة بقدر ما يأمره به وينهاه عنه؟

فإذا أمره بأمر، ونهاه عن نهْيٍ عرفه الثواب والعقاب عليهما، وحذّره، ورغّبه، بصفة ثوابه وعقابه، ليعرف العبد قدرة مولاه بما ملكه من الطاقة لأمره ونهيه، وترغيبه وترهيبه، فيكون عدله وإنصافه شاملاً له، وحُجَّةٌ واضحة عليه للإعذار والإنذار.

فإذا اتّبع العبد أمر مولاه جازاه، وإن لم يزدجر عن نهْيٍ عاقبه.

أو يكون عاجزاً، غير قادر، ففَوَّضَ أمره إليه، أحسنَ أم أساء، أطاع أم عصى، عاجز

عن عقوبته وردّه إلى اتباع أمره.

وفي إثبات العجز نفي القدرة والتأله، وإبطال الأمر والنهي، والثواب والعقاب ومخالفة الكتاب، إذ يقول: (ولا يرضى لعباده الكفر وإن تشكروا يرضه لكم) وقوله عز وجل: ﴿اتَّقُوا اللَّهَ حَقَّ تَقَاتِهِ وَلَا تَمُوتُنَّ إِلَّا وَأَنتُمْ مُسْلِمُونَ﴾ وقوله: ﴿وَمَا خَلَقْتُ الْجِنَّ وَالْإِنْسَ إِلَّا لِيَعْبُدُونِ﴾ (٥٦) ﴿مَا أُمِرْتُ مِنْهُمْ مِنْ مَرْزُقٍ وَمَا أُمِرْتُ أَنْ يُطْعَمُونَ﴾ وقوله: ﴿وَاعْبُدُوا اللَّهَ وَلَا تُشْرِكُوا بِهِ شَيْئًا﴾ وقوله: ﴿أَطِيعُوا اللَّهَ وَرَسُولَهُ وَلَا تَوَلَّوْا عَنْهُ وَأَنتُمْ تَسْمَعُونَ﴾.

فَمَنْ زعم أن الله تعالى فوض أمره ونهيه إلى عباده فقد أثبت عليه العجز، وأوجب عليه قبول كل ما عملوا من خير وشر، وأبطل أمر الله ونهيه، ووعد ووعيده، لعل ما زعم أن، الله فوضها إليه، لأن المفوض إليه يعمل بمشيئته، فإن شاء الكفر أو الإيمان كان غير مردود عليه ولا محذور.

فَمَنْ دان بالتفويض على هذا المعنى فقد أبطل جميع ما ذكرنا من وعده ووعيده وأمره ونهيه، وهو من أهل هذه الآية: ﴿أَقْتُمُونَ بِبَعْضِ الْكِتَابِ وَكَفَرُونَ بِبَعْضٍ فَمَّا جَزَاءٌ مِمَّنْ يَعْمَلُ ذَلِكَ مِنْكُمْ إِلَّا خِزْيٌ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَيَوْمَ الْقِيَامَةِ يُرَدُّونَ إِلَى أَشَدِّ الْعَذَابِ وَمَا اللَّهُ بِغَافِلٍ عَمَّا تَعْمَلُونَ﴾.

تعالى عما يدين به أهل التفويض علواً كبيراً.

لكن نقول: إن الله خلق الخلق بقدرته، وملّكهم استطاعة تعبدتهم بها فأمرهم ونهاهم بما أراد، فقبل منهم اتباع أمره، ورضي بذلك لهم، ونهاهم عن معصيته، وذم من عصاه، وعاقبه عليها، والله الخيرة في الأمر والنهي، يختار ما يريد ويأمر به، وينهى عما يكره ويعاقب عليه، بالاستطاعة التي ملّكها عباده لاتباع أمره، واجتناب معاصيه، لأنه ظاهر العدل والنصفة والحكمة البالغة، بالغ الحجة بالإعذار والإنذار، وإليه الصفوة، يصطفي من عباده من يشاء لتبليغ رسالته، واحتجاجه على عباده.

اصطفى محمداً ﷺ وبعثه برسالاته إلى خلقه، فقال - مَنْ قال من كفار قومه حسداً واستكباراً :- ﴿لَوْلَا نَزَلَ هَذَا الْقُرْآنُ عَلَى رَجُلٍ مِنَ الْقُرَشِيِّينَ عَظِيمٍ﴾ يعني بذلك أمية بن أبي الصلت، وأبا مسعود الثقفي.

فأبطل الله اختيارهم، ولم يُجز لهم آراءهم حيث يقول: ﴿أُمِّهِ يَقْسِمُونَ مَرَحَمَةَ رَبِّكَ نَحْنُ قَسَمْنَا بَيْنَهُمْ مَعِيشَتَهُمْ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَرَفَعْنَا بَعْضَهُمْ فَوْقَ بَعْضٍ دَرَجَاتٍ لِيَتَّخِذَ بَعْضُهُمْ بَعْضًا سُلْخًا وَرَحْمَةً مِنْ رَبِّكَ خَيْرٌ مِمَّا يَجْمَعُونَ﴾.

ولذلك اختار من الأمور ما أحب، ونهى عما كره، فمن أطاعه أثابه، ومن عصاه عاقبه، ولو فوّض اختيار امره إلى عباده لأجاز لقريش اختيار أمية بن أبي الصلت وأبي مسعود الثقفي، إذ كانا عندهم أفضل من محمد ﷺ.

فلما أدب الله المؤمنين بقوله: ﴿وَمَا كَانَ لِمُؤْمِنٍ وَلَا لِمُؤْمِنَةٍ إِذَا قَضَى اللَّهُ وَرَسُولُهُ أَمْرًا أَنْ يَكُونَ لَهُمُ الْخِيَرَةُ مِنْ أَمْرِهِمْ﴾ فلم يُجز لهم الإختيار بأهوائهم، ولم يقبل منهم إلا اتباع أمره، واجتناب نهيه على يدي من اصطفاه، فمن أطاعه رشد، ومن عصاه ضل وغوى، ولزمته الحجة بما ملّكه من الاستطاعة لإتباع أمره، واجتناب نهيه فمن أجل ذلك حرّمه ثوابه، وأنزل به عقابه.

وهذا (القول بين القولين) ليس بجبر ولا تفويض، وبذلك أخبر أمير المؤمنين (صلوات الله عليه) «عباية بن ربيعي الأسدي»، حين سأله عن الإستطاعة التي بها يقوم ويقعد، ويفعل، فقال له أمير المؤمنين عليه السلام: سألت عن الإستطاعة، تملكها من دون الله أو مع الله؟ فسكت عباية فقال له أمير المؤمنين:

قل يا عباية. قال: وما أقول؟ قال عليه السلام: إن قلت أنك تملكها من الله قتلتك، وإن قلت: تملكها دون الله قتلتك!!.

قال عباية: فما أقول يا أمير المؤمنين؟

قال: تقول: إنك تملكها بالله الذي يملكها من دونك، فإن يملكها إياك كان ذلك من عطائه، وإن يسلبكها كان ذلك من بلائه، هو المالك، لما ملّك، والقادر على ما عليه أقدرك، أما سمعت الناس يسألون الحول والقوة حين يقولون: لا حول ولا قوة إلا بالله؟

قال عباية: وما تأويلها يا أمير المؤمنين؟

قال عليه السلام: لا حول عن معاصي الله إلا بعصمة الله، ولا قوة لنا على طاعة الله إلا بعون الله.

قال: فوثب عباية، فقبل يديه ورجليه.

وروي عن أمير المؤمنين عليه السلام حين أتاه «نجدة» يسأله عن معرفة الله؟ قال: يا أمير المؤمنين بماذا عرفت ربك؟ قال عليه السلام: بالتمييز الذي خولني، والعقل الذي دلني. قال: أفعبول أنت عليه؟ قال: لو كنت مجبولاً ما كنت محموداً على إحسان، ولا مذموماً على إساءة، وكان المحسن أولى باللائمة من المسيء، فعلمت أن الله قائم، باق، وما دونه حدث حائل زائل، وليس القديم الباقي كالحديث الزائل.

قال (نجدة) أجذك أصبحت حكيماً يا أمير المؤمنين.

قال: أصبحت مُخيراً، فإن أتيت السيئة [ب]مكان الحسنة فأنا المعاقب عليها.

وروي عن أمير المؤمنين عليه السلام أنه قال - لرجل بعد أنصرافه من الشام فقال [الرجل]: يا أمير المؤمنين أخبرنا عن خروجنا إلى الشام بقضاء وقدر؟

قال عليه السلام: نعم، يا شيخ؛ ما علوتم تلعةً، ولا هبطتم وادياً إلا بقضاء وقدر من الله.

فقال الشيخ: عند الله أحسب عنائي يا أمير المؤمنين.

فقال عليه السلام: مه يا شيخ، فإن الله قد عظم أجركم في مسيركم وأنتم سائرون وفي مقامكم وأنتم مقيمون، وفي انصرافكم وأنتم منصرفون، ولم تكونوا في شيء من أموركم مكرهين ولا إليه مضطرين، لعلك ظننت أنه قضاء حتم، وقدّر لازم؟

لو كان ذلك لبطل الثواب والعقاب، ولسقط الوعد والوعيد، ولما ألزمت الأشياء أهلها على الحقائق، ذلك مقالة عبدة الأوثان، وأولياء الشيطان.

إن الله أمر تخييراً، ونهى تحذيراً، ولم يطع مكرهاً، ولم يعص مغلوباً ولم يخلق السموات والأرض وما بينهما باطلاً، ذلك ظن الذين كفروا فويل للذين كفروا من النار.

فقام الشيخ فقبل رأس أمير المؤمنين عليه السلام وأنشأ يقول:

أنت الإمام الذي نرجوا بطاعته يوم النجاة من الرحمن غفرانا
أوضحت من ديننا ما كان مُلتبساً جزاك ربُّك عِناً فيه رضوانا
فليس معذرة في فعل فاحشة قد كنت راكبها ظملاً وعدواناً

فقد دلَّ أمير المؤمنين عليه السلام على موافقة الكتاب، ونفي الجبر والتفويض اللذين يُلزمان -
مَنْ دان بهما وتقلدهما - الباطل والكفر، وتكذيب الكتاب، ونعوذ بالله من الضلالة
والكفر.

ولسنا ندين بجبر ولا تفويض، ولكننا نقول بمنزلة بين المنزلتين، وهو الإمتحان والاختبار
بالإستطاعة التي ملَّكنا الله، وتعبَّدنا بها، على ما شهد به الكتاب، ودان به الأئمة الأبرار
من آل الرسول صلى الله عليه وآله.

ومثَّل الاختبار بالاستطاعة مثْلُ رجل مَلَكَ عبداً، وملك مالا كثيراً، أحبُّ أن يختبره
عبده على علم منه بما يؤول إليه.

فَمَلَّكَه من ماله بعض ما أحبَّ، ووقَّفه على أمور عرَّفها العبد، فأمره أن يصرف ذلك
المال فيها، ونهاه عن أسباب لم يحبَّها، وتقدَّم إليه أن يجتنبها، ولا ينفق من ماله فيها والمال
يتصرف في أي الوجهين.

فَصَرَفَ المال: أحدهما في اتباع أمر المولى ورضاه، والآخر صرفه في اتباع نهيه وسخطه؛
وأُسكنه دار اختبار، أعلمه أنها غير دائمة له السُكنى في الدار، وإن له داراً غيرها، وهو
مُخرِجه إليها، فيها ثواب وعقاب دائم.

فإن أنفذ العبد المال الذي ملكه مولاه في الوجه الذي أمره بها جعل له ذلك الثواب
الدائم في تلك الدار التي أعلمه أنه مُخرِجه إليها.

وإن أنفق المال في الوجه الذي نهاه عن إنفاقه فيه جعل له ذلك العقاب الدائم في دار
الخلود.

وقد حدَّ المولى في ذلك حدّاً معروفاً، وهو المسكن الذي أسكنه في الدار الأولى فإذا بلغ
الحدَّ استبدل بالمال وبالعبد، على أنه لم يزل مالكا للمال والعبد في الأوقات كلها، إلا أنه

[المولى] وعدّ أن لا يسلبه ذلك المال ما كان في تلك الدار الأولى، إلى أن يستتم سكناه فيها! فوفى له، لأنّ من صفات المولى: العدل والوفاء والنصفة والحكمة.

أو ليس يجب إن كان ذلك العبد صرّف من ذلك المال في الوجه المأمور به أن يفي له بما وعدّه من الثواب؟ وتفضّل عليه بأن استعمله في دار فانية، وأثابه على طاعته فيها نعيماً دائماً في دار باقية دائمة؟

وإن صرّف العبد المال - الذي ملكه مولاه أيام سكناه تلك الدار الأولى - في الوجه المنهي عنه، وخالف أمر مولاه، كذلك تجب عليه العقوبة الدائمة التي حذّره إياها غير ظالم له، لما تقدّم إليه، وأعلّمه وعرفّه، وأوجب له الوفاء بوعدّه ووعدّه.

بذلك يوصف القادر القاهر.

وأما المولى: هو الله.

وأما العبد: فهو ابن آدم المخلوق.

والمال: قدرة الله الواسعة.

ومحتته: إظهاره الحكمة والقدرة.

والدار الفانية: هي الدنيا.

وبعض المال الذي ملكه مولاه: هو الاستطاعة التي ملك ابن آدم.

والأمور التي أمر الله بصرف المال إليها: هو الاستطاعة لاتباع الأنبياء، والإقرار بما أوردوه عن الله واجتناب الأسباب التي نهى عنها: هي طرق إبليس. وأما وعدّه: فالنعيم الدائم، وهي الجنة.

وأما الدار الفانية: فهي الدنيا.

وأما الدار الأخرى: فهي الدار الباقية، وهي الآخرة.

والقول: بين الجبر والتفويض هي الإختيار والامتحان، والبلوى بالاستطاعة التي ملك

العبد.

وشرحها في الخمسة الأمثال التي ذكرها الصادق عليه السلام أنها جمعت جوامع الفضل، وأنا مُفسرها بشواهد من القرآن والبيان إن شاء الله.

تفسير صحة الخلق:

أما قول الصادق عليه السلام فإن معناه كمال الخلق للإنسان، وكمال الحواس، وثبات العقل والتمييز، وإطلاق اللسان بالنطق، وذلك قول الله: ﴿وَلَقَدْ كَرَّمْنَا بَنِي آدَمَ وَحَمَلْنَاهُمْ فِي الْبَرِّ وَالْبَحْرِ وَرَفَقْنَاهُمْ مِنَ الطَّيِّبَاتِ وَفَضَّلْنَاهُمْ عَلَى كَثِيرٍ مِمَّنْ خَلَقْنَا تَفْضِيلًا﴾.

فقد أخبر (عز وجل) عن تفضيله بني آدم على سائر خلقه - من البهائم والسباع ودواب البحر، والطير، وكل ذي حركة تدركه حواس بني آدم - بتمييز العقل والنطق.

وذلك قوله: ﴿لَقَدْ خَلَقْنَا الْإِنْسَانَ فِي أَحْسَنِ تَقْوِيمٍ﴾ وقوله: ﴿يَا أَيُّهَا الْإِنْسَانُ مَا غَرَّبَكَ بِرَبِّكَ الْكَرِيمِ * الَّذِي خَلَقَكَ فَسَوَّاكَ فَعَدَلَكَ * فِي أَيِّ صُورَةٍ مَا شَاءَ مَرَكَّبَكَ﴾ في آيات كثيرة.

فأول نعمة الله على الإنسان صحة عقله، وتفضيله - على كثير من خلقه - بكمال العقل وتمييز البيان، وذلك أن كل ذي حركة على بساط الأرض هو قائم بنفسه، بحواسه، مستكمل في ذاته، ففضل بني آدم بالنطق الذي ليس في غيره من الخلق المدرك بالحواس.

فمن أجل النطق ملك الله ابن آدم غيره من الخلق، حتى صار أمراً ناهياً، وغيره مسخر له، كما قال الله: ﴿كَذَلِكَ سَخَّرَهَا لَكُمْ لِتُكَبِّرُوا اللَّهَ عَلَى مَا هَذَاكُمْ﴾ وقال: ﴿وَهُوَ الَّذِي سَخَّرَ الْبَحْرَ لَكُمْ لَكُمْ مِنْهُ لَحْمًا طَرِيًّا وَسَخَّرَ جَوَانِهِ حُلِيَّةً تَلْبَسُونَهَا﴾ وقال: ﴿وَالْأَنْعَامَ خَلَقْنَا لَكُمْ فِيهَا دِفْءٌ وَمَنَافِعُ وَمِنْهَا تَأْكُلُونَ * وَلَكُمْ فِيهَا جَمَالٌ حِينَ تُرْجَوْنَ وَحِينَ تُسَرَّحُونَ * وَنَحْمِلُ أُنْقَالَكُمْ إِلَىٰ بَلَدٍ لَّمَّا تَكُونُوا بِالْغَيْبِ إِلَّا نَسَقَ الْأَنْفُسِ﴾.

فمن أجل ذلك دعا الله الإنسان إلى إتباع أمره، وإلى طاعته بتفضيله إياه باستواء الخلق، وكمال النطق، والمعرفة بعد أن ملكهم استطاعة ما كان تعبدهم به، بقوله: ﴿فَاتَّقُوا اللَّهَ مَا اسْتَطَعْتُمْ وَاسْمَعُوا وَأَطِيعُوا﴾ وقوله: ﴿لَا يَكْفِيكَ اللَّهُ نَفْسًا إِلَّا مَا آتَاهَا﴾ وفي آيات كثيرة.

فإذا سلب من العبد حاسة من حواسه رفع العمل عنه بحاسته، كقوله: ﴿لَيْسَ عَلَى الْأَعْمَى حَرَجٌ وَلَا عَلَى الْأَعْرَجِ حَرَجٌ﴾ الآية، فقد رفع عن كل من كان بهذه الصفة: الجهاد، وجميع الأعمال التي لا يقوم بها.

وكذلك أوجب على ذي اليسار [المستطيع] الحج، والزكاة لما ملكه من استطاعة ذلك، ولم يوجب على الفقير الزكاة والحج؛ قوله: ﴿وَلِلَّهِ عَلَى النَّاسِ حِجُّ الْبَيْتِ مَنِ اسْتَطَاعَ إِلَيْهِ سَبِيلًا﴾ وقوله - في الظهار -: ﴿وَالَّذِينَ يَظَاهِرُونَ مِنْ نِسَائِهِمْ ثُمَّ يَعُودُونَ لِمَا قَالُوا فَتَحْرِيرُ رَقَبَةٍ...﴾ إلى قوله ﴿فَمَنْ لَمْ يَسْتَطِعْ فَاِطْعَامُ سِتِينَ مِسْكِينًا﴾.

كل ذلك دليل على أن الله - تبارك وتعالى - لم يكلف عباده إلا ما ملكتهم استطاعته بقوة العمل به، ونهاهم عن مثل ذلك، فهذه صحة الخلقة.

وأما قوله: (تحلية السرب) فهو الذي ليس عليه رقيب يحظر عليه، ويمنعه العمل بما أمره الله به، وذلك قوله - فيمن استضعف، وحظر عليه العمل، فلم يجد حيلة، ولا يهتدي سبيلاً - كمال قال الله تعالى: ﴿إِلَّا الْمُسْتَضْعِفِينَ مِنَ الرِّجَالِ وَالنِّسَاءِ وَالْوِلْدَانِ لَا يَسْتَطِيعُونَ حِيلَةً وَلَا يَهْتَدُونَ سَبِيلًا﴾ فأخبر أن المستضعف لم يخل سربه، وليس عليه من القول شيء، إذا كان مطمئن القلب بالإيمان.

وأما (المهلة في الوقت) فهو العمل الذي يمتنع الإنسان من حد ما تجب عليه المعرفة إلى أجل الوقت، وذلك من وقت تمييزه وبلوغ الحلم، إلى أن يأتيه أجله.

فمن مات على طلب الحق ولم يدرك كماله فهو على خير، وذلك قوله: ﴿وَمَنْ يَخْرُجْ مِنْ بَيْتِهِ مُهَاجِرًا إِلَى اللَّهِ وَمِنْ سُوْلِهِ ثُمَّ يَدْرِكْهُ الْمَوْتُ فَقَدْ وَقَعَ أَجْرُهُ عَلَى اللَّهِ﴾ وإن كان لم يعمل بكمال شرائعه لعل ما لم يمهله في الوقت إلى استتمام أمره.

وقد حظر على البالغ ما لم يحظر على الطفل إذا لم يبلغ الحلم في قوله: ﴿قُلْ لِلْمُؤْمِنَاتِ يَغْضُضْنَ مِنْ أَبْصَارِهِنَّ وَيَحْفَظْنَ فُرُوجَهُنَّ وَلَا يُبْدِينَ زِينَتَهُنَّ إِلَّا مَا ظَهَرَ مِنْهَا وَلْيَضْرِبْنَ بِخُمُرِهِنَّ عَلَى جُيُوبِهِنَّ وَلَا يُبْدِينَ زِينَتَهُنَّ إِلَّا لِبُعُولَتِهِنَّ﴾ - إلى قوله - ﴿أَوِ الْوَالِدِ الَّذِينَ كَرِهُوا أَنْ يُظَاهَرُوا عَلَى عُورَاتِ النِّسَاءِ﴾ الآية.. فلم يجعل عليهن حرجاً

في إبداء الزينة للطفل وكذلك لا تجري عليه الاحكام.

وأما قوله: (الزاد) فمعناه الجدة: والبلغة التي يستعين بها العبد على ما أمره الله به، وذلك قوله: ﴿مَاعَلَى الْمُحْسِنِينَ مِنْ سَبِيلٍ﴾ ألا ترى أنه قبل عذر من لم يجد ما ينفق، وألزم الحجة كل من أمكنته البلغة والراحلة للحجة والجهاد، وأشباه ذلك؟

وكذلك قبل عذر الفقراء، وأوجب لهم حقاً في مال الأغنياء بقوله: (للفقراء الذين احصروا في سبيل الله لا يستطيعون ضرباً في الأرض، يحسبهم الجاهل أغنياء من التعفف، تعرفهم بسيماهم، لا يسألون الناس إلحافاً، وما تنفقوا من خير فإن الله به عليم) فأمر بإعفائهم، ولم يكلفهم الإعداد لما لا يستطيعون ولا يملكون.

وأما قوله: «في السبب المهيج» فهو النية التي هي داعية الإنسان إلى جميع الأفعال وحاستها: القلب، فمن فعل فعلاً، وكان بدين لم يعقد قلبه على ذلك لم يقبل الله منه عملاً إلا بصدق النية، ولذلك أخبر عن المنافقين بقوله: ﴿يَقُولُونَ بِأَفْوَاهِهِمْ مَا لَيْسَ فِي قُلُوبِهِمْ وَاللَّهُ أَعْلَمُ بِمَا يَكُونُونَ﴾.

ثم أنزل [الله] على نبيه ﷺ توبيخاً للمؤمنين: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لِمَ تَقُولُونَ مَا لَا تَعْمَلُونَ * كَبُرَ مَقْتًا عِنْدَ اللَّهِ أَنْ تَقُولُوا مَا لَا تَعْمَلُونَ﴾.

فإذا قال الرجل قولاً: واعتقد في قوله، دعت النية إلى تصديق القول بإظهار الفعل، وإذا لم يعتقد القول لم تتبين حقيقته.

وقد أجاز الله صدق النية وإن كان الفعل غير موافق لها، لعلّة مانع يمنع إظهار الفعل في قوله ﴿إِلَّا مَنْ أَكْرَهَ وَقَلْبُهُ مُطْمَئِنٌّ بِالْإِيمَانِ﴾ وقوله: ﴿لَا يَأْخُذُكُمْ اللَّهُ بِاللِّغْوِ فِي أَيْمَانِكُمْ﴾.

فدل القرآن وأخبار الرسول ﷺ أن القلب مالك لجميع الحواس يصحح أفعالها، ولا يبطل ما يصحح القلب شيء.

فهذا شرح جميع الخمسة الأمثال التي ذكرها الصادق عليه السلام أنها تجمع المنزلة بين المنزلتين، وهما الجبر والتفويض.

فإذا اجتمع في الإنسان كمال هذه الخمسة الأمثال وَجِبَ عليه العمل كمالاً لما أمر الله (عز وجل) به ورسوله، وإذا نقص العبد منها خلّة كان العمل عنه مطروحاً بحسب ذلك.

فأما شواهد القرآن على الإختيار والبلوى، والاستطاعة التي تجمع القول بين القولين فكثيرة، ومن ذلك: قوله: ﴿وَكَلِّبُوا كُفْرًا تَلْمِزَ الْمُتَكَبِّرِينَ وَلِيُبْلُوا أَسْبَابَ كُفْرِهِمْ﴾ وقال ﴿سَتَسْتَدْرِجُهُمْ مِنْ حَيْثُ لَا يَعْلَمُونَ﴾ وقال: ﴿إِنَّمَا أَكْسَبَ النَّاسُ أَنْ يَمُرُّوا أَنْ يَقُولُوا آمَنَّا وَهُمْ لَا يُفْتَنُونَ﴾.

وقال - في الفتن التي معناها الإختبار: ﴿وَلَقَدْ فَتَنَّا سُلَيْمَانَ﴾ الآية وقال في قصة موسى عليه السلام: ﴿فَإِنَّا قَدْ فَتَنَّا قَوْمَكَ مِنْ بَعْدِكَ وَأَضَلَّهُ السَّامِرِيُّ﴾ وقول موسى: ﴿إِنَّ هِيَ إِلَّا فِتْنَتُكَ﴾ أي إختبارك.

فهذه الآيات يقاس بعضها ببعض، ويشهد بعضها لبعض.

وأما آيات البلوى بمعنى الإختبار: قوله: ﴿لِيَبْلُوكُمْ فِي مَا آتَاكُمْ﴾ وقوله: ﴿ثُمَّ صَرَفَكُمْ عَنْهُمْ لِيَبْتَلِيَكُمْ﴾ وقوله: ﴿إِنَّا بَلَوْنَاهُمْ كَمَا بَلَوْنَا أَصْحَابَ الْجَنَّةِ﴾ وقوله: ﴿خَلَقَ الْمَوْتَ وَالْحَيَاةَ لِيَبْلُوكُمْ أَيُّكُمْ أَحْسَنُ عَمَلًا﴾ وقوله: ﴿وَإِذْ ابْتَلَىٰ إِبْرَاهِيمَ رَبُّهُ بِكَلِمَاتٍ﴾ وقوله: ﴿وَلَوْ يَشَاءُ اللَّهُ لَآتَمَرَصَرَّ مِنْهُمْ وَلَكِنْ لِيَبْلُو بَعْضَكُمْ بَعْضًا﴾.

وكُلِّمًا في القرآن من بلوى هذه الآيات التي شرح أولها فهي إختبار، وأمثالها في القرآن كثيرة، فهي إثبات الإختبار والبلوى.

إن الله (جل وعز) لم يخلق الخلق عبثاً، ولا أهملهم سدى، ولا أظهر حكمته لعباً وبذلك أخبر في قوله: ﴿أَفَحَسِبْتُمْ أَنَّمَا خَلَقْنَاكُمْ عَبَثًا﴾.

فإن قال قائل فلم يعلم ما يكون من العباد حتى اختبرهم؟

قلنا: بلى، قد علم ما يكون منهم قبل كونه، وذلك قوله: ﴿وَلَوْ رُدُّوا لَعَادُوا لِمَا نُهُوا عَنْهُ﴾ وإنما اختبرهم ليعلمهم عدله، ولا يُعَذِّبُهُمْ إِلَّا بِحُجَّةٍ بَعْدَ الْفَعْلِ، وقد أخبر بقوله: ﴿وَكُونُوا

(٦٢٤)التطورات السياسية والثقافية في عصر الإمام علي الهادي عليه السلام

أَهْلَكْنَاهُمْ بِعَذَابٍ مِنْ قَبْلِهِ لَقَالُوا رَبَّنَا لَوْلَا أَرْسَلْتَ إِلَيْنَا رَسُولًا ﴿١﴾ وقوله: ﴿وَمَا كُنَّا مُعَذِّبِينَ حَتَّىٰ نَبْعَثَ رَسُولًا﴾ وقوله: ﴿رَسُولًا مُبَشِّرِينَ وَمُنذِرِينَ﴾.

فالإختبار من الله بالإستطاعة التي ملكها عبده، وهو القول بين الجبر والتفويض، وهذا نطق القرآن، وجرت الأخبار عن الأئمة من آل الرسول ﷺ.

فإن قالوا: ما الحجة في قول الله: ﴿يُضِلُّ مَنْ يَشَاءُ وَيَهْدِي مَنْ يَشَاءُ﴾ وما أشبهها؟

قيل: مجاز هذه الآيات كلها على معنيين:

أما أحدهما: فإخبار عن قدرته، أي أنه قادر على هداية من يشاء، و[[ضلal من يشاء، وإذا أجبرهم بقدرته على أحدهما لم يجب لهم ثواب، ولا عليهم عقاب، على نحو ما شَرَحْنَا في الكتاب.

والمعنى الآخر: إن الهداية منه تعريفه كقوله: ﴿وَأَمَّا نُمُودُ فَبَدْيَتَاهُمْ﴾ أي عرفناهم ﴿فَأَسْتَحَبُّوا أَعْمَى عَلَى الْهُدَى﴾ فلو أجبرهم على الهدى لم يقدروا أن يضلوا.

وليس كلما وردت آية مشتبهة كانت الآية حجة على محكم الآيات اللواتي أمرنا بالأخذ بها، من ذلك قوله: ﴿مِنْهُ آيَاتٌ مُحْكَمَاتٌ هُنَّ أُمُّ الْكِتَابِ وَأُخَرُ مُشَبَّهَاتٌ فَأَمَّا الَّذِينَ فِي قُلُوبِهِمْ زَيْغٌ فَيَتَّبِعُونَ مَا تَشَابَهَ مِنْهُ ابْتِغَاءَ الْفِتْنَةِ وَابْتِغَاءَ تَأْوِيلِهِ...﴾ الآية.

وقال: ﴿فَيَسِّرْ عِبَادِي * الَّذِينَ يَسْتَمِعُونَ الْقَوْلَ فَيَتَّبِعُونَ أَحْسَنَهُ﴾ أي أحكمه، وأشرحه، ﴿أُولَٰئِكَ الَّذِينَ هَدَاهُمُ اللَّهُ وَأُولَٰئِكَ هُمْ أُولُوا الْأَلْبَابِ﴾.

وفقنا الله وإياكم إلى القول والعمل لما يحب ويرضى، وجنبنا وإياكم معاصيه، بمنه وفضله.

والحمد لله كثيراً كما هو أهله، وصلى الله على محمد وآله الطيبين، وحسبنا الله ونعم الوكيل».

تحف العقول / ٤٥٨ - ٤٧٥

ملحق رقم (٢)

أسئلة يحيى بن أكثم:

ورفع يحيى بن أكثم أسئلة إلى الامام كان قد كتبها من قبل ، وأعدّها لامتحانه فأجاب عنها الامام وأمر ابن السكيت أن يكتب أجوبتها.

وفيما يلي نص الأسئلة والأجوبة بتصرف:

س١: قال الله تعالى في كتابه: ﴿قَالَ الَّذِي عِنْدَهُ عِلْمٌ مِنَ الْكِتَابِ أَنَا آتِيكَ بِهِ قَبْلَ أَنْ يَرْتَدَّ إِلَيْكَ طَرْفُكَ﴾^(٤١٥) ان السائل هو سليمان و المسؤول هو آصف فهل كان سليمان و هو نبي محتاجاً إلى علم آصف؟

س٢: قال تعالى: ﴿وَمَرَعَ أَبُوهُ عَلَى الْعَرْشِ وَخَرُّوْا لَهُ سُجْدًا﴾^(٤١٦) كيف سجد يعقوب وولده ليوسف وهم أنبياء؟.

س٣: قال تعالى: ﴿فَإِنْ كُنْتُمْ فِي شَكٍّ مِّمَّا أَنْزَلْنَا إِلَيْكَ فَاسْأَلِ الَّذِينَ يَقْرَأُونَ الْكِتَابَ﴾^(٤١٧) فان كان المخاطب النبي ﷺ فقد شك، وإن كان المخاطب غيره فعلى من إذا أنزل الكتاب؟.

س٤: قال تعالى: ﴿وَلَوْ أَنَّ مَا فِي الْأَرْضِ مِنْ شَجَرٍ أَغْلَاقًا وَالْبَحْرِ يَمُدُّهُ مِنْ بَعْدِهِ سَبْعَةُ أَبْحُرٍ مَا نَفِذْتُ كَلِمَاتُ اللَّهِ﴾^(٤١٨) ما هذه الأبحر وأين هي؟

س٥: قال تعالى: ﴿وَفِيهَا مَا تَشْتَهِيهِ الْأَنفُسُ وَكَلَذُ الْأَعْيُنِ﴾^(٤١٩) فاشتتهت نفس آدم أكل البر فأكل، فكيف عوقب؟!؟

س٦: قال تعالى: ﴿أَوْ يُزَوِّجُهُمْ ذُكْرَانًا وَإِنَاثًا﴾^(٤٢٠) إذا كان يزوج الله عباده الذكران، فكيف عاقب قوماً فعلوا ذلك.

س٧: كيف جاز شهادة المرأة وحدها، وقد قال الله: ﴿وَأَشْهِدُوا ذَوَى عَدْلٍ مِنْكُمْ﴾^(٤٢١).

س٨: حكم علي عليه السلام في أمر الخنثى أن ينظر إلى مبالها فان كان بولها بول الرجل فهي رجل، وان كان بول الانثى فهي انثى، فمن ذا ينظر إليها، فان كان الناظر إليها رجلاً فعسى أن تكون امرأة، وإن كان الناظر إليها امرأة فعسى أن تكون رجلاً،

وهذا ما لا يحلّ، وما هو ميراثها؟.

س٩: رجل أتى إلى قطيع غنم فرأى الراعي ينزو على شاة منها، فلما بصر بصاحبها خلى سبيلها، فدخلت بين الغنم كيف تذبج؟ وهل يجوز أكلها أم لا؟
س١٠: صلاة الفجر لم يجهر فيها بالقرآن مع أنها من صلاة النهار وإنما يجهر في صلاة الليل؟.

س١١: ان علياً قال لابن جرموز بشر قاتل ابن صفية بالنار^(٤٢٢) فلم يمتلحه وهو إمام.
س١٢: أخبرني عن علي لم يمتلحه أهل صفين، وأمر بذلك - أي قتلهم - مقبلين ومدبرين وأجاز^(٤٢٣) على الجرحى، وكان حكمه يوم الجمل أنه لم يقتل مولى، ولم يجز على جريح، ولم يأمر بذلك، وقال: من دخل داره آمن، لم فعل ذلك؟ فان كان الحكم الأول صواباً فالثاني خطأ.

س١٣: أخبرني عن رجل أقر باللواط على نفسه، أيحد أم يدرأ عنه الحد؟
ج١: انه لم يعجز سليمان عليه السلام عن معرفة ما عرف آصف.. لكنه صلوات الله عليه أحب أن يعرف أمته من الجن والانس أنه الحجة من بعده، وذلك من علم سليمان أودعه آصف بأمر الله ففهمه ذلك لثلا يختلف في إمامته وولايته من بعده، ولتأكيد الحجة على الخلق.

ج٢: أما سجود يعقوب لولده فان السجود لم يكن ليوسف، وإنما كان ذلك من يعقوب وولده طاعة لله تعالى، وتحيّة ليوسف، كما أن السجود من الملائكة لم يكن لأدم، فسجد يعقوب وولده ويوسف معهم شكراً لله تعالى باجتماع الشمل ألم تر أنه يقول: في شكره في ذلك الوقت ﴿مَرْبِّ قَدْ أَتَيْتَنِي مِنَ الْمَلِكِ﴾ الآية.

ج٣: إن المخاطب بذلك رسول الله ﷺ ولم يكن في شك مما أنزل الله إليه ولكن قالت الجهلة: كيف لم يبعث نبياً من الملائكة، ولم لم يفرق بينه وبين الناس في الاستغناء عن المأكّل والمشرب والمشى في الأسواق، فأوحى الله إلى نبيه، فاسأل الذين يقرأون الكتاب بمحض من الجهلة هل بعث الله نبياً قبلك إلا وهو يأكل الطعام ويمشي في

الأسواق، ولك بهم أسوة يا محمد، وإنما قال: ﴿إِنْ كُنْتُ فِي شَكٍّ﴾ ولم يكن شكاً ولكن للنصفة كما قال تعالى: ﴿قُلْ تَعَالَوْا نَدْعُ أَبْنَاءَنَا وَأَبْنَاءَكُمْ وَنِسَاءَنَا وَنِسَاءَكُمْ وَأَنْفُسَنَا وَأَنْفُسَكُمْ ثُمَّ نَبْتَهِلْ فَنَجْعَلْ لَعْنَةَ اللَّهِ عَلَى الْكَاذِبِينَ﴾ (٤٢٤).

ولو قال: تعالوا فنجعل لعنة الله عليكم لم يكونوا يجيبوا إلى المباهلة، وقد علم الله أن نبيه مؤدّ عنه رسالته، وما هو من الكاذبين، وكذلك عرف النبي ﷺ بأنه صادق فيما يقول: ولكن أحبّ أن ينصف من نفسه.

ج٤: فهو كذلك لو أن أشجار الدنيا أقلام، والبحر مداد يمدّ سبعة أبحر مداً حتى انفجرت الأرض عيوناً كما انفجرت في الطوفان، ما نفذت كلمات الله، وهي: - أي الأبحر - عين الكبريت، وعين اليمن، وعين برهوت، وعين طبرية، وحمة ماسيدان ترعة لسان، وحمة أفريقية تدعى سيلان، وعين باحوران، ونحن الكلمات التي لا تدرك فضائلنا ولا تستقصى.

ج٥: وأما الجنة ففيها من المأكّل، والمشرب والملاهي ما تشتهي الأنفس، وتلذّ الأعين، وأباح الله ذلك لآدم، والشجرة التي نهى الله آدم عنها وزوجته أن يأكلا منها، شجرة الحسد.. عهد الله إليهما أن لا ينظرا إلى من فضله الله عليهما وإلى خلائقه بعين الحسد فنسي ولم يجد له عزماً.

ج٦: ان الله تعالى زوج الذكران المطيعين معاذ الله أن يكون الجليل العظيم عنى ما لبست به على نفسك... تطلب الرخصة لارتكاب المحارم، ومن يفعل ذلك يلق أثاماً يُضاعف له العذاب يوم القيامة، ويخلد فيه مهاناً... إن لم يتب.

ج٧: أما شهادة المرأة وحدها التي جازت فهي القابلة التي جازت شهادتها مع الرضا فان لم يكن رضا فلا أقل من امرأتين، تقوم المرأتان بدل الرجل للضرورة لأن الرجل لا يمكنه أن يقوم مقامها، فان كانت وحدها قبل قولها مع يمينها.

ج٨: أما قول علي: في الخنثى، فهو كما قال، يرث من المبال ينظر قوم إليه عدول يأخذ كل واحد منهم مرآة، ويقوم الخنثى خلفهم عريانة، وينظرون إلى المرأة فيرون الشيء ويحكمون عليه.

ج٩: أما الرجل الناظر إلى الراعي، وقد نزا على شاة فان عرفها ذبحها وأحرقها وإن لم يعرفها قسم الغنم نصفين وساهم بينهما^(٤٢٥) فان وقع السهم على أحد القسمين، فقد نجا النصف الآخر، ثم يفرق النصف الآخر فلا يزال كذلك حتى تبقى شاتان، فيقرع بينهما فأيتها وقع السهم بها ذُبِحت ونجا سائر الغنم^(٤٢٦).

ج١٠: أما صلاة الفجر والظهر فيها بالقراءة لأن النبي ﷺ كان يغسل بها^(٤٢٧) فقراءتها في الليل.

ج١١: أما قول علي: بشر قاتل ابن صفية بالنار، فهو لقول رسول الله ﷺ: وكان ممن خرج يوم النهروان، فلم يقتله أمير المؤمنين بالبصرة لأنه علم أنه يقتل في فتنة النهروان.

ج١٢: أما قولك: إن علياً قاتل أهل صفين مقبلين، ومدبرين، أجهز على جريحهم، وانه يوم الجمل لم يتبع مولياً، ولم يجهز على جريحهم، وكل من ألقى سيفه وسلاحه آمنه، فان أهل الجمل قُتل إمامهم، لم يكن لهم فئة يرجعون إليها، وإنما رجع القوم إلى منازلهم غير محاربين، ولا محتالين، ولا متجسسين، ولا متبارزين، فقد رضوا بالكف عنهم وكان الحكم فيه دفع السيف، والكف عنهم إذا لم يطلبوا عليه أعواناً.

وأهل صفين يرجعون إلى فئة مستعدة، وإمام منتصب يجمع لهم السلاح من الرماح والدروع والسيوف ويستعد لهم، ويسني لهم العطاء، ويهيئ لهم الأموال، ويعود مريضهم ويجبر كسيرهم، ويداوي جريحهم، ويحمل راجلهم، ويكسو حاسرهم، ويردهم فيرجعون إلى محاربتهم، وقتالهم.

فإن الحكم في أهل البصرة الكف عنهم لما ألقوا أسلحتهم اذ لم تكن لهم فئة يرجعون إليها، والحكم في أهل صفين أن يتبع مدبرهم، ويجهز على جريحهم فلا يساوي بين الفريقين في الحكم، ولولا أمير المؤمنين وحكمه في أهل صفين والجمل لما عرف الحكم في عصاة أهل التوحيد، فمن أبى ذلك عرض على السيف.

ج١٣: أما الرجل الذي أقر باللواط فإنه أقر بذلك متبرعاً من نفسه، ولم تقم عليه بيعة،

وأنما تطوع بالاقرار من نفسه، وإذا كان للإمام الذي من الله أن يعاقب عن الله كان له أن يمن عن الله أما سمعت قول الله (هذا عطاؤنا فامنن أو أمسك بغير حساب) فبدأ باليمن قبل المنع.

قد أنبأناك بجميع ما سألتنا عنه فاعلم..

مناقب ابن شهر آشوب: ٤ / ٤٠٣ - ٤٠٦، تحف العقول: ٤٧٧ - ٤٨١.

ملحق رقم (٣)

رسالة الخوارزمي إلى أهالي نيسابور

«فلما انتهكوا - أي بني أمية - ذلك الحريم، واقترفوا ذلك الإثم العظيم غضب الله عليهم، وانتزع الملك منهم، فبعث عليهم (أبا مجرم) لا أبا مسلم فنظر لا نظر الله إليه إلى صلابة العلوية، وإلى لين العباسية فترك تقاه واتبع هواه، وباع آخرته بديناه، بقتله عبدالله بن معاوية بن عبدالله بن جعفر بن أبي طالب، وسلط طواغيت خراسان، وأكراد أصفهان، وخوارج سجستان على آل أبي طالب يقتلهم تحت كل حجر ومدر، ويطلبهم في كل سهل وجبل، حتى سلط الله عليه أحب الناس إليه فقتله كما قتل الناس في طاعته، وأخذه بما أخذ الناس في بيعته، ولم ينفعه أن أسخط الله برضاه، وإن ركب ما لا يهواه، وخلت إلى الدوائقي الدنيا فخطب فيها عسفاً، وتقضى فيها جوراً، وحيفاً، وقد امتلأت سجونهم بأهل بيت الرسالة، ومعدن الطيب والطهارة، قد تتبع غائبهم وتلقط حاضريهم، حتى قتل عبدالله بن محمد بن عبدالله الحسيني (السند)، على يد عمر بن هشام الثعلبي، فما ظنك بمن قرب متناوله عليه ولان مسه على يديه... وهذا قليل في جنب ما قتله «هارون» [الرشيد] منهم، وفعله موسى [الهادي] قبله بهم، فقد عرفتم ما توجه على الحسين بن علي بن علي [فخ] من موسى، وما اتفق على علي بن الأفتس الحسيني من «هارون»، وما جرى على أحمد بن علي الزيدي، وعلى القاسم بن علي الحسيني من حبسه، وعلى غسان بن حاضِر الخزاعي حين أخذ من قبله.

والجملة ان «هارون» مات وقد حصد شجرة النبوة، واقتلع غرس الامامة.. وانتم أصلحكم الله أعظم نصيباً في الدين من الأعمش فقد شتموه ومن شريك فقد عزلوه، ومن

هشام بن الحكم فقد أخافوه ومن علي بن يقطين فقد اتهموه...».

وتطرق الخوارزمي إلى تسجيل جرائم الحكم الاموي الغاشم ليعود بعدها إلى الحكم العباسي مرة أخرى:

«وقل في بني العباس فانك ستجد بحمد الله مقالاً، وجُل في عجائبهم فانك ترى ما شئت مجالاً.

يجبى فيؤهم فيفرق على الديلمي، والتركي، ويحمل إلى المغربي والفرغاني، ويموت إمام من أئمة الهدى، وسيد من سادات بيت المصطفى فلا تتبع جنازته، ولا تخصص مقبرته، ويموت (طراط) لهم و مسخرة، أو ضارب فتحضر جنازته العدول والقضاة، ويعمر مسجد التعزية عنه القواد والولاة..

ويسلم فيهم من يعرفونه دهرياً، أو سوفسطائياً، ولا يتعرضون لمن يدرس كتاباً فلسفياً ومانوياً، ويقتلون من يعرفونه شيعياً، ويسفكون دم من سمى ابنه علياً!

ولو لم يقتل من شيعة أهل البيت غير المولى بن خنيس قتيلداود بن علي، ولو لم يجبس فيهم غير أبي تراب المروزي لكان ذلك جرحاً لا يبرأ، وثائرة لا تطفأ، وصدعاً لا يلتئم، وجرحاً لا يلتحم.

وكفاهم أن شعراء قریش قالوا في الجاهلية أشعاراً، يهجون بها أمير المؤمنين عليه السلام، ويعارضون فيها أشعار المسلمين فحملت أشعارهم، ودونت أخبارهم، ورواها الرواة مثل الواقدي ووهب بن منبه التميمي، ومثل الكلبي، والشرقي بن القطامي والبيهقي بن عدي، ودأب بن الكناني، وان بعض شعراء الشيعة يتكلم في ذكر مناقب الوحي، بل ذكر معجزات النبي صلى الله عليه وآله فيقطع لسانه، ويمزق ديوانه، كما فعل بعبدالله بن عمار البرقي وكما أريد بالكميت بن زيد الأسدي، وكما نبش قبر منصور بن الزبرقان النميري، وكما دمر على دعبل بن الخزاعي، مع رفقتهم من مروان بن أبي حفصة اليمامي، ومن علي بن الجهم الشامي، ليس الا لغلوهما في النصب، واستيجابهما مقت الرب... حتى ان «هارون» بن الخيزران [الرشيد] وجعفر المتوكل على الشيطان لا على الرحمن كانا لا يعطيان مالا، ولا يذلان نوالاً الا لمن شتم آل أبي طالب، ونصر مذهب النواصب مثل عبدالله بن مصعب

الزبيري ووهب بن وهب البختری، ومن الشعراء مثل مروان بن أبي حفصة الأموي، فأما في أيام جعفر [المتوكل] فمثل بكار بن عبدالله الزبيري، وأبي السمط بن أبي الجون الأموي وأبن أبي الشوارب العبشمي.

وعرج بعد هذا الكلام على بني أمية وما اقترفوه من ظلم العلويين ثم استأنف الكلام عن العباسيين فقال:

وما هذا بأعجب من صياح شعراء بني العباس على رؤوسهم بالحق وان كرهوه، وبتفصيل من نقصوه وقتلوه، قال منصور بن الزبرقان على بساط هارون:

{٣٤١}

آل النبي ومن يحبهم يتطامنون مخافة القتل
أمن النصاري واليهود وهم من أمة التوحيد في أزل
وقال دعبل:

الم تر أني منذ ثمانين حجة أروح واغدو دائم الحسرات
أرى فيئهم في غيرهم متقسما وأيديهم من فيئهم صفرات
وقال علي بن العباس الرومي وهو مولى المعتصم:

تأليت ان لا يبرح المرء منكم يشل على حر الجبين فيعجز
كذلك بنو العباس تصبر منكم ويصبر للسيف الكمي المدجج
وقال ابراهيم بن العباس الصولي: وهو كاتب القوم وعاملهم في الرضا لما قربه المأمون:

يمن عليكم بأموالكم وتعطون من مئة واحدا
وكيف لا ينتفضون قوما يقتلون بنى عمهم جوعا وسغا، ويملاؤن ديار الترك والديلم فضة وذهبا، يستنصرون المغربي والفرغاني ويجنون المهاجري والانصاري، ويوالون أنباط السود وزارتهم، وتلف العجم والطماطم قيادتهم، ويمنعون آل أبي طالب ميراث أمهم، وفيء جدهم... يشتهي العلوي الأكلة فيحرمها، ويقترح على الايام الشهوة فلا يطعمها، وخراج مصر والأهواز، وصدقات الحرمين والحجاز تصرف إلى «ابن مريم المديني»، وإلى

«ابراهيم الموصلي»، و«ابن جامع السهمي»، والى «زلزل الضارب»، و«برصوما الزامر»، واقطاع «مختيشوع النصراني» قوت أهل بلد، وجاري [المرتّب الشهري] بغا التركي والأفشين الاشروسي، كفاية أمة ذات عدد.

والتوكل زعموا يتسرى بإثني عشر الف سرية، والسيد من سادات أهل البيت يتعفف بزنجية أو سندية، وصفوة مال الخراج مقصورة على أرزاق الصفاغنة، وعلى موائد المخاتنة، وعلى طعمة الكلابين، ورسوم القرّادين، وعلى «مخارق» المغني، «زرزر»، و«عمر بن بانة المهلبى»، ويخلون على الفاطمي بأكلة أو شربة، ويصارفونه على دائق وجبة، ويشترون العوادة بالبدر، ويجرون لها ما يفي برزق عسكر.

والقوم الذين أحل لهم الخمس، وحرّمت عليهم الصدقة، وفُرّضت لهم الكرامة والمحبة، يتكفّفون ضرّاً، ويهلكون فقراً، ويرهن أحدهم سيفه، ويبيع ثوبه، وينظر إلى فيئه بعين مريضة، ويشتد على دهره بنفس ضعيفة، ليس له ذنب إلاّ أن جده النبي ﷺ، وأبوه

الوصي، وأمه فاطمة، وجدته خديجة، ومذهبه الايمان، وامامه القرآن، وحقوقه مروفة إلى القهرمانة والمفرطة والى المغزمة، والى المزرعة، وخمسه مقسوم على نقار الديكة الدمية، والقردة، وعلى رؤوس اللعبة واللعبة، وعلى مرية الرحلة.

«وماذا أقول في قوم حملوا الوحوش على النساء المسلمات وأجروا لعبادة [المخنث وذويه الجرايات، وحرثوا تربة الحسين عليه السلام] بالفدان، ونفوا زوّاره إلى البلدان... وما أصف من قوم هم نُطْف السكارى في ارحام القيان؟ وماذا يقال في أهل بيت منهم البغا، وفيهم راح التخنيث وغدا، وبهم عرف اللواط؟

كان ابراهيم ابن المهدي مغنياً، وكان المتوكل مؤثلاً، وكان المعتز مخنثاً، وكان ابن زبيدة [الأمين] معتوها مفركاً.. وقتل المأمون أخاه، وقتل المنتصر أباه، وسَمّ موسى ابن المهدي امه، وسَمّ المعتضد عمه».

عن رسائل الخوارزمي



ملحق رقم (٤)

قصيدة الشاعر العربي الأمير أبي فراس الحمداني

المعروفة بـ (القصيدة الشافية)

قصيدة الأمير، أبي فراس: الحارث بن يعلى بن حمدان، الحمداني، المقتول سنة ٣٥٧هـ فإنه أمر أن تُشهر خمسمائة سيف بالمعسكر وقت إنشاد هذه القصيدة، فجاءت بمثابة اعلان كبير وادانة للحكم العباسي.

وهي من القصائد الخالدة ومذكورة في أكثر المصادر، وقام بعض العلماء بتخميسها وبعضهم بتشطيرها، وتقرأ في بعض المجالس.

بلغت الذروة في الحماسة، وإحقاق الحق، وتزييف الباطل، وقوة البيان، وجرأة الإقدام، وتحدي الظالمين وكشف الحقيقة.

وتتجلى الروح الثورية في كل بيت منها، مما يدل على روحه الكبيرة فجاءت ردّاً على قصيدة «ابن سكرة العباسي» التي يهجو بها العلويين، وهم ذرية الإمام أمير المؤمنين علي بن أبي طالب عليه السلام التي مطلعها:

لا ينقص الدرّ وضع من وضعه

بنى على دعوا مقاتلكم

النص الكامل للقصيدة «الشافية»:

ويفاء آل رسول الله مقتسماً

الحق مهتضم، والدين مخترم

سوم الرعاة، ولا شاة ولا نعم

والناس عندك لا ناس فتحفظهم

قلب تصارع فيه الهم والهمم

إني أبيت قليل النوم، أرقني

إلا على ظفر عفي طيه كرم

وعزمة لا ينام الليل صاحبها

والدرع والرمح والصمصامة الخدم

يُصان مهري لأمر لا أبوح به

رمت الجزيرة، والخدرايف والعنم

وكل مائتة الضبعين مسرحها

يوماً، ورأيهم رأي إذا عزموا

وفتية قلبهم قلب إذا ركبوا

من الطغاة؟ وما للدين منتقم؟

يا للرجال أما لله منتصر

بنو عليّ رعايا في ديارهم والأمر تملكه النسوان والخدم

{٣٤٤}

محلاون، فأصفي شربهم وشل
فالأرض إلا على ملاكها سعة
وما السعيد بها إلا الذي ظلموا
للمتقين من الدنيا عواقبها
لا يطفئ بنو العباس ملكهم
أتفخرون عليهم، لا أباً لكم
ولا توازن يوماً بينكم شرفاً
ولا لكم مثلهم في المجد متصل
ولا لعرقكم من عرقهم شبه
قال النبي بها (يوم الغدير) لهم
حتى إذا أصبحت في غير صاحبها
وصيروا أمرهم شورى كأنهم
إن عدّ أهل التقى كانوا أنمتهم
بيوتهم في قریش يستضاء بها
ثم ادعاه بنو العباس ملكهم
لا يذكرون، إذا ما معشر ذكروا
ولا رأيهم أبو بكر وصاحبه
فهل هم مدعوها غير واجبة؟
أمّا عليّ: فقد أدنى قرابتكم
هل ينكر الحبر: عبد الله نعمته
بنس الجزاء جزيتهم في بني حسن

عند الورد، وأوفي وردهم لمم
والمال إلا على أربابه ديم
وما الشقي بها إلا الذي ظلموا
وان تعجل فيها الظالم الأثم
بنو علي مواليتهم وان رغبوا
حتى كأن رسول الله جدكم
ولا تساوت لكم في موطن قدم
ولا لجدكم معشار جدّهم
ولا ثيلتكم من أمهم أمم
والله يشهد والأملاك والأمم
باتت تنازعها الذوبان والرخم
لا يعرفون ولاؤ الحق أيهم؟
أو قيل: من خير أهل الأرض؟ قيل هم
في النائبات، وعند الحكم إن حكموا
ولا لهم قدم فيها ولا قدم
ولا يحكم في أمر لهم حكم
أهلاً لما طلبوا منها وما زعموا
أم هل أنتمهم في أخذها ظلموا؟
عند الولاية، إن لم تكفر النعم
أبوكم؟ أم عبيد الله؟ أم قثم؟
أباهم العلم الهادي، وأمهم

لا بيععة ردعتكم عن دمائهم
 هلاً صفحتهم عن الأسرى بلا سبب
 هلا كففتهم عن «الديباج» سوطكم^(٤٢٨)
 ما نزهت لرسول الله مهجته
 ما نال منهم بنو حرب وإن عظمت
 كم غدره لكم في الدين واضحة
 أنتم آله فيما ترون وفي
 هيهات لا قربت قربي ولا نسب
 كانت مودّة سلمان لهم رحماً
 يا جاهدأ في مساويهم يكتمها
 ذاق الزبيري غبّ الحنث، وانكشفت
 ليس الرشيد كموسى في القياس، ولا
 بأووا بقتل الرضا من بعد بيعته
 يا عصبه شقيت من بعدما سعدت
 لبئس ما لقيت منهم وإن بليت
 لا عن أبي مسلم في نصحه صفحوا
 ولا الأمان لأهل الموصل اعتمدوا
 أبلغ لديك بني العباس مألكة
 أيّ المفاخر أضحت في منابرهم
 وهل يزيدكم في مفخر علم
 يا باعة الخمر كفوا عن مفاخرهم
 خلوا الضخار لعالمين إن سئلوا
 لا يغضبون لغير الله إن غضبوا

ولا يمين، ولا قربي، ولا ذمم
 كالصافحين ببدر عن أسيركم
 وعن بنات رسول الله سبذكم
 عن السياط، فالأ نزه الحرم
 تلك الجرائر، إلا دون نيلكم
 وكم دم لرسول الله عنذك
 أظفاركم من بنيه الطاهرين دم؟
 يوماً، إذا أقصت الأخلاق والشم
 ولم يكن بين نوح وابنه رحم
 غدر الرشيد بيحيى كيف ينكتم؟
 عن ابن فاطمة الأقوال والتمهم
 مأمونكم كالرضا، إن أنصف الحكم
 وأبصروا بعض يوم رشدهم وعموا
 ومعشراً هلكوا من بعدما سلموا
 بجانب الطف تلك الأعظم الرمم
 ولا الهبيري نجاً الحلف والقسم
 فيه الوفاء، ولا عن عمهم حلموا
 لا تدعوا ملكها، مأكها العجم
 وغيركم أمر فيها ومحتكم
 وبالخلاف عليكم يخفق العلم
 لعشر بيعهم يوم الهياج دم
 يوم السؤال، وعمّالين إن علموا
 ولا يضيعون حق الله إن حكموا

تنشئ التلاوة في أبياتهم أبداً
منكم «عليّة»^(٢٩) أم منهم؟ وكان لكم
أم من تشاد له الألحان سائره
إذا تلا سورة غنى إمامكم؛
ما في ديارهم للخمر معتصر
ولا تبيت لهم خنثى تنادمهم
الركن والبيت والاستار منزلهم
وليس من قسم في الذكر نعرفه
يكاد يمسكه عرفان راحته
صلّى الإله عليهم كلما سجعت
وفي بيوتكم الأوتار والنغم
شيخ المغنّين إبراهيم^(٣٠) أم لهم؟
عليهم ذو المعالي، أم عليكم؟
قف بالديار التي لم يعفها القدم
ولا بيوتهم للسوء معتصم
ولا يرى لهم قرد له حشم
وزمزم، والصفاء والخيف والحرم
الآ وهم غير شك ذلك القسم
ركن الحطيم إذا ما جاء يستلم
ورق، فهم للورى كهف ومعتصم

عن: ديوان الأمير أبي فراس الحمداني

هوامش البحث

- (١) الإمام الهادي من المهدي إلى اللحد ص ٤٧ بالاستناد إلى أمالي الشيخ الطوسي.
- (٢) تجارب الأمم، مسكويه: ٢٩٧/٢..
- (٣) انظر: الإرشاد ص ٢٧٤- ٢٧٦ ولعله روى ذلك عن الشيخ الكليني: انظر الكافي ج ١ ص ٥٠١.
- (٤) المصدر نفسه. يجدر ذكره أن المتوكل أسند إلى بريجة العباسي حكومة الكوفة فيما بعد.
- (٥) انظر كتاب سامراء موسوعة العتبات المقدسة للخليلي. وقد أشرف دليل بن يعقوب على مشروع شق النهر في شمال سامراء ليحيط بالقصر الجعفري ورصدت له ميزانية مفتوحة وقد أخفق المشروع فنيا بعد أن استشرّف أموالاً طائلة.
- (٦) باقر شريف القرشي، حياة الإمام الهادي دراسة وتحليل ص ٣٠٢.
- (٧) ما عدا أرض الحرم الطاهر قيدت أشبه ما يكون بالجزيرة الصغيرة وتشير المدونات إلى أن الشيران كانت تحيد عن القبر ميمناً وشمالاً ولم تجد السياط على اجبارها في حرث القبر الشريف. انظر: أمالي الشيخ الطوسي.
- (٨) بحار الأنوار ج ٥٠ ص ١٩٤.

(٩) أحداث التاريخ الإسلامي ج ١ ص ٢٠١، جاء في وفيات الأعيان أن المتوكل أمر بسَلِّ لسانه من قفاه وداس الجلاوزة في بطنه ثم حمل إلى داره فمات بعد سويعات ودفن في بغداد.. عرف بالسكيت لطول سكوته أصله من الأهواز (في خوزستان) هاجر إلى بغداد وعاش فيها التقى الإمام الرضا عليه السلام وسأله عن الحجة بعد غياب النبي صلى الله عليه وآله فقال الإمام عليه السلام: العقل؛ تعرف به الصادق على الله فتصدقه والكاذب على الله فتكذبه.

فقال ابن السكيت مبهوراً: هذا والله الجواب.

استشهد وله من العمر ثمانية وخمسون عاماً.

(١٠) المسعودي، مروج الذهب ج ٤، ص ١١.

(١١) نزهة الجليس ج ٢ ص ١٣٧؛ موسوعة العتبات المقدسة ج ١٢ ص ٢٧٠.

(١٢) اثبات الوصية ص ٢٤٠.

(١٣) بحار الأنوار ج ١٢ ص ١٣٤.

(١٤) انظر المزيد من التفاصيل في رواية «تراثيل في زمن الذئاب» ص ٣٩٠ - ٤٠٠ وكذلك انظر: فارس الزمن

الغائب ص ٣٣ - ٤٧.

(١٥) المصدر نفسه.

(١٦) انظر قصة الحضارة الجزء الثالث المجلد الرابع ص ١٦٢ - ١٦٤ حوادث سنة ٨٦٧ م في روما.

(١٧). اثبات الوصية للمسعودي / ٢٣٣: «وكتب بريجة العباسي صاحب الصلاة بالحرمين

إلى المتوكل: «إن كان لك في الحرمين حاجة فأخرج علي بن محمد منها، فانه قد دعا إلى نفسه واتبعه خلق

كثير»!

«وكتب إليه بهذا المعنى زوجة المتوكل» - الكافي: ٥٠١/١، الارشاد: ٣٣٣.

(١٨). الطبري: ٧ / ٣٤٨.

(١٩). رسالة المتوكل العباسي إلى الامام الهادي سنة ٢٣٤هـ:

«أما بعد: فان أمير المؤمنين عارف بقدرك، راع لقرابتك، موجب لحقك، مقدّر من الأمور فيك وفي أهل بيتك

ما يصلح الله به حالك، ويثبت به عزك وعزهم، ويدخل الأمن عليك وعليهم يبتغي رضی ربه، وأداء ما

افترض عليه فيك وفيهم.

وقد رأى أمير المؤمنين صرف عبدالله بن محمد عما كان يتولاه من الحرب والصلاة بمدينة الرسول صلى الله عليه وآله إذا كان

على ما ذكرت من جهالته بحقك، واستخفافه بقدرك، وعندما قرفك به نسبك إليه من الأمر الذي قد علم

أمير المؤمنين براءتك منه، وصدق نيتك في برّك وقولك، وأنك لم تؤهل نفسك لما قرفت بطلبه، وقد ولّى

أمير المؤمنين ما كان يلي من ذلك محمد بن الفضل، وأمره بإكرامك وتبجيلك، والانتهاى إلى أمرك،

ورأيك والتقرّب إلى الله وإلى أمير المؤمنين بذلك، وأمير المؤمنين مشتاق إليك يحب إحداث العهد بك،

والنظر إليك، فان نشطت لزيارته والمقام قبله ما أحببت شخصت ومن اخترت من أهل بيتك ومواليك

- وحشمك على مهلة وطمأنينة ترحل إذا شئت وتنزل إذا شئت، وتسير كيف شئت، وإن أحببت أن يكون يحيى بن هرثمة مولى أمير المؤمنين، ومن معه من الجند، يرحلون برحلك، ويسيرون بسيرك، فالأمر في ذلك إليك، وقد تقدمنا إليه بطاعتك فاستخر الله حتى توفي أمير المؤمنين، فما أحد من اخوانه، وولده وأهل بيته وخاصته أطف منه منزلة، ولا أحمد لهم أثره، ولا هو لهم أنظر، ولا عليهم أشفق وبهم أبر، وإليهم أسكن منه إليك، والسلام عليك ورحمة الله وبركاته».
- وكتب هذه الرسالة إبراهيم بن العباس في شهر جمادي الآخرة سنة ٢٣٤هـ. الارشاد / ٢٧٥ - ٢٧٦.
- (٢٠). إثبات الوصية / ٢٢٨.
- (٢١). الامام علي الهادي من المهدي إلى اللحد / ٤٤٠ بالاستناد إلى كشف الغمة.
- (٢٢). وفي هذه السنة (٢٢٨هـ) غلا السعر بطريق مكة فبلغ رطل الخبز بدرهم وراوية الماء بأربعين درهماً، واصاب الناس في الموقف (عرفات) حرّ شديد ثم مطر شديد وبرّد، فأضرّ بهم شدة الحرّ ثم شدة البرد في ساعة واحدة ومطروا بمنى في يوم النحر مطراً شديداً لم يروا مثله، وسقطت قطعة من الجبل عند جمرة العقبة، قتلت عدّة من الحجاج». الطبري: ٧ / ٣١٨.
- (٢٣). إثبات الوصية / ٢٣٤.
- (٢٤). مروج الذهب، إثبات الوصية / ٢٣٤.
- (٢٥). بات علي بن أبي طالب عليه السلام على فراش النبي عندما حيكت ضد الرسول ﷺ أخطر محاولة لاغتياله.
- (٢٦). إثبات الوصية / ٢٣٦.
- {٣٠٠}
- (٢٧). ولد الامام وكان محمد في الثالثة من عمره ويكبر أخاه الحسن بسنة.
- (٢٨). تيار فكري، جمد على ظاهر آيات القرآن الكريم فرسم صورة لله تبارك وتعالى تشبه الانسان، وقد شجع المتوكل هذه الافكار لضرب المعتزلة.
- (٢٩). تاريخ يعقوبي: ٣ / ٢٠٩.
- (٣٠). إثبات الوصية / ٢٣٧.
- (٣١). حياة الامام الهادي / ١٣٧.
- (٣٢). المصدر السابق / ١٣٦.
- (٣٣). تذكرة الخواص / ٣٥٩.
- (٣٤). المصدر السابق.
- (٣٥). وروي عن يحيى بن هرثمة قال: «رأيت من دلائل أبي الحسن عليه السلام الأعاجيب في طريقنا؛ منها: انا نزلنا منزلاً لا ماء فيه فاشفينا ودوابنا وجمالنا من العطش على التلف، وكان معنا جماعة وقوم قد تبعونا من أهل المدينة، فقال أبو الحسن عليه السلام: كأنني أعرف على أميال موضع ماء. فقلنا له: ان نشطت وتفضلت عدلت بنا إليه وكنا معك.

فعدل بنا عن الطريق فسرنا نحو ستة أميال فأشرفنا على واد كأنه زهر الرياض فيه عيون وأشجار وزروع وليس فيها زارع ولا فلاح ولا أحد من الناس، فتنلنا وشربنا وسقينا دوابنا وأقمنا إلى بعد العصر ثم تزودنا وارثونا وما معنا من القرب ورحنا راحلين. فلم نعد أن عطشت وكان لي مع بعض غلماني كوز فضة يشده في منطقتة وقد استسقيته فلجلج لسانه بالكلام.. ونظرت فاذا هو قد أنسي الكوز في المنزل الذي كنا فيه فرجعت أضرب بالسوط على فرس لي جواد سريع وأغذ السير حتى أشرفت على الوادي فرأيتة جذباً يابساً قاحلاً مَحَلَّاً ماء فيه ولا زرع ولا خضرة ورأيت موضع رحالنا وروث دوابنا وبعر الجمال ومناخاتهم والكوز موضوع في موضعه الذي تركه الغلام، فأخذته وانصرفت، ولم أعرفه شيئاً من الخبر. فلما قربت من القطر والعسكر وجدته عليه السلام واقفاً ينتظر فتبسم (صلى الله عليه) ولم يقل لي شيئاً ولا قلت له سوى ما سألت من وجود الكوز فأعلمته اني وجدته. اثبات الوصية / ٢٣٤.

(٣٦). الامام الهادي دراسة وتحليل / ٣١٣.

(٣٧). نور الابصار / ١٦٤ - بحار الانوار: ١٣ / ١٢٧.

(٣٨). تاريخ الطبري: ٧ / ٣٩٩.

(٣٩). الارشاد / ٣٧٦.

(٤٠). وهذه القناة مكنت من تموين المسجد الجامع بالمياه الدائمة فجعل فيه على قول اليعقوبي «فواراة ماء، لا ينقطع ماؤها». موسوعة العتبات المقدسة سامراء: ١٢ / ٢٠٩.

(٤١). تاريخ بغداد: ١٢ / ٥٧.

(٤٢). «ولكن المتوكل، وهو الذي كان له ولع خاص بمثل هذه المشاريع العامة، لم يقنع بهذا فبذل قصارى جهده لتحقيق مشاريع الري على الجانب الذي تقع فيه عاصمته.. فكان أول مشروع قام به بعد توليه الخلافة المشروع المعروف بـ «قناة المتوكل» أو «قناة سامراء» الذي يؤمن ايصال المياه إلى عاصمته سامراء

{٣٠١}

بطريقة الري الجوفي المعروف بري «الكهاري». ويشتمل هذا المشروع على كهريزين ضخمين يستعمل أحدهما في الشتاء والآخر في الصيف، وهما يستمدان المياه من نهر دجلة شمالي الدور فيسيران حوالي أربعين كيلو متراً حتى يصلا إلى قلب العاصمة. وقد مد المتوكل هذين الكهريزين إلى الجنوب ليخترقا المطيرة ثم يسيران إلى ما يجاور القادسية. وبفضل هذا المشروع تمكن المتوكل من انشاء مشاريعه الجبارة في قلب العاصمة والتوسع شرقي سامراء باتجاه منطقة الخير، ومن أهم هذه المشاريع انشاء حوض للسباحة خلف «دار الخليفة» وهو الحوض المعروف اليوم باسم «بركة السباع»، ثم البركة الواسعة الواقعة في الجهة الشمالية الغربية من هذه البركة، وأخيراً حلبة السباق وتلها الذي يشرف عليها المعروف باسم «تل العليق» وهي الحلبة التي أنشأها المتوكل في جهة الخير.. وهذه القناة هي التي مكنت المتوكل من تموين المسجد الجامع الذي أنشأه في أول الخير بالمياه الدائمة فجعل فيه على قول اليعقوبي «فواراة ماء لا ينقطع ماؤها». موسوعة العتبات المقدسة سامراء: ١٢ / ٢٠٩.

(٤٣). الطبري: ٧ / ٣٩٨ والشاعر هو علي بن الجهم.

(٤٤). المصدر السابق / ٣٩٧.

(٤٥). وقد سجل الطبري صورة مفصلة عن وحشية السلطات في قمع الثورات:

«ذكر أن السبب في ذلك كان أن المتوكل كان اعتلّ في هذه السنة وكان مع ابن البعث رجل يخدمه يسمى خليفة فأخبره بأن المتوكل قد توفي وأعد له دواب فهرب هو وخليفة الذي أخبره الخبر إلى موضعه من آذربيجان وموضعه منها مرند وقيل كانت له قلعتان تدعى إحداهما شاهي والأخرى يكدر ويكدر خارج البحيرة وشاهي في وسط البحيرة والبحيرة قدر خمسين فرسخاً من حد أرمية إلى رستاق داخرقان بلاد محمد بن الرواد وشاهي قلعة ابن البعث حصينة يحيط بها ماء قائم ثم يركب الناس من أطراف المراغة إلى أرمية وهي بحيرة لاسمك فيها ولا خير . وذكر أن ابن البعث كان في حبس إسحاق بن إبراهيم ابن مصعب فتكلم فيه بغا الشراي وأخذ منه الكفلاء نحواً من ثلاثين كفيلاً منهم محمد بن خالد بن يزيد ابن مزيد الشيباني فكان يتردد بسامراً فهرب إلى مرند فجمع بمروند الطعام وفيها عيون ماء فرم ما كان وهي من سورها وأتاه من أراد الفتنة من كل ناحية من ربيعة وغيرهم فصار في نحو من ألفين ومائتي رجل.. وكان الوالي بأذربيجان محمد بن حاتم بن هرثة فقصر في طلبه فولى المتوكل حمدويه ابن علي بن الفضل السعدي آذربيجان ووجهه من سامراً على البريد فلما صار إليها جمع الجند والشاكرية ومن استجاب له فصار في عشرة آلاف فرحف إلى ابن البعث فألجأه إلى مدينة مرند وهي مدينة استدارتها فرسخان وفي داخلها بساتين كثيرة ومن خارجها كما تدور شجر الا في موضع أبوابها وقد جمع فيها ابن البعث آلة الحصار وفيها عيون ماء فلما طالت مدته وجه المتوكل زيرك التركي في مائتي ألف فارس من الأتراك فلم يصنع شيئاً فوجه إليه المتوكل عمرو بن سيسل بن كال في تسعمائة من الشاكرية فلم يغب شيئاً فوجه إليه بغا الشراي في أربعة آلاف ما بين تركي وشاكري ومغربي وكان حمدويه بن علي وعمر بن سيسل وزيرك زحفوا إلى مدينة مرند وقطعوا ما حولها من الشجر فقطعوا نحواً من مائة ألف شجرة وغير ذلك من شجر الغياض ونصبوا عليها عشرين منجنيقاً وبنوا بجذاء المدينة ما يستكنون فيه ونصب عليهم ابن البعث من المجانيق مثل ذلك وكان معه من علوج رسائقه يرمون بالمقاليع فكان الرجل لا يقدر على الدنو من سور المدينة فقتل من أولياء السلطان في حربه في ثمانية

{٣٠٢}

أشهر نحو مئة رجل وجرح نحو من أربعمائة وقتل وجرح من أصحابه مثل ذلك وكان حمدويه وعمر وزيرك يغادونه القتال ويرأونه وكان السور من قبل المدينة ذليلاً ومن القرار نحواً من مئة عشرين ذراعاً وكانت الجماعة من أصحاب ابن البعث يتدلون بالحبال معهم الرماح فيقاتلون فإذا حمل عليهم من أصحاب السلطان لجؤوا إلى الحائط وكانوا ربما فتحوا باباً يقال له باب الماء فيخرج منه العدة يقاتلون ثم يرجعون ولما قرب بغا الشراي من مرند بعث فيما ذكر عيسى بن الشيخ بن السليل الشيباني ومعه أمانات لوجه أصحاب ابن البعث ولا بن البعث أن ينزلوا وينزل على حكم أمير المؤمنين وإلا قاتلهم فان ظفر بهم لم

يستبق منه أحداً ومن نزل فله الأمان وكان عامة من مع ابن البعيث من ربيعة من قوم عيسى بن الشيخ فنزل منهم قوم كثير بالحبال ونزل ختن ابن البعيث على أخته أبو الأغر. وذكر عن أبي الأغر هذا أنه قال ثم فتحوا باب المدينة فدخل أصحاب حمدويه وزيرك وخرج ابن البعيث من منزله هارباً يريد أن يخرج من وجه آخر فلحقه قوم من الجند معهم منصور قهرمانه وهو راكب دابة يريد أن يصير إلى نهر عليه رعى ليستخفي في الرحى وفي عنقه السيف فأخذه أسيراً وانتهب الجند منزله ومنازل أصحابه وبعض منازل أهل المدينة ثم نودي بعدما انتهب الناس برئت الذمة ممن انتهب وأخذوا له أختين وثلاث بنات وخالته والبواقي سراري فحصل في يد السلطان من حرمه ثلاث عشرة امرأة وأخذ من وجوه أصحابه المذكورين نحو من مائتي رجل وهرب الباقيون فوافاهم بغا الشرايبي من غد فتأذى مناديه بالمنع من النهب فكتب بغا الشرايبي بالفتح لنفسه. الطبري: ٧ / ٣٤٩ - ٣٥٠.

(٤٦). تاريخ العباسين لابن وادرن / ٦٢٣.

(٤٧). كان إيتاخ طباحاً في قصر الخليفة - المصدر السابق / ٥٨٢.

(٤٨). المصدر السابق.

(٤٩). «ثم دس المتوكل إلى إيتاخ من يشير عليه بالحجج فاستأذن المتوكل في الحج ولم يعلم انه دسيصة» المصدر السابق.

(٥٠). سير اعلام النبلاء: ٨ / ١٥٣.

(٥١). حياة الامام الهادي / ٥٣.

(٥٢). المصدر السابق / ٥١.

(٥٣). بحار الانوار: ٩٤ / ١٧٩.

(٥٤). الطبري: ٧ / ٣٤٧.

(٥٥). الكافي: ٧ / ٤٩٦.

(٥٦). عيون أخبار الرضا باب ٢٨ حديث ٩١.

(٥٧). بحار الانوار: ٥٠ / ١٢٥.

(٥٨). عرف عن علي بن الجهم حقه وعداؤه الشديد للإمام علي لأن قبيلته كانت قد طلبت الانتساب إلى قريش في زمن أبي بكر وعمر فرفضوا ذلك ثم جاء عثمان فأدخلها في قريش، وعندما تصدى الإمام علي للخلافة، ألغى اجراء عثمان، فأعلنوا ارتدادهم عن الإسلام، وقد سأله المتوكل عن صحة ذلك فانكر وقال هذه دعوى الرافضة، وشمتم القوم. تاريخ العباسيين / ٦٢٠.

(٥٩). الحماي الأفوه أبو الحسين علي بن محمد بن جعفر بن محمد بن زيد الشهيد.

حِمْان - بكسر المهملة وتشديد الميم - محلة بالكوفة، والنسبة إلى حِمْان قبيلة من تميم، وهم بنو حِمْان بن عبد العزيز بن كعب بن سعد بن زيد مناة بن تميم. في الرعي الأول من فقهاء العترة ومدرسيهم في عاصمة التشيع بالعراق في القرون الأولى - الكوفة - وفي السنام الأعلى من خطباء بني هاشم وشعرائهم

المفلقين، وقد سار بذكره وبشعره الركبان، وعرفه القريب والبعيد بحسن الصياغة وجودة السرد، أضف إلى ذلك علمه الغزير، ومجده الأثيل، وسؤدده الباهر، ونسبه العلوي الميمون، وحسبه الواضح، إلى فضائل جمة تسنمت به إلى ذروة المجد.

أثنى عليه المسعودي في مروج الذهب في كلام يأتي له، وقال: كان علي بن محمد الحِماني مفتيهم بالكوفة، وشاعرهم ومدرسهم ولسانهم، ولم يكن أحدًا بالكوفة من آل علي بن أبي طالب يتقدمه في ذلك الوقت. وذكره النسابة العمري في المجدي وأطراه بما ملخصه: كان مشهوراً بالشعر، رثى يحيى بن بن عمر، وكان أشعر ولد أبيه يكتى أبا الحسين. وقال في ترجمة الشريف الرضي: هو أشعر قريش إلى وقتنا، وحسبك أن يكون قريش في أولها الحارث بن هاشم والعبلي، وعمر بن أبي ربيعة، وفي آخرها بالنسبة إلى زمانه محمد بن صالح الموسوي، وعلي بن محمد الحِماني. المحاسن والاضداد للجاحظ / ٩٠.

(٦٠). بحار الانوار: ١٣ / ١٣١. اعيان الشيعة: ٤ / ٢٧٤.

(٦١). وتم تعيينه حاجبا بتاريخ ١٨ ذى القعدة سنة ٢٣٤. الطبري: ٧ / ٣٥١.

(٦٢). حياة الامام الهادي / ٤٣.

(٦٣). الطبري: ٧ / ٣٥١ - ٣٥٢.

(٦٤). الطبري: ٧ / ٣٥٣.

(٦٥). اخبار العباسيين / ٥٨٦.

(٦٦). الطبري: ٧ / ٣٥٣.

(٦٧). احداث التاريخ الإسلامي بترتيب السنين: ١ / ١٣١٨.

(٦٨). كان الجاحظ قد زج في السجن بسبب علاقاته مع الوزير محمد بن عبد الملك الزيّات الذي توفي تحت التعذيب مطلع سنة ٢٣٢هـ.

(٦٩). قال الجاحظ: «ذكرت للمتوكل لتعليم ولده فلما مثلت بين يديه استبشع منظري فأمر لي بعشرة آلاف درهم، وصوفني» تاريخ العباسيين / ٥٩٣.

(٧٠). وحدثنني بعض شيوخنا إن ايتاخ كان موته بالعطش، وانه أطلع فاستقى فمنع الماء حتى مات عطشاً. الطبري: ٧ / ٣٥٣.

(٧١). راجع الملحق رقم «١» النص الكامل لرسالة الامام علي الهادي في الجبر والتفويض.

(٧٢). موسوعة العتبات المقدسة. سامراء: ١٢ / ٣٠٦.

(٧٣). المصدر السابق: ١٢ / ٢٠٣ بالاستناد إلى ثمار القلوب للثعالبي أبو منصور.

(٧٤). المصدر السابق: ١٢ / ٣٠٦.

(٧٥). العقد الفريد: ٦ / ٤٣٠.

(٧٦). فوات الوفيات: ٢ / ٣٥٦.

(٧٧). «قطرل» في ضواحي بغداد مشهورة بمعاصر الكروم.

(٧٨). التحف والهدايا / ٢٨ تحقيق سامي الدهان.

(٧٩). الزبير الذي لقب بالمعتر.

(٨٠). الامام الهادي من المهد إلى اللحد / ٤٤٣.

(٨١). الطبري ٧ / ٣٦٣.

(٨٢). دوائر المعارف للبستاني: ٧ / ٤٥.

(٨٣). بحار الانوار: ٥٠ / ١٤١.

(٨٤). الامالي: ١ / ٢٩٣.

(٨٥). الامام علي الهادي من المهد إلى اللحد / ٢٤٤.

(٨٦). احداث التاريخ الإسلامي: ١ / ١٣٢٢.

(٨٧). المصدر السابق: ١ / ١٣٢٨.

ديك الجن: هو عبدالسلام بن رغبان بن حبيب الكلبي. اشتهر بلقب ديك الجن، لأن عينيه كانتا خضراوين. شاعر مجيد من شعراء العصر العباسي، يذهب مذهب أبي تمام والشاميين في شعره. كان يتشيع تشيعاً حسناً، ومعظم مراثيه في آل البيت. كان يحب جارية نصرانية تدعى (ورداً) من أهل حمص، هواها وتمادى به الأمر حتى غلبت عليه وذهبت به، فلما اشتهر بها دعاها إلى الإسلام ليتزوج بها، فأجابته لعلمها برغبته فيها، فأسلمت على يده فتزوجها وفيها يقول:

أَنْظُرْ إِلَى شَمْسِ الْقُصُورِ وَبَدْرِهَا	وَالِى خَزَامَاهَا وَبَهْجَةِ زَهْرَهَا
لَمْ تَبْلُ عَيْنُكَ أَيْضاً فِي أَسْوَدَ	جَمَعَ الْجَمَالَ كَوَجْهَهَا فِي شَعْرَهَا
وَرَدِيَّةَ الْوَجَنَاتِ يَحْتَبِرُ اسْمَهَا	مَنْ رَيْقَهَا مَنْ لَا يُحِيطُ بِخَبْرَهَا
وَتَمَايَلَتْ فَضَحَكْتُ مِنْ أَرْذَاهَا	عَجَباً وَلَكِنِّي بَكَيْتُ لِحُضْرَهَا
تُسْقِيكَ كَأْسَ مُدَامَةٍ مِنْ كَفِّهَا	وَرَدِيَّةَ وَمُدَامَةَ مِنْ قَفْرِهَا

ثم دس حسادها عليه إنها كانت تحونه وهو غائب، فقتلها، ثم علم الحقيقة فندم ومكث شهراً لا يستفيق من البكاء ولا يطعم من الطعام إلا ما يقيم رمقه، وقال في ندمه على قتلها:

يَا طَلْعَةَ طَلَعِ الْجَمَامِ عَلَيْهَا	وَجَنَى لَهَا ثَمَرَ الرَّدَى بِيَدَيْهَا
رَوَيْتُ مِنْ دَمِهَا الثَّرَى وَلَطَّالِمَا	رَوَى الْهُوَى شَفْطِي مِنْ شَفْطَيْهَا
قَدْ بَاتَ سَيْفِي فِي مَجَالٍ وَشَاحِهَا	وَمَدَامِعِي تُجْرِي عَلَى خَدَيْهَا
فَوَحَقَّ نَعْلَيْهَا وَمَا وَطِئَ الْحَصَى	شَيْءٌ أَعَزُّ عَلَيَّ مِنْ نَعْلَيْهَا
مَا كَانَ قَتْلُهَا لِأَنِّي لَمْ أَكُنْ	أَبْكِي إِذَا سَقَطَ الذُّبَابُ عَلَيْهَا

لَكُنْ صَنَنْتُ عَلَى الْعَيُونِ بِحُسْنِهَا وَأَنْقَضْتُ مِنْ نَظَرِ الْحُسُودِ إِلَيْهَا
له أقوال في الحكمة منها قوله:

يُرْقُودُ النَّاسُ أَمْنَيْنِ وَرَيْبُ الدَّهْرِ يَرَعَاهُمْ بِمَقْلِهِ لَصٌّ

أصله من مدينة (سلمية)، قرب مدينة (حماء) ومولده ووفاته في مدينة (حمص). لم يفارق الشام، ولم ينتجع بشعره. توفي عن ٧٤ عاماً. الأعلام: ٤ / ١٢٨، وفيات الأعيان: ٣ / ١٨٤، الأغاني: ١٤ / ٥١ وما بعدها. (٨٨). الطبري: ٧ / ٣٦٣.

(٨٩). المصدر السابق.

(٩٠). أحداث التاريخ الإسلامي: ١ / ١٣٢٢.

(٩١). أحداث التاريخ الإسلامي: ١ / ١٣٢٣.

(٩٢). زوجة المتوكل كانت في الاصل جارية يونانية «موسوعة العتبات المقدسة» سامراء: ١٢ / ٢٦١. ثم ما لبثت ان استولت على قلب سيدها واصبحت زوجته الوحيدة حيث طلق الخليفة زوجته العربية «ريطة» التي رفضت السفور والتشبه بالغلمان.

(٩٣). البه الجمل والحب لدى اليونان، ولدت من زبد البحر. المعتقدات الدينية لدى الشعوب / ٣٨٢، سلسلة عالم المعرفة / ١٧٣ الكويت.

(٩٤). تاريخ العباسيين لابن وادان / ٦٢٨.

(٩٥). نجحت أمه في اقناع زوجها فيما بعد ذلك بعد عشرات الدسائس حيث وقفت أسرة آل خاقان إلى جانب اطماعها وكونوا معاً اخطبوطاً رهيباً في الدولة.

(٩٦). أحداث التاريخ الإسلامي: ١ / ١٣٢٢.

(٩٧). الطبري: ٧ / ٣٦٤.

(٩٨). الشاعر هو يعقوب بن يزيد التمار - الامام الهادي دراسة وتحليل / ٣٢٥ بالاستناد إلى «سامراء في القرن الثالث الهجري» / ١٧٢.

(٩٩). خطط المقرئ: ٤ / ١٥٣.

(١٠٠). الطبري: ٧ / ٣٦٥.

(١٠١). توفي زنام الزامر أواخر سنة ٢٣٥هـ كان من مطربي خلفاء بني العباس منذ عهد الرشيد اشتهر بعزفه على الناي / الاعلام: ٣ / ٨٣.

(١٠٢). انثى الحمار.

(١٠٣). مروج الذهب: ٤ / ٤٣.

(١٠٤). حياة الامام الهادي دراسة وتحليل / ٣٠٢.

(١٠٥). ابن الاثير: ٧ / ٥٥.

(١٠٦). الطبري: ٧ / ٣٦٦.

- (١٠٧). الامام الهادي دراسة وتحليل / ٣٠٢.
- (١٠٨). الطبري: ٧ / ٣٦٩.
- (١٠٩). نادل الخليفة والمسؤول عن اعداد مائدة الشراب والسكر.
- (١١٠). كرخ سامراء المعروف بكرخ فيروز.
- (١١١). الطبري: ٧ / ٣٦٦، بحار الانوار: ٥٠ / ١٨٦.
- (١١٢). الطبري: ٧ / ٣٦٦.
- (١١٣). المصدر السابق: ٧ / ٣٦٥.
- (١١٤). الامام الهادي من المهدي إلى اللحد / ٤٩ بالاستناد إلى أمالي الشيخ الطوسي.
- (١١٥). المصدر السابق / ٤٣ بالاستناد إلى تاريخ بغداد.
- (١١٦). الطبري: ٧ / ٣٦٥.
- (١١٧). المصدر السابق: ٧ / ٣٦٧.
- (١١٨). راجع تفاصيل هروب زوجة المتوكل سنة ٢٥٥. الطبري: ٧ / ٥٢٩.
- (١١٩). الامام الهادي من المهدي إلى اللحد / ٥٦ بالاستناد إلى مروج الذهب. يقول البحري الشاعر: فوالله ما انتضي ذلك السيف، ولا خرج من غمده إلا في الليلة التي ضربه فيها باغر بذلك السيف». مروج الذهب للمسعودي.
- (١٢٠). «أحلف بالله لو لم يقتل المتوكل لما عاش من كثرة جماعه». أحد عبيد القصر - مرآة الزمان: ٦ / ٦٩.
- (١٢١). تفرغ نهري من دجلة ١٢٠ كم شمال بغداد.
- (١٢٢). من قصور المتوكل وقد كلف بناؤه ١/٧٠٠/٠٠٠ دينار.
- (١٢٣). سَمِعَ الخليفة يشتم السيدة فاطمة الزهراء عليها السلام. الأمالي للشيخ الطوسي.
- ويقول الطبري: «وذكر أن المنتصر كان قد شاور في قتل أبيه جماعة من الفقهاء وأعلمهم بمذاهبه وحكى عنه أموراً قبيحة كرهت ذكرها في الكتاب فأشاروا عليه بقتله». الطبري: ٧ / ٤١٥.
- (١٢٤). قال البحري: يصف ذلك:
- | | |
|------------------------------|-------------------------|
| غنينا على قصر يسير بفتيه | قعود على ارجائه وقيام |
| تظلل البزاة البيض تخطف حولنا | جأجأ طير في السماء سوام |
| فلم أر كالمطول يحمل ماؤه | تدفق بحر بالسماحة طام |
| ولا جبلا كأنزو يوقف تارده | وينقاد إمّا قدته بزمام |
- ديوان البحري: ٣ / ٢٠٢.
- (١٢٥). حياة الحسن العسكري دراسة وتحليل / ٢٣٦.
- (١٢٦). الامام الهادي من المهدي إلى اللحد / ٤٧ بالاستناد إلى أمالي الشيخ الطوسي.

- (١٢٧). المصدر السابق / ٥١ بالاستناد إلى أمالي الشيخ الطوسي.
- (١٢٨). حياة الامام الحسن العسكري دراسة وتحليل / ٢٣٦.
- (١٢٩). نسبت هذه الابيات إلى عالم العربية ابن السكيت، مرآة الزمان: ٦ / ١٣٦، وإلى الشاعر البسامي أيضاً، فوات الوفيات: ١ / ٢٠٣.
- (١٣٠). اثبات الوصية للمسعودي / ٢٤.
- (١٣١). بحار الانوار: ١٣ / ١٤٢.
- (١٣٢). اثبات الوصية / ٢٤٠.
- (١٣٣). المصدر السابق / ٢٤١.
- (١٣٤). يقول أبو حماد الرازي: دخلت على علي بن محمد عليه السلام بسر من رأى فسألته عن أشياء من الحلال والحرام فأجابني عنها، فلما ودعته قال لي: يا حماد إذا أشكل عليك شيء من أمر دينك فسل عنه «عبدالعظيم الحسني» وأقرأه مني السلام». معجم رجال الحديث: ١٠ / ٥٢.
- من ذرية الامام الحسن السبط عليه السلام، كان عالماً وفقياً، وبلغ من شدة تفرجه وتدينه أنه عرض على الامام عقائده قائلاً:
- «اني اقول ان الله تبارك وتعالى ليس كمثله شيء، خارج عن الحدين: حدّ الابطال وحدّ التشبيه، وانه ليس بجسم ولا صورة ولا عرض ولا جوهر، بل هو مجسم الاجسام، ومصور الصور وخالق الأعراض والجواهر، ورب كل شيء ومالكة، وجاعله ومحدثه.
- وان محمداً عبده ورسوله خاتم النبيين فلا نبي بعده إلى يوم القيامة، وان شريعته خاتمة الشرائع، فلا شريعة بعدها إلى يوم القيامة.
- وأقول: ان الامام والخليفة، وولي الأمر بعده أمير المؤمنين علي بن أبي طالب».
- فقال الامام علي الهادي عليه السلام «يا أبا القاسم هذا والله دين الله الذي ارتضاه لعباده فاثبت عليه، ثبتك الله بالقول الثابت في الحياة الدنيا والآخرة»... ولقد لوحق هذا السيد الكريم فاضطر إلى الاختفاء عن الانظار فهرب إلى الري.. وهناك اخفى هويته إلى أن توفي ومرقده الآن جنوب العاصمة الايرانية طهران حيث يؤمّه مئات الآلاف من المؤمنين لزيارته سنوياً. وسائل الشيعة: ١ / ١٣.
- (١٣٥). اثبات الوصية / ٢٤١.
- (١٣٦). بحار الانوار: ١٣ / ١٤٢.
- (١٣٧). تاريخ اليعقوبي: ٣ / ٢٢٢.
- (١٣٨). موسوعة العتبات المقدسة: ١٢ / ٢٣٨.
- (١٣٩). الامام الهادي من المهد إلى اللحد / ٢٤٥.
- (١٤٠). الكافي: ٣ / ٤٤٢.
- (١٤١). عالج: كتمان رملية تمتد من «الدهناء» وحتى «نجد» في شبه جزيرة العرب.

(١٤٢). الكافي: ٦ / ٥٣٢.

(١٤٣). حياة الامام الهادي دراسة وتحليل / ٢٦٤ بالاستناد إلى كتاب الخراج للراوندي.

(١٤٤). بحار الانوار: ١٣ / ١٢٩.

(١٤٥). حياة الامام الهادي دراسة وتحليل / ٢٦٥.

(١٤٦). وفيات الأعيان: ١ / ٢٩: وقد علق على الرسالة ابن خلكان: «وهذا الكلام مع وجازته في غاية الابداع».

(١٤٧). أمالي المرتضى: ١ / ٤٨٥.

(١٤٨). ومن روائع شعره في مدح الامام الرضا عليه السلام:

على أهله عادلاً شاهداً

كفى بفعال امرئ عالماً

ولا يشبهه الطارف التالداً

أرى لهم طارفاً موقفاً

وثعطون من مئة واحداً

يمنّ عليكم بأموالكم

أمالي المرتضى: ١ / ٤٨٥، أعيان الشيعة: ٦ / ١٦.

وله شعر ينضح حكمة ووعياً للحياة:

ذرعباً وعند الله منها المخرج

ولرب نازلة يضيق بها الفتى

فرُجبت وكنيت أظنّها لا تفرج

ضاقت فلما استحكمت حلقاتها

وفيات الأعيان: ١ / ٢٩.

(١٤٩). تاريخ العباسيين / ٥٩٢.

(١٥٠). وهذه قائمة ببعض القصور التي بناها المتوكل:

١ - الجعفري وكلفة بنائه ٢/٠٠٠/٠٠٠ دينار غير نفقات التدشين التي منحت كهدايا للمغنين ٢/٠٠٠/٠٠٠ درهم،

معجم البلدان: ٢ / ١٤٣، تاريخ الطبري: ٩ / ٢١٢.

٢ - البرج ١/٧٠٠/٠٠٠ دينار وقد صمّم وفق الروايات التي وصفت قصر سليمان النبي، تاريخ يعقوبي: ٢ /

٢٢٢، الديارات / ١٠٣.

٣ - المليح ٥/٠٠٠/٠٠٠ درهم، ديوان البحري: ٢ / ٣٩٧، معجم البلدان: ٣ / ١٧٥.

٤ - الشبنذاز ١٠/٠٠٠/٠٠٠ درهم معجم البلدان: ٣ / ٣١٩.

٥ - المليح ٥/٠٠٠/٠٠٠ درهم معجم البلدان: ٥ / ٧٠.

٦ - المختار ١/٠٠٠/٠٠٠ درهم معجم البلدان: ٤ / ١٩٢.

٧ - بلكوارا ٢٠/٠٠٠/٠٠٠ درهم، كما كلفت نفقات وليمة تدشينه ٨٦/٠٠٠/٠٠٠ درهم وقد ضربت مثلاً في

الاسراف، معجم البلدان: ٣ / ١٧٥.

٨ - الحير ٤/٠٠٠/٠٠٠ درهم، معجم البلدان: ٢ / ٣٢٨.

٩ - اضافة إلى برك المياه والمسايح، وحلبة كبرى لسباق الخيل.

(١٥١). استقبله الشاعر ابو العتاهية بقوله:

لو كنت في الرأي منسوباً إلى رشد وكان عزمك عزمأ فيه توفيق
لكان في الفقه شغلٌ لوقنعت به عن أن تقول كلام الله مخلوق
ماذا عليك وأصل الدين يجمعهم ما كان في الفزع لولا الجهل والموق

الطبري: ٧ / ٢٦٨، تاريخ العباسيين / ٥٩٢.

(١٥٢). تقول الاسطورة اليونانية: «ان الانسان إذا ما ذاق قطعة من لحم أخيه الانسان، فإنه يتحول حتماً إلى ذئب». الجمهورية لافلاطون - ترجمة فؤاد زكريا / ٥٦٦.

(١٥٣). الطبري: ٧ / ٣٧١.

(١٥٤). ضواحي بغداد وتقابل الشماسية في الرصافة في خارطة بغداد العباسية.

(١٥٥). الطبري: ٧ / ٣٧٢.

(١٥٦). اصدر المتوكل أوامر مشددة بهدم جميع الكنائس التي تم انشائها في عهد الإسلام، واتخذت اجراءات مذلّة للنصارى مما جعلهم يشاركون في القلاقل التي ثارت ضد الحكم العباسي. احداث التاريخ الإسلامي: ١ / ١٣٤٣.

(١٥٧). الفهرست لابن النديم / ١٦٢.

(١٥٨). لقب بابن السكيت لكثرة سكوته.

(١٥٩). حياة الامام الهادي دراسة وتحليل / ٢٤٢، الكافي: ١ / ٢٤.

(١٦٠). الأمالي: ٢ / ١٩٣.

(١٦١). حياة الامام الهادي دراسة وتحليل / ١٣٩ بالاستناد إلى بحار الانوار الجزء الرابع.

(١٦٢). يصف المتوكل الامام الهادي بالأسود لسمرة / الامام الهادي من المهد إلى اللحد / ٦٣ بالاستناد إلى ثاقب المناقب / مخطوط.

(١٦٣). حياة الامام الهادي دراسة وتحليل / ٢٤٤ - راجع الملحق رقم (٢).

(١٦٤). غافر: الآيتان: ٨٣ - ٨٤.

(١٦٥). حياة الامام الهادي دراسة وتحليل / ٢٤٠.

(١٦٦). اشتهر عن القاضي ابن اكثم اللوات بل وتجويزه ذلك مستدلاً بالآية الواردة في سؤاله.

(١٦٧). مناقب ابن شهر آشوب: ٤ / ٤٠٦، تحف العقول / ٤٨١.

(١٦٨). تاريخ العباسيين / ٦١٩ - ٦٢٠.

(١٦٩). الطبري: ٧ / ٣٧٢.

- (١٧٠). «وكانت الحكومة إذا إرادت أن تعاقب شيعياً لمذهبه لم تذكر إسم علي بل يجعل سبب العقوبة انه شتم أبا بكر وعمر. الامام الصادق والمذاهب الاربعة: ١ / ٢٢٧.
- (١٧١). الطبري: ٧ / ٣٧٥.
- (١٧٢). الطبري: ٧ / ٣٧٤.
- (١٧٣). المصدر السابق: ٧ / ٣٧٦.
- (١٧٤). المصدر نفسه.
- (١٧٥). المصدر نفسه: ٧ / ٣٧٨.
- (١٧٦). بحار الانوار: ٥٠ / ١٩٤.
- (١٧٧). عيون الاخبار: ٢ / باب ٦٦ ح ٣٢.
- (١٧٨). بحار الانوار: ٥٠ / ١٩٤.
- (١٧٩). حياة الامام الهادي دراسة وتحليل / ١٦٥.
- (١٨٠). احداث التاريخ الإسلامي: ١ / ١٣٥٧.
- (١٨١). تاريخ العباسيين / ٥٩١.
- (١٨٢). موسوعة العتبات المقدسة: ١٢ / ٨١.
- (١٨٣). وفيات الاعيان: ٦ / ١٤٧.
- (١٨٤). كانت سامراء تدعى أيضاً بـ «العسكر» لأنها انشئت في الأصل لتكون قاعدة للجيش التركي.
- (١٨٥). بحار الانوار: ١٣ / ١٣٣.
- (١٨٦). حياة الامام الهادي دراسة وتحليل / ٤٦.
- (١٨٧). احداث التاريخ الإسلامي: ١ / ١٣٥١.
- (١٨٨). الحائر: تعبير عن كربلاء وقد عرفت بهذا الاسم بعد اقدام المتوكل على اغراق المنطقة بالمياه فلم تغمر المياه البقعة الطاهرة حيث هوى الحسين شهيداً.
- (١٨٩). الامام الهادي من المهد إلى اللحد / ٢٥٤.
- (١٩٠). المصدر السابق / ٢٥٠.
- (١٩١). الكافي: ٤ / ٥١٧.
- (١٩٢). المصدر السابق: ٦ / ٥٣٢.
- (١٩٣). «فوجه المتوكل رجلاً من الشيعة يقال له نصر بن الازهر ليعرف صحة من في أيدي الروم من أسرى المسلمين، وذلك في شعبان من هذه السنة». الطبري: ٧ / ٣٧٦.
- (١٩٤). وكانت «تيودورا» امبراطورة الروم قد ارتكبت بحق الأسرى المسلمين مذبحه كبرى راح ضحيتها ١٢/٠٠٠ مسلم. الطبري: ٧ / ٣٧٦.
- (١٩٥). معجم البلدان: ٣ / ٧٥.

- (١٩٦). ديوان البحري: ٢ / ٣٩٧.
- (١٩٧). مشارق أنوار اليقين للحافظ رجب البرسي / ٩٩.
- (١٩٨). سميت «قيحة» لجمالها الفائق.. اما اسمها الحقيقي فمجهول في التاريخ - سامراء في المراجع الغربية / موسوعة العتبات المقدسة: ١٢ / ٢٦٠.
- (١٩٩). معجم البلدان: ٣ / ١٧٥.
- (٢٠٠). الطبري: ٧ / ٢٥٨.
- (٢٠١). تاريخ العباسيين لابن وادان / ٥٩٥، ابن شهر آشوب: ٧ / ٩١، موسوعة العتبات المقدسة سامراء: ١٢ / ٢٥١.
- (٢٠٢). وفيات الاعيان: ٦ / ٣٩٥، تاريخ بغداد: ١٤ / ٢٧٣.
- (٢٠٣). حياة الامام الهادي دراسة وتحليل / ٢٢٦ بالاستناد إلى رجال الطوسي.
- (٢٠٤). الطبري: ٧ / ٣٨٠.
- (٢٠٥). المصدر السابق: ٧ / ٣٨١.
- (٢٠٦). المصدر نفسه.
- (٢٠٧). احداث التاريخ الإسلامي: ١ / ١٣٦٢.
- (٢٠٨). الكوميديا الارضية / ٧٧، نجيب محمود - دار الشروق.
- (٢٠٩). الامام الهادي من المهدي إلى اللحد / ٣١١.
- (٢١٠). أم المتوكل وهي جارية تركية.
- (٢١١). مآثر الكبراء: ٣ / ٢٢٧.
- (٢١٢). تحف العقول / ٤٨٢.
- (٢١٣). حياة الامام الهادي دراسة وتحليل / ١٥٥ بالاستناد إلى معاني الاخبار.
- (٢١٤). المصدر السابق / ١٥٣ بالاستناد إلى أمالي المفيد.
- (٢١٥). حياة الامام الهادي دراسة وتحليل / ٤٣.
- «وفد جماعة من أعلام الشيعة على الامام الهادي عليه السلام وهم أبو عمر و عثمان بن سعيد، وأحمد بن اسحاق الأشعري، وعلي بن جعفر الحمداني، فشكا إليه أحمد بن اسحاق ديناً عليه، فالتفت عليه إلى وكيله عمرو، وقال له: ادفع له ثلاثين ألف دينار، والى علي بن جعفر ثلاثين ألف دينار، كما أعطى وكيله مثل هذا المبلغ، وعلق ابن شهر آشوب على هذه المكرمة العلوية بقوله: «فهذه معجزة لا يقدر عليها إلا الملوك، وما سمعنا بمثل هذا العطاء» لقد وفر الله لهؤلاء الاعلام عيشاً رغيداً ينعمون به، ودفع عنهم ضائقة الفقر، ومن الطبيعي ان خير العطاء ما أبقي نعمة. حياة الامام الهادي دراسة وتحليل / ٤٣ بالاستناد إلى المناقب.
- (٢١٦). آل عمران: الآية ٢٢.

- (٢١٧). الزمر: الآية ٨.
- (٢١٨). الامام الهادي دراسة وتحليل / ٥١ بالاستناد إلى الاحتجاج للطبري.
- (٢١٩). كُسِبَ الشاة: البعر الملتصق بصوف الشاة.
- (٢٢٠). الكافي: ١ / ٤٩٩.
- (٢٢١). موسوعة العتبات المقدسة: ١٢ / ٦٤.
- (٢٢٢). نساء الخلفاء لابن الساعي / ٩٤.
- (٢٢٣). المصدر السابق.
- (٢٢٤). عشرة آلاف درهم.
- (٢٢٥). حياة الامام الهادي دراسة وتحليل / ٢٦٢ بالاستناد إلى اصول الكافي.
- (٢٢٦). سيرة الأئمة الاثني عشر: ٢ / ٥٥ هاشم معروف الحسيني - بالاستناد إلى رواية المفيد في الارشاد.
- (٢٢٧). حياة الامام الهادي دراسة وتحليل / ١٣٧ بالاستناد إلى الدر النظيم.
- (٢٢٨). المصدر السابق.
- (٢٢٩). المصدر نفسه.
- (٢٣٠). سيرة الأئمة الاثني عشر: ٢ / ٤٥٥.
- (٢٣١). اثبات الوصية / ٢٢٨.
- (٢٣٢). الطبري: ٧ / ٣٨٧.
- (٢٣٣). يساوي الميل العربي: ٢ كم تقريباً.
- (٢٣٤). موسوعة العتبات المقدسة: ١٢ / ٨٨.
- (٢٣٥). معجم البلدان: ٢ / ٨٦.
- (٢٣٦). الطبري: ٧ / ٣٨٢ - ٣٨٣.
- (٢٣٧). المصدر السابق: ٧ / ٣٩٢.
- (٢٣٨). باع الوزير الخاقاني ولاية الكوفة في يوم واحد على ١٩ والياً أخذ كل واحد منهم رشوة فهجاه أحد الشعراء المعاصرين له بقوله:
- وزير لا يملّ من الرقاعة يوئي ثم يعزل بعد ساعة
- إذا أهل الرشاهادوا إليه فأحظى القوم أوفرهم بضاعة
- حياة الامام دراسة وتحليل / ٢٨٧، عن الفخري / ١٩٨.
- (٢٣٩). الطبري: ٧ / ٣٨٥.
- (٢٤٠). المصدر السابق.
- (٢٤١). كان للمتوكل ٤/١٠٠٠ جارية وقد قاربهن جميعاً. أخبار الدول / ١١٦، تاريخ الخلفاء / ٣٤٩.
- (٢٤٢). وقعت الحوادث في أواخر سنة ٢٤٥هـ شباط سنة ٨٦٠م.

- (٢٤٣). الجمهورية لافلاطون / ترجمة فؤاد زكريا / ٤٩٧.
- (٢٤٤). كان عمر بن فرج مسؤولاً عن صرف الصكوك التي تصدر عن البلاط كمرتبات لموظفي الدولة، ويبدو أن الحادثة وقعت سنة ٢٣١ بعد استياء الوثائق من أخيه جعفر المتوكل.
- (٢٤٥). الطبري: ٧ / ٣٨٦.
- (٢٤٦). المصدر السابق.
- (٢٤٧). تاريخ الخلفاء العباسيين.
- (٢٤٨). المصدر السابق.
- (٢٤٩). الطبري ٧ / ٣٨٦.
- (٢٥٠). يصادف محرم الحرام من سنة ٢٤٦ هـ شهر نيسان سنة ٨٦٠ م.
- (٢٥١). الامام الهادي من المهدي إلى اللحد / ٥١.
- (٢٥٢). المصدر السابق.
- (٢٥٣). حياة الامام الهادي دراسة وتحليل / ٣٠٢ بالاستناد إلى شرح «شافية» أبي فراس الحمداني: ١٤٤/٢.
- (٢٥٤). الطبري: ٧ / ٣٨٨.
- (٢٥٥). اثبات الوصية / ٢٤٠.
- (٢٥٦). موسوعة العتبات المقدسة: ١٢ / ٧٩.
- (٢٥٧). «وفي هذه السنة (٢٤٥هـ) أمر المتوكل ببناء الماخورة». ابن الاثير: ٧ / ٨٧.
- (٢٥٨). معجم البلدان: ٢ / ١٤٣.
- (٢٥٩). ديوان البحري: ١ / ٤٠.
- (٢٦٠). الطبري: ٩ / ٢١٢.
- (٢٦١). «وهو المنتصر أول خليفة من بني العباس عرف قبره» الطبري: ٧ / ٤١٥.
- (٢٦٢). سورة الفرقان: الآية ٢٨.
- (٢٦٣). تاريخ العباسيين / ٥٩٢.
- (٢٦٤). تزوج القائد بغا من حالة المتوكل. الطبري: ٧ / ٣٩٢.
- (٢٦٥). الطبري: ٧ / ٣٨٨.
- (٢٦٦). الامام الهادي من المهدي إلى اللحد / ٤٩.
- (٢٦٧). المصدر السابق / ٥٠.
- (٢٦٨). اصول الكافي: ١ / ٩٧.
- (٢٦٩). سورة الاعراف: الآية ٤٢.
- (٢٧٠). التوحيد / ١٠٤.
- (٢٧١). من تلامذة الامام الصادق، وكان يقول بالتجسيم قبل تتلمذه على يد الامام.

- (٢٧٢). التوحيد / ٩٧.
- (٢٧٣). كشف الغمة: ٣ / ١٧٦.
- (٢٧٤). حياة الامام الهادي دراسة وتحليل / ١٠٣ بالاستناد إلى الاحتجاج للطبري.
- (٢٧٥). اثبات الوصية / ٢٤٠.
- (٢٧٦). المصدر السابق.
- (٢٧٧). كان ابراهيم بن المهدي مغنياً، وكان المتوكل مؤثماً، وكان المعتز مخنثاً، عن رسالة الخوارزمي إلى أهل نيسابور - حياة الامام الرضا: ٢ / ٢١٣.
- (٢٧٨). اعتقل دعبل الخزاعي في مدينة البصرة وتعرض للتعذيب الوحشي بسبب بعض قصائده الثورية، ثم أخلى سبيله ففر إلى الاهواز ومنها إلى «سوسة» حيث يوجد مرقد النبي دانيال عليه السلام وهناك اغتيل بعد صلاة العشاء بعكاز له زج مسموم وتوفي في الصباح، الاغاني: ١٨ / ٦٠، وفيات الاعيان: ١ / ١٨٠، تاريخ بغداد: ٨ / ٣٨٢، تاريخ الأدب العربي - عمر فروخ: ٢ / ٢٨٤.
- (٢٧٩). «لي خمسون سنة أحمل خشبتي على كتفي الله أدور على من يصلبني عليها فما أجد من يفعل ذلك»، دعبل الخزاعي / الديوان.
- (٢٨٠). الطبري: ٧ / ٤٠٠.
- (٢٨١). مقاتل الطالبين / ٣٩٦.
- (٢٨٢). الامام الهادي من المهد إلى اللحد / ٥٠ بالاستناد إلى أمالي الشيخ الطوسي.
- (٢٨٣). الطبري: ٧ / ٣٤٩.
- (٢٨٤). المصدر السابق والأجاجير: ما شوي من الطين.
- (٢٨٥). المصدر السابق.
- (٢٨٦). اثبات الوصية / ٢٤٠.
- (٢٨٧). المصدر السابق.
- (٢٨٨). موسوعة العتبات المقدسة: ١٢ / ٢٦٠.
- (٢٨٩). المصدر السابق: ١٢ / ٢٦١.
- (٢٩٠). الطبري: ٧ / ٣٩٠ - ٣٩١.
- (٢٩١). موسوعة العتبات المقدسة: ١٢ / ٦٤.
- (٢٩٢). الأغاني: ٢٢ / ٢٠٠.
- (٢٩٣). سورة الفرقان: الآيات ٦١ - ٦٤.
- (٢٩٤). مروج الذهب: ٤ / ١١.
- (٢٩٥). نزهة المجلس: ٢ / ١٣٧، تذكرة الخواص / ٣٦١، موسوعة العتبات المقدسة: ١٢ / ٢٧٠.
- (٢٩٦). الطبري: ٧ / ٣٩٠.

- (٢٩٧). المصدر السابق: ٧ / ٣٩٦.
- (٢٩٨). المصدر نفسه.
- (٢٩٩). المصدر نفسه: ٧ / ٣٩٠.
- (٣٠٠). المصدر نفسه: ٧ / ٣٩١.
- (٣٠١). «ركب يوم الفطر وقد ضرب له المصاف أربعة أميال وترجل له الناس». الطبري: ٧ / ٣٩٠. والميل العربي يساوي ٢ كم تقريباً.
- (٣٠٢). حياة الامام الهادي دراسة وتحليل / ١٥٦.
- (٣٠٣). إثبات الوصية / ٢٤٠.
- (٣٠٤). المصدر السابق.
- (٣٠٥). البحار: ١٢ / ١٣٤.
- (٣٠٦). الطبري: ٧ / ٣٩١.
- (٣٠٧). المصدر السابق / ٣٩٢.
- (٣٠٨). غلام المتوكل (عيسى بن ابراهيم) النصراني، وقد تمكن من الفرار في تلك الليلة من القصر بعد أن شعر بوجود خطة لاغتيال الخليفة.
- (٣٠٩). «وفي هذه السنة ٢٤٥هـ أمر المتوكل ببناء الماخورة» ابن الاثير: ٧ / ٨٧.
- (٣١٠). «أبو أحمد شقيق المؤيد».
- (٣١١). وهو نفس السيف الذي اشتراه الخليفة وكلفه مبالغ طائلة وسلمه إلى «باغر التركي» لحراسته شخصياً.
- (٣١٢). الامام الهادي من المهد إلى اللحد / ٢٧٠ بالاستناد إلى ثاقب المناقب.
- (٣١٣). المصدر السابق.
- (٣١٤). الطبري: ٧ / ٤٠٤.
- (٣١٥). حياة الإمام الهادي دراسة وتحليل.
- (٣١٦). سورة الحج / ٦٠.
- (٣١٧). سورة غافر / ٤٠.
- (٣١٨). اسمه عبدالله بن رابية الطوري / الامام الهادي من المهد إلى اللحد / ٥٠ بالاستناد إلى أمالي الطوسي.
- (٣١٩). رواية محمد بن الحسين الاشناني، مقاتل الطالبين / ٣٩٦.
- (٣٢٠). خان في بغداد. الطبري: ٧ / ٣٧٥.
- (٣٢١). تم اعدام عيسى بن جعفر صاحب الخانات في بغداد بأوامر شخصية من المتوكل ورمي بجسده في دجلة. الطبري: ٧ / ٣٧٥.

(٣٢٢). قام المنتصر فور تسنّمه الخلافة بعدة اجراءات اصلاحية في طليعتها التخفيف من محنة العلويين إذا قام بما يلي:

أولاً: ممتلكات العلويين المجمدة.

ثانياً: فذك إلى بني فاطمة.

ثالثاً: أمره ببناء مرقد الامام حسين ودعوته الناس لزيارته وزيارة مرقد «الامام علي عليه السلام».

رابعاً: اقالة حاكم المدينة وتعيين حاكم جديد مع توصيات مؤكدة بمعاملة العلويين معاملة لائقة، راجع الطبري: ٧ / ٤٠٠ - ٤١٧.

ولكن مجرى الأحداث الذي يشير إلى اغتياله بعد ستة اشهر من خلافته يؤكد أنه كان يواجه ضغوطاً شديدة من القادة الاتراك الذين كانوا يعملون لمصالحهم الخاصة، ولكنه كان يخطط فيما يبدو لانقاذ الخلافة من النفوذ التركي المتفاقم ولذا فكروا باغتياله.

(٣٢٣). ركب أحمد بن الخطيب ذات يوم فتظلم إليه متظلم بقصة فأخرج «ابن الخطيب» رجله من الركاب فرج بها في صدر المتظلم فقتله فتحدث الناس بذلك وقال بعض شعراء الزمان مخاطباً الخليفة:

اشكله عن ركل الرجال فإن ترد مالا فعند وزيرك الأموال

(٣٢٤). مروج الذهب: ٤ / ١٤٦ ط. بيروت لبنان مؤسسة الاعلمي.

(٣٢٥). المصدر السابق: ٤ / ١٤٥.

(٣٢٦). البساط الذي كان مسرحاً لاغتيال المتوكل في منتصف الليل.

(٣٢٧). الطبري: ٧ / ٤٠٨.

(٣٢٨). المصدر السابق: ٧ / ٤٠٥.

(٣٢٩). الطبري: ٧ / ٤١٣.

(٣٣٠). تاريخ الخلفاء / ٣٥٧.

(٣٣١). المصدر السابق.

(٣٣٢). مروج الذهب: ٤ / ١٤٢ والشاكرية مفردة تعود إلى جذر فارسي فيما يبدو ولعل أصلها «شاكردية» لانها تعني الأجير، والخدام وقد اطلقت في بغداد على الجنود المرتزقة الذين يقاتلون في مقابل أجور محددة..

(٣٣٣). المصدر السابق: ٤ / ١٤٣.

(٣٣٤). المصدر نفسه: ٤ / ١٤٩.

(٣٣٥). البحار: ٥٠ / ١٢٦.

(٣٣٦). المصدر السابق: ٥ / ١٢٥.

(٣٣٧). مروج الذهب: ٤ / ١٤٦ ط. مؤسسة الاعلمي بيروت ١٩٩١م.

(٣٣٨). الطبري: ٧ / ٤١٤.

- (٣٣٩). تاريخ الخلفاء: ٣٥٧.
- (٣٤٠). مروج الذهب: ١٤٦/٤.
- (٣٤١). تاريخ الخلفاء: ٣٥٧.
- (٣٤٢). المصدر السابق.
- (٣٤٣). الطبري: ٤١٥/٧.
- (٣٤٤). المصدر السابق: ٤١٧/٧.
- (٣٤٥). موسوعة العتبات المقدسة سامراء: ٩٥/١٢.
- (٣٤٦). قوات من «الشاكزية» الطبري: ٤١٨/٧.
- (٣٤٧). البحار: ١٣٢/١٣.
- (٣٤٨). الكافي: ٥٠٠/١.
- (٣٤٩). المصدر السابق وكان الامام الهادي قد كتب إليه بشأنها: «سوف ترد إليك وما يضرك الا ترد عليك» المصدر السابق.
- (٣٥٠). كان بغا لا يرتدي درعاً في القتال وعندما عُدل في ذلك قال: «رأيت في نومي النبي ﷺ ومعه جماعة من اصحابه فقال لي: يا بغا! أحسنت إلي في رجل من أمتي فدعا لك بدعوات استجيب له فيك.. قال: فقلت: يا رسول الله ومن ذلك الرجل؟ قال: الذي خلصته من السباع؛ فقلت يا رسول الله سل ربك أن يطيل عمري.. فرفع يديه نحو السماء وقال: اللهم أطل عمره، وأتم أجله فقلت يا رسول الله خمس وتسعون سنة، فقال رجل كان بين يديه: ويوقى من الآفات.. فقلت للرجل: من أنت؟ قال: أنا علي بن أبي طالب فاستيقظت من نومي وأنا اقول: علي بن أبي طالب».
- مروج الذهب: ١٧٤/٤.
- (٣٥١). تاريخ ابن الوردي المجلد الأول / ٣٥٠.
- (٣٥٢). الكافي: ٥٠١/١.
- (٣٥٣). المصدر السابق، مروج الذهب: ١٥٦/٤.
- (٣٥٤). الطبري: ٤٢٠/٧.
- (٣٥٥). نوع من الذئاب يعيش في صحاري آسيا الصغرى.
- (٣٥٦). الطبري: ٤٢٤/٧.
- (٣٥٧). المصدر السابق.
- (٣٥٨). يحيى بن عمر بن يحيى بن الحسين بن زيد بن علي بن الحسين السبط بن علي بن أبي طالب.. أبو الحسين، أمه فاطمة بنت الحسين بن عبدالله من حفيدات جعفر بن أبي طالب..

ثائر من أباة أهل البيت عليه السلام، اشعل ثورته في عهد الطاغية العباسي المتوكل سنة ٢٣٥هـ واتجه إلى خراسان فردّه عبدالله بن طاهر إلى بغداد، وتعرض للتعذيب وزج في سجن المطبق الرهيب.. ثم أفرج عنه فيما بعد فاتجه إلى الكوفة في عهد «المستعين» واستطاع بعد أن حشد جهد المعارضة من السيطرة على المدينة فأطلق من فيها من السجناء، ورفع شعاره في البيعة إلى الرضا من آل محمد، فبايعه الناس وطرد نواب الخليفة، وعسكر في الفوجة، واشتبك مع الجيش العباسي وانزل به هزيمة ساحقة. وتداركت اجهزة الدولة الخطر بارسال تعزيزات عسكرية هائلة وجرت قرب الكوفة معارك ضارية لم تصمد فيها قوات الثورة وهوى الثائر من فوق فرسه شهيداً فقطع رأسه وارسل إلى المستعين. كان حسن السيرة متديناً، يتمتع بساعدين مفتولين حتى انه إذا سخط على أحد عبيده لوى حول عنقه طوقاً من الحديد فلا يحلّه غيره.

رثاء كثير من الشعراء من بينهم الشاعر ابن الرومي.

الطبري / حوادث سنة (٢٣٥، ٢٥٠)هـ، مروج الذهب: ١٦٠/٤.

(٣٥٩). الطبري: ٤٥٨/٧.

(٣٦٠). اشيع عن تمثال الفارس الذي يتربع فوق القبة الخضراء في قصر الذهب انه حيثما يشير برمحه فان هناك ثورة ما.

(٣٦١). الامام الهادي من المهد إلى اللحد: ١٣٧.

(٣٦٢). حياة الامام الحسن العسكري: ٢٥.

(٣٦٣). الطبري: ٥/٧.

(٣٦٤). مروج الذهب: ١٩٠/٤.

(٣٦٥). المصدر السابق.

(٣٦٦). المصدر نفسه.

(٣٦٧). اثبات الوصية ط انصاريان ايران: ٢٤٥.

(٣٦٨). المصدر السابق.

(٣٦٩). المصدر نفسه.

(٣٧٠). الطبري: ٥١١/٧ - ٥١٢.

(٣٧١). المصدر السابق: ٤٧٨/٧.

(٣٧٢). المصدر نفسه: ٥١٤/٧.

(٣٧٣). حياة الامام الهادي دراسة وتحليل: ١٦٣.

شهد مطلع النصف الثاني من القرن الثالث الهجري سلسلة من الثورات والقلال الداخلية.. كانت ثورة الزنوج في جنوب العراق اكثرها عنفا وأطولها زمناً اذ استمرت ١٥ سنة (٢٥٥ - ٢٧٠هـ). (٣٧٤). محفظة نقود.

- (٣٧٥). يمكن دراسة المدونات الشيعية في كتاب الغيبة للشيخ الطوسي واكمال الدين، للشيخ الصدوق ودراسة الحقبة الزمنية التي اكتتفت حوادث مصرع الامبراطور ميخائيل الثالث ونهاية حكم الاسرة العمورية.
- (٣٧٦). سفر الرؤيا: ١/١٢، ٥، الكتاب المقدس ط سنة ١٩٨٣ بالاستناد إلى عقيدة المسيح الدجال سعد أيوب: ١٠٠.
- (٣٧٧). الطبري: ٣٧٦/٧.
- (٣٧٨). وقعت بين (٢٤٩ - ٢٥٣) هـ اشتباكات حدودية بين الروم والدولة الإسلامية راجع تاريخ «الطبري» حوادث الاعوام المذكورة وكذا تاريخ «ابن الأثير».
- (٣٧٩). الطبري: ٥١٢/٧.
- (٣٨٠). المصدر السابق.
- (٣٨١). كان السفير الأول للإمام المهدي يعمل في تجارة الزيت واشتهر باسم السمان.
- الامام المهدي من المهدي إلى الظهور: ١٩٧.
- (٣٨٢). الطبري: ٥١٨/٧.
- (٣٨٣). المصدر السابق: ٥١٩.
- (٣٨٤). جعفر المعروف بالكذاب ظهرت عليه دلالات الانحراف في حياة والده، خاصة في علاقاته مع موظفي البلاط وصداقته لبعض الشبان النزقين.
- (٣٨٥). كان الامام الحسن العسكري شديد الشبه بوالده / اثبات الوصية: ٢٤٣.
- (٣٨٦). بالرغم من تفاقم القلاقل الداخلية في الدولة الإسلامية فقد ظلت موازين القوى في الصراع مع الروم في صالح الإسلام، وكانت غارات الروم عادة ما تُمنى بالفشل والتنازل عن المزيد من الأراضي.
- (٣٨٧). فتاتان تعيشان في منزل الامام الهادي عليه السلام.
- (٣٨٨). الامام المهدي من المهدي إلى الظهور: ١١٨.
- (٣٨٩). سفر الرؤيا: ١٣/١٢.
- (٣٩٠). كنز العمال: ج ٧، فرائد السمطين: ج ٢، بحار الانوار: ٧١/٥١.
- (٣٩١). يصادف ١ محرم الحرام ٢٥٤ هـ ١ كانون الثاني سنة ٨٦٨ أحداث التاريخ الإسلامي: ١٢٩/٢.
- (٣٩٢). ابن الاثير: ١٨٦/٧ - ١٨٧.
- (٣٩٣). الطبري: ٥١٩/٧.
- (٣٩٤). افغانستان في العصر الحاضر.
- (٣٩٥). مدينة تقع شرق ايران.
- (٣٩٦). مروج الذهب: ١٩٤/٤.
- (٣٩٧). تاريخ الغيبة الصغرى: ٣٩١.

- (٣٩٨). الغيبة للشيخ الطوسي: ٢١٥.
- (٣٩٩). ابن الاثير: ١٨٩/٧، الطبري: ٥١٩/٧.
- (٤٠٠). مروج الذهب: ٨٦/٤، دلائل الامامة للطبري: ٢١٦.
- (٤٠١). الكافي / كتاب الاطعمة والاشربة.
- (٤٠٢). مروج الذهب: ١٨٤/٤.
- (٤٠٣). الغيبة الصغرى محمد الصدر: ٢٥٩.
- (٤٠٤). حياة الامام علي الهادي دراسة وتحليل: ١٥١.
- (٤٠٥). الحاوي للسيوطي: ٢٢٣/٢.
- (٤٠٦). تاريخ الغيبة الصغرى: ١٣٢، كمال الدين: ٤٢٧/٢.
- (٤٠٧). لقب طلحة بـ«الموفق» بعد نجاحه في تركيع المستعين واجباره على التنازل عن الخلافة / مروج الذهب.
- (٤٠٨). اثبات الوصية ط انصاريان: ٢٤٣.
- (٤٠٩). المصدر السابق.
- (٤١٠). جعفر الكذاب وكان مع الأسف طائشاً سبب الكثير من المتاعب لأخيه.
- (٤١١). يعتقد البعض بأن محنة أهل البيت عليه السلام بدأت بعد وفاة النبي صلى الله عليه وآله واجتماع السقيفة الذي أسفر عن أقصاء الامام علي عن الخلافة وقد حصل ذلك يوم الاثنين كما هو معروف.
- (٤١٢) سورة المائدة؛ الآيتان: ٥٥ - ٥٦.
- (٤١٣) سورة الأحزاب؛ الآية: ٥٧.
- (٤١٤) السرب - بفتح السين -: الطريق.
- (٤١٥) سورة النمل: آية ٤٠.
- (٤١٦) سورة يوسف: آية ١٠٠.
- (٤١٧) سورة يونس: آية ٩٤.
- (٤١٨) سورة لقمان آية ٢٦.
- (٤١٩) سورة الزخرف آية ٧.
- (٤٢٠) سورة الشورى: آية ٤٢.
- (٤٢١) سورة الطلاق: آية ٦٥.
- (٤٢٢) ابن صفية: هو الزبير بن العوام قتله ابن جرموز يوم «الجمل».
- (٤٢٣) أجاز على الجرحي: أي أجهز عليهم.
- (٤٢٤) سورة آل عمران: آية ٦١.
- (٤٢٥) ساهم: أي قرع بينهما.

(٤٢٦) أخذنا هذه الفقرات من تحق العقول وفي المناقب غيرها.

(٤٢٧) يغلس بها: أي يصلي بها في الغلس، وهو الظلمة في آخر الليل.

(٤٢٨) علوي أعدم بأمر المنصور.

(٤٢٩) أخت الرشيد: مطربة!

(٤٣٠) أخو عليّة مطرب وموسيقي.